# إطلالة على التراث

تأليف
عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الرابع

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ/١٩٩٤م

# إطلالة على التراث

## الجزء الرابع

تأليف

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض - الطبعة الأولى
١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ

٨١٠,٨ الخـويطـر، عبدالعزيز بن عبدالله.
٦٣٦خ إطلالة على التراث / عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر.
- ط١. - الرياض: ع. ع. الخويطر، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م.
مج ٤ : ص؛ ١٤,٥ × ٢١ سم.
ردمك: x - ١١٧ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـج ٤)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)
١ ـ الأدب العربي - مجموعات. ٢ - الحكايات العربية.
٣ - السعودية - المقالات العربية.
أ ـ العنـــوان.

رقم الإيداع: ٠٥٧٥ / ١٤
ردمك: x - ١١٧ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـج ٤)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)

# مقدمة

هذا هو الجزء الرابع من كتاب «إطلالة على التراث»، جاء في ساقة الأجزاء الثلاثة الأولى، لابساً لباسها، متحلّيا بحليتها، سائراً على نهجها، متخذاً أسلوبها، مؤملاً بأن يقبل من القارئ قبولها، وأن يُعطيَ الفائدة التي أعطتها.

ليس في هذا الجزء جديد يختلف عن الأجزاء السابقة إلا في المحتوى، فالموضوعات التي فيه غير الموضوعات التي فيها، والمعلومات غير المعلومات، فلقد طرق أبواباً جديدة، وعالج موضوعات مختلفة، وتهيأ له ما يجعل له صورة مختلفة، بما احتوى عليه من فوائد جديدة، حتى لو جاءت أحياناً معالجة ما عالجته الموضوعات في الأجزاء السابقة، فالمعلومات جديدة، والنصوص في الغالب مما لم يرد من قبل، وإن جاء نص مما ورد من قبل، فالمدخل إليه مختلف، والزاوية التي عولج منها غير الزاوية السابقة، والاستشهاد به لغرض آخر؛

فهو منجم دُخل عليه من باب مختلف، وجوهرة عرضت من وجه جديد، فالنص الواحد قد يمثل عدة أدلة، كل دليل يعضد فكرة قائمة بذاتها، ويؤخذ مبرراً لرأي يحتاج مثل هذا النص، يقيم أوده، ويشد عضده.

ليس في هذه الكتب من النصوص المستقاة من التراث إلا جاذب قوي إلى التراث، هذا المنجم الذي لا ينضب من المعادن الكريمة، التي يمكن أن يصاغ منها جواهر ثمينة؛ فبعض كتب التراث لو قرأه القارئ عدّة مرات لا يملّه، وفي كل مرة يجد فيه إيحاءًا جديداً لم يتنبّه له من قبل، أو لعل ازدياد ملكته في الفهم، نتيجة القراءة والاطلاع، كشفت له أستاراً لم تنكشف في السابق، واستشفّ في النص، ومنه، ما لم يستشف في الماضي، وهذه الثروة العظيمة من التراث، سواء ما كان منها في التاريخ أو الأدب، أو في فروع العلم المختلفة، ثروة واسعة عظيمة، ملئت بما يشفي غليل من أعطاه الله حبّ القراءة، والاستفادة.

وآباؤنا الأولون من الذين دوّنوا المعلومات، وكتبوا الكتب، وسجلوا فكرهم بأنواعه المختلفة، تفنّنوا في ذلك، فجاؤا بالأمر عاماً في كتاب، جعلوه موسوعة جامعة، حاوية للمعلومات لمن يريد هذا النهج من العلم، وجاؤا ببعض الأمور مخصصة لمن يريد أن يتخصص، وعمدوا إلى بعض المواضيع فجعلوا تحت أبوابها ما حصلوا عليه من معلومات من هنا وهناك؛ والمعاجم اللغوية مرتع خصب للمتعطش إلى العلم، فهي أنواع، منها ما اختص بالكلمة ومعناها، ومنها ما اختص بالموضوع فحصر له من الكلمات ما ندّ واقترب، وإن أنواعها، وما تجزّأت إليه، ليعتبر سبقاً للغة العربية وحمايتها، يفتخر به؛ إن بعض من لم يعرف عن هذا الجانب دهش لما عرف عنه، وعن أن هناك معاجم اهتمت بالمترادفات والمتضاد مثلاً، وكان يظن أن ذلك ميزة من ميزات الغرب، وسبقٌ مِنْ سَبْقِهم.

إن أحد أهداف «إطلالة على التراث» بأجزائه المتعددة، هو استدراج القارئ البعيد عن التراث

إليـه ، وتحبيبـه له ، وتعـريفه عليه ، وكشف جماله أمامه ، ورسم الطريق السهل إليه ، ووضع أنوار على الطريق تهديه إلى مكامن درره وشعاب جواهره ، ومن الأمـور التي قصدتها في ذلك اختيار المصادر المتوافرة بطبعات حديثة ما أمكن ، حتى لا يصعب عليـه العثور على المراجع فييأس ، أو يجدها فوق قدرته سعراً ووجوداً ، فيلقي عصا التسيار .

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يفتح أمامه طريق الاستفـادة ، وأن يعـين على متـح المزيد من تراثنا العـــذب النمـير، بطريقـة تحبب إليـه ، وتغـري بالـرجـوع إليـه ، والاستقـاء منـه ، حسب المؤمل وأكثر ، إنه سميع مجيب .

وبالله التوفيق . . . .

عبدالعزيز الخويطر

١٦/١١/١٤١٤هـ

# السر في طريق الحياة(*)

السر أمر اهتم به الناس في كل العصور ، وقالوا فيه الحكم ، وأكثروا من ذلك ، وقالوا ما قالوا عن تجربة ، وكلٌّ قال عنه ما عرف منه ، أو عانى من جرائه . والسر أمر صعب على الناس ، والقليل يبقيه على صفته ، والكثير يقضي على هذه الصفة فيه ، فالسرّ سرعان ما يصبح علناً .

وعانى الناس كثيراً من إذاعة السر ، ولكن يبدو أن الاحتفاظ بالسر أمر ليس بالسهل إلا على قليل من الناس ، والسر تكمن وراءه عوامل نفسية لا تلبث أن تتغلب على من يقاوم إفشاءه ، فبعض يضيق صدره به ، ويجد سعة بصدره إذا ما استطاع أن يجد من يوهم نفسه أنه يحفظه ، ونسي أنه هو لم يحفظه ، وأنه مثلما ضاق به صدره ضاق صدر الآخر به ، ولن يرتاح إلا إذا صبه في إذن آخر ، وكل

---

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٩٥٧) في ٢٢ جمادي الأولى ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٣/١١/٦م .

هامس بالسرّ له صديق محل ثقــة ، ثم يتسلســل الأمر ، مثلما تَبْني كرة الثلج نفسها وهي تتدحرج من مكـان مرتفـعٍ إلى مكـان منخفض . والفـرق بين صورة السرّ عنـدما أفشاه أول من علمه وبين من جاء في المرتبة العاشرة أو العشرين من سماعه ، أن النقـل لا بد أن يصيبـه بخلل ، فتتغـير الكلمات ، وتختلف الصورة ، ويتحور المعنى .

وبعض النـاس يفشيـه ، ليبني بذلـك نفســه ، وذلك عندما يوهم أن عنده من العلم ما ليس عند الآخرين الذين قد يظهرون في المجتمع أنهم أرقى منه أو أفهم . ويسعده أن يسمع أن الخبر الذي هو سبب فتح باب الإعلام عنه قد انتشر عند الناس ، وأن هذا بفضله وجهــده . والغـريب أن كل من أفشى سرّاً لآخــر يؤكــد عليـه ألا يُعلم أنـه هو المصــدر ، ولا يأخـذ درساً ممن أوصاه نفسه بمثل هذا ، ولم يحافظ على الوصية .

ولا أنسى طفلا قد لفت نظره فيمن حوله الهمس ،

فرأى فيه أمراً أعجبه ، وكان والده قد رزق بابنة له في ذلك الأسبوع ، ودعا الأصدقاء ليحتفل بذلك ، فأخذ الطفل ، بعد أن اجتمع الأصحاب ، يدور عليهم جميعا واحداً واحداً ، ويطلب منهم أن يقربوا آذانهم منه ، فيهمس حذراً في أذن كل واحد منهم أن والدته قد ولدت بنتاً قبل سبعة أيام وإن اسمها فلانة . ولم يبق من المدعوين من لم يُسِرَّ إليه بذلك . ولم يُفْشِ السر طبعاً رغم أن الجميع قد أُعْلِموا به ! وأن الاجتماع كان لأعلان ذلك ، والفرحة به !!

على أي حال هذا الطفل وهذه الطفلة قد تخرجا من الجامعة ، وقد تزوجا وأنجبا ، وقد يكونان من بين من سوف يقرأ هذا الحديث ، وإن كان لم يخطر ببالها ووالديهما وأصدقائهما أنه سوف يسجل ويكتب عنه .

والأطفال لا يستغرب منهم مثل هذا الأمر ، والسر يبدو أن فيه لهم جاذبية طاغية لا يستطيعون أن

يقاوموها . أذكر أن إحدى بناتي وهي صغيرة كانت عندما تريد أن تسارني أو تسار أمها ولا تود أن يعرف أحد ما كانت المسارة عنه ، فإنها تلصق أذنها بإذن المسمَّع ، وتوجه فمها إلى من أريد إخفاء الأمر عنه ، ويصبح السر كأنه أعلن في بوق . وهي تنظر إلى من أخفي عنه الخبر لترى من ملامح وجهه وتصرفاته إذا كان يسمع أم لا ، وكنا «نجبر بخاطرها» فنوهم أن ذهننا بعيد جداً ، وأن آذاننا صماء . ولا أستبعد أن أحد أبنائها اليوم سوف يعيد المنظر نفسه معها في يوم من الأيام .

وأعتقد أن الناس لو تنبهوا لما يحيط بالأسرار وحفظها لرأوا عجباً ، إلا أنه للأسف لم يبق لنا مدوناً إلا ما كتب في العصور الوسطى مما هو مستقصًى وممتع . ولعل السبب أن الأمور في هذا العصر تشعبت وتعقدت ، وأصبح هناك في الأمم دوائر يعتبر كل ما فيها سرّاً ولو إلى حين محدد بعدد من السنين . والدوائر الحكومية في العالم لا تخلو من معاملات سرية ، كثيراً ما يكتب عليها ذلك ، فيكون ذلك أدعى إلى تداولها

وانتشارها، واهتمام الناس بها، وربما لو أنها لم توسم بهذا الوسم لما لفتت النظر، وحين ابتذلت كلمة سري خلفتها وريْثَة أخرى وهي «سري للغاية» و «سري فوق العادة» و «قمة في السرية» وقليلا ما تفلح هذه الكلمات في إحكام السجف وإخفاء ما وراءها، وكثيراً ما اخترقت هذه الموانع. والحروب كانت مستودعات الأسرار، وكان اختراق الحواجز فيها، والغوص على ما في قاع بحرها يعتبر انجازاً، يتسابق المتصارعان على أي منهما تكون له اليد الطولى في الوصول إلى المخفي، وكثيراً ما كان النجاح في هذا سبباً في النجاح في ميادين القتال براً أو بحراً أو جواً. ولهذا صرف على أجهزة كشف الأسرار أو حفظها مبالغ طائلة وجدوا أنها مجزية، وأنها تستحق العناية المعطاة لها، والمصاريف المنفقة عليها، وأن التراخي في ذلك يعتبر لا نقصاً فقط في الوصول إلى الهدف أو محاولة ذلك، ولكن نقصاً في حضارة هذا العصر.

وما دون في التراث يدل على اهتمام بالأمر، وأنه

كان وبحق يشغل ذهن الأولين كما هو شاغلُ اليوم الآخرين . ومن بين الأقوال التي ساقوها على أنها حكمة ، قد يكونون وصلوا إليها بعد التجربة والممارسة والتحري كما هو المتوقع :

«صدور الأحرار قبور الأسرار»[1] .

ولا غرابة أن يصطاد مؤلف كتاب «قوانين الوزارة» هذه الحكمة فهو يتكلم عن ديوان الحاكم ، وهو مركز الأسرار . وقد قرن حفظ السر بالحُرِّ ، وكأنه يحذر من أن من أفشى السرّ فإنه غَيرُ حر ، وليس المهم مظهر الحرية ، ولكن المهم مخبرها ، وقد تجر هذه التهمة إلى شيء أكبر قد يلمس صفاء النسب ، وعدم براءته من الشائبة .

وقرن إفشاء السر بأمر يكره لم يقف عند الجملة السابقة ولكنه جاء في جملة أخرى ساقها مؤلف الكتاب نفسه ، فقد قرن إفشاء السر بالشر فقال :

«كشف الأسرار من شيم الأشرار»[2] .

---

(١) قوانين الوزارة ١٢٦ .

(٢) قوانين الوزارة ١٢٥ .

وهذا يعني أن الأمر ليس وصفاً للكشف ، ولا تقريراً عنه ، ولكن يكمن داخل ذلك تحذير وتخويف .

ويقرن إفشاء السرّ بأمر بشع حتى يتم التنفير منه ، ويبقى في النفس ما يجفل من الاقتراب من هذا المحذور فيما لو سولت للمرء نفسه في أن يستجيب لما قد يكون لديه من عُقَدٍ يريد أن يطفىء «خَرْمَتَها» بإفشاء ما قد يطلع عليه من سر ، ليبين أهميته ، ومدى ثقة الناس فيه ، وقدرته على الوصول إلى ما لا يستطيع إلا القليلون أن يصلوا إليه . والقول هو :

قال علي - رضي الله عنه - : «سرك أسيرك ، فإذا تكلمت به صرت أسيره»[1] .

فإذا كانت كلمة الشَّرّ في الجملة الأولى بشعة ، فهي كلمة عامة ، أما الأَسْر فكلمة محدِّدة للأذى والمذلة والإهانة ، ولا أشد على الإنسان من أن يقع

---

(١) تسهيل النظر ٩٠ .

في الأسر، وهو أمر مرعب، ورغم أن هذا الأمر معنوي، إلا أن أصله المادي يضفي عليه من البشاعة ما أراده علي - رضي الله عنه - مما يجفل منه قائله أو سامعه.

وقد لا يكون من لديه السر هو الذي يود أن يخرجه، ولكن يأتي شخص يسعى إلى كشف المستور، فيحتال لذلك بحيل يرى أنها توصله إلى هدفه، فهو حين يعلم أن هناك سراً فإنه يصاب بقلق، ويصبح همه أن يحتال في الوصول إلى كُنْهِ الأمر. ولهذا قال الشاعر صالح بن عبدالقدوس:

لا تذع سراً إلى طالبه
إنما الطالب للسر مذيع[1]

والشاعر يعطي العلة في وجوب عدم الاستجابة لرغبة طالب معرفة السرّ، وهي أنه لن يحفظه، وإنما سوف يذيعه، فيصبح مشاعاً، ولم يعد سراً، فيفقد بهذا طبيعته التي تضمن فائدته، ويأتي من وراء

---

(١) تسهيل النظر ٩٤.

ذلك الضرر الذي من أجل تفاديه جعل سراً .

والشاعر محمد بن عبيد الله ، من ولد عتبة بن أبي سفيان يقول :

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذي يستودع السر أضيق[1]

وهذه إضافة مفيدة لما جاء في البيت الذي قبله ، وكشف لسبب عدم البوح بالسر لآخر ، مع عدم لومه إذا هو باح به ، لأن صاحب السر نفسه لم يستطع أن يحافظ عليه في صدره ، فإذا كان هو كذلك فمن باب أولى أن لا يتحمله صدر الآخرين .

وقد قال بشار بن برد في هذا :

تبوح بسرك ضيقا به
وتبغي لسرك من يكتم[2]

والملك عبدالعزيز - رحمه الله - حكيم ، إذ لاحظ جانباً مهماً في عمله يحمي به أسرار ديوانه من

(١) بهجة المجالس ٢/٤٦٢ ، تسهيل النظر ٩٦ ، محاضرات الأدباء ٥٦ .

(٢) محاضرات الأدباء ٥٦ .

أن تكون مضغة في الأفواه، فلقد روى عنه محمد ابن مانع - رحمهما الله - صاحب كتاب «توحيد المملكة» أنه نبه على موظفيه بعدم الاستجابة للدعوات التي توجه إليهم، وقال لهم إنكم لستم أصحاب تجارة فيعرف الناس منكم الأسعار، وحركة الأسواق، ولا أصحاب سفر فتأتون لهم بعجائب ما ترون، ولا أصحاب فقه وعلم فتتحدثون فيما لا يعرفه الناس من ذلك، والناس لا يجدون عندكم إلا أخبار عملكم.

وقد تنبه - رحمه الله - إلى هذه الناحية النفسية المهمة، فإذا تصدر المدعو المكرم المجلس عند ضيفه، وامتلأ المجلس في انتظار الغداء أو العشاء فليس عند المدعو بضاعة كلام يزجيه إلا الحديث عن عمله، ولن يتكلم عنه بما هو ظاهر للناس، فهم قد عرفوه، والحديث عما يعرفون مكرر وممجوج، فيعمد إلى خفيِّ العلم فيُظهره، ومكتوم السر فيفشيه، أو يلمح إليه. لهذا - رحمه الله - التفت لذلك، ونبه إليه، ونصحهم بعدم قبول الدعوات.

وقد عزي نجاح الملك الظاهر بيبرس ، أحد ملوك المماليك ، في أبرز أسبابه إلى إتقانه لإحكام إخفاء نواياه أو أفعاله ، فأموره تأتي مفاجأة ، فإذا أراد أن يأخذ عدواً قريباً فإنه لا يظهر شيئاً يدل على ما في نفسه عليه ، حتى تحين الفرصة التي ينتظرها ، فيتخذ الاجراء الذي يراه في مصلحة دولته . وهذا نفعه في أن لا يعرف من حوله من كبار المماليك ما يمكن أن يفاجئهم به .

وبلغ من حرصه على إخفاء أموره أنه كان يرسل القائد إلى جهة ما ، ويعطيه خطاباً مختوماً يفتحه في مكان معين ، فإذا فتحه حينئذ ، فقد يجده يوجهه جهة مغايرة للاتجاه الذي أخذه في أول الأمر ، وقد يجد في داخل الخطاب خطاباً ثانياً وثالثاً ، فلا يدري أحد في الجيش أين سوف تكون وجهته النهائية ، ولا من سوف يهاجم ، حتى يصل إلى قصده ، فَيُفاجَأ العدو بالجيش المحاصر ، وقد تكون المفاجأة للقائد مثل ما هي للعدو . ويأمن بذلك الجواسيس وسبقهم

إعطاء الأخبار للعدو، وتحذيره. بل إن العدو قد يطمئن عند مسير الجيش الأول، ووجهته عند ما ظهر، ويرى أن بيبرس لن يهاجم في جهتين، ولا يدري أنه في النهاية هو الجهة الوحيدة المقصودة.

وقد نظم بيبرس أمر البريد، فجعل في كل محطة خيلا مسرجة مستعدة، يركبها من يتسلم البريد بمجرد وصول الآخر، وتراح الخيل المتعبة، لتستعد لدورة أخرى. وكان يستفيد من هذه المحطات أحيانا، فيُظهر في القاهرة أنه متوعك صحياً، ويخرج من باب سرّي من قلعته مع اثنين أو ثلاثة ممن يثق بهم، فلا يدري حاكم دمشق إلا وهو أمامه بعد أيام قليلة، لا يصدق أحد أن إنسياً يستطيع أن يقطع فيها هذه المسافة. ويعود بالطريقة نفسها قبل أن تصل أخبار وجوده في دمشق لمن في القاهرة، فينكشف السرّ.

وكان بيبرس خير حاكم استطاع أن يتقن كتمان السرّ، ويستفيد من ذلك الفائدة الكاملة. ولعله في

إخفائه العداوة لمن يتربص به أخذ بالحكمة التي تقول : «أوهن الأعداء كيداً أظهرهم لعداوته»[1] .

وعمرو بن العاص من الذين تردد على ألسنتهم الحكمة ، لما مرّ به من تجارب ، وما يبدو عليه من تبصر وفهم للحياة ، وعمرو يقول عن السرّ قولا صادقاً : «ما استودعت رجلا سرًّا فأفشاه فلمته ، لأني كنت به أضيق صدراً حين استودعته إياه»[2] .

وليس هناك عند الحث على كتمان السر فرق بين القريب أو البعيد ، ولا بين الصديق وغير الصديق ، ولهذا أكد أحد الشعراء على ذلك فقال ابن وكيع :

إذا كنت ذا سرٍّ تخاف من العدا
عليه ظهوراً فاطوه دون ذي ودّ[3]

والشاعر يرسم خط سير السّرّ إذا أظهرته ،

---

(١) تسهيل النظر ٢٥٩ .
(٢) بهجة المجالس ٢/٤٦٢ .
(٣) بهجة المجالس ٢/٤٦٨ .

ويُرِي أنه يخرجٍ من صدرك ، ويمر بصدر من تود ، فلاَ يبقى كثيراً حتى يبلغ في سيره عدوّك ، الذي كنت تتحاشى أن يبلغه ، ولهذا جعلته سراً ، فلم تفلح في إبقائه كذلك .

والصديق الذي تودعه سرّك قد يحافظ عليه إلى وقت ما ، ثم ينسى أنه سرّ ، أو يتوهم في ذلك فيفشيه أو بعضه ، لأن الأمور إختلطت عليه ، خاصة إذا سمع أو توهم من كلام من حوله أن عندهم خبراً بما عنده ، فحينئذ يضعف وكاء قربة السرّ عنده ، وينسى التشديد عليه منك بحفظه .

ولهذا قيل : « ما كتمته عن عدوك فلا تطلع عليه صديقك »[1] .

وقيل : « أصبر الناس من صبر على كتمان سره ، فلم يبده لصديقه »[2] .

وبعض الناس من حرصه على كتمان السرّ يحاول

---

(١) محاضرات الأدباء ٥٥ .

(٢) محاضرات الأدباء ٥٦ .

أن ينسى ما قيل له ، فلا يجيله في ذهنه ، وقد عبر عن هذا كشاجم الشاعر فقال :

ويكاتم الأسرار حتى أنه
ليصونها عن أن تمر بخاطره

ووصفوا من لا يصبر عن إفشاء السر بأنه : «أنم من النسيم على الرياض»[1] .

ويأتي الخلل في سور حصن الأسرار من بعض التعبيرات البراقة سواء كانت نثراً أو شعراً ، فتسمح بفتح ثغرات تبدو في الوهلة الأولى أنها لا تضر ، وهي في الحقيقة مداخل واسعة لإفشاء الأسرار ، فمثلا يقول محمود الوراق :

إذا كتم الصديق أخاه سرّاً
فما فضل الصديق على العدوّ

وقيل :

«لا يزال المرء في كربة ووحشة ما لم يجد من يشكو إليه» .

---

(١) محاضرات الأدباء ٥٦ .

وقال أحد الشعراء :

لا تكتمن داءك الطبيبا
ولا الصديق سرك المحجوبا

أما الصراحة التامة ، والإقرار بواقع الضعف فتمثله الأبيات الآتية والجمل التي ساقها صاحب كتاب «محاضرات الأدباء» :

ولا أكتم الأسرار لكني أنمها
ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي
وإن قليل العقل من بات ليلة
تقلبه الأسرار جنبا إلى جنب

وقال رجل لصديق له :

أكتم سري الذي أفشيته ، فقال : كلا لست أشغل قلبي بنجواك ، ولا أجعل صدري خزانة شكواك ، فيقلقني ما أقلقك ، ويؤرقني ما أرقك ، فتبيت بإفشائه مستريحا ، ويبيت بِحَرّه قلبي جريحا[1] .

---

(١) محاضرات الأدباء ٥٧ .

وقول هذا القائل يؤكده قول آخر :

«الصبر على التهاب النار أهون من الصبر على كتمان السرّ»[1] .

على أي حال يبدو أن كتمان السرّ صعب ، ولا يستطيعه إلا رجال قلائل ، رجال من ذوي العزم . وان السر لم يسمّ سراً إلا لأنه لا بد أن «يسير» بين الناس ، من واحد إلى آخر ، وبعد :

إن لكتمان السر للذة ، وإن المرء إذا تعود على ذلك ليجد زهوّاً في أنه استطاع تحصين قلعة في نفسه ، ولم يساعد أحداً في اختراق أسوارها . ويجلس في المحفل بين الناس يراهم أحيانا يتخبطون ، ويضربون أخماساً في أسداس ، في أمر معمّى عنهم ، وعنده سرّهُ ، فيرى بعضهم يقترب وبعضهم يبتعد ، ويستطيع أن يعرف عقول من حوله بقدر قربهم من الحقيقة أو بعدهم عنها ، وما هي المؤثرات التي جنحت ببعضهم عن الطريق

(١) محاضرات الأدباء ٥٦ .

الموصل ، والتي قادت صاحبها إلى قرب نقطة الصدق والإصابة . ولو أراد أن يلعب بهم لاستطاع لأن المفتاح بيده .

# أقوال على أقوال(*)

تتملك الحيرة الإنسان عندما يقرأ بعض النصوص في التراث فيجدها غير مطردة رغم أنها تتحدث عن أمر واحد، ويجد الاختلاف بينها إما في اسم الراوي، أو في اسم من دارت حوله القصة، وسيق عنه الحديث، أو في الزمن، ومع الزمن يتغير الرجال رواةً أو من تدور الحوادث حولهم. وقد يأتي الاختلاف في جزء من النص، إما بالزيادة أو النقص، ورغم أن الاختلاف طفيف إلا انه أحيانا يغير المعنى، ويحول المجرى. وقد تفتح الزيادة على صغرها بابا كان مغْلقاً على الفهم، وقد تأتي الزيادة في أصل النص، وما أدخل عليه فيها بعد، ببعض الخلل، ولو ترك النص على أصله، دون عبث به، لجاء المعنى كاملاً، والصورة واضحة. وليست الأمور عند الزيادة أو النقص، أو التغيير في الأسماء سهلة

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٩٦٤) في ١٤١٤/٥/٢٩هـ الموافق ١٩٩٣/١١/١٣م.

على تمييـز القارئ، وتحديد مراميها ومعانيها، بل يكون فيها من الإبهام ما يبقي الحيرة، ويفضي إلى الضياع.

والباحث الذي يتصدى للتحقق من النصوص قد يلجـأ إلى العودة إلى تاريخ تأليف الكتب التي وردت فيهـا النصـوص، وتـاريخ حياة مؤلفيها، والتأكد من سلسلة الرواة، وصحة معاصرتهم لمن روي عنهم، ليكون في هذا تأكد لقوة اللبنات التي سوف يقيم عليها بناء الحقيقة التي سوف يقررها، والصرح الصادق الذي ينوي تشييده. وقد يجد أن النص كان كاملاً في مصدر سابق فحذف منه جزء في المصدر اللاحق، إما عفواً أو قصداً. وعليه في ضوء ثقافته وعلمه أن يقرر ذلك. وقد يجده قاصراً على معنى بعينه في المصدر السابق، وجاءت الزيادة في المصدر اللاحق، إما اجتهاداً على أثر سماع، أو لغرض عمد إليه المؤلف.

وتلعب ثقافة الدارس دوراً أساساً في إعطاء الأحكام

عن النصوص بعد مقارنتها، فالمعرفة بالمذاهب، وما بينها من تناحر وعداء وما بينها من اختلاف، وما دار عنها من جدل يفيده في تقرير مدى تأثر النص بالمذاهب الدينية والفكرية والسياسية والاقتصادية السائدة في ذلك الزمن. وتفيده أيضاً إذا كانت ثقافته متمكنة في علم الأنساب، وفي معرفة القبائل، وما كان بينها من عداء أو حلف، في الجاهلية والإسلام. ولا يستغنى دارس النص عن الإحاطة بما كان بين العرب والشعوبيين من نزاع ومفاخرة، وما وضعه محامو الفريقين، لترجيح عنصر على عنصر، بالدفاع عن واحد، وبالهجوم على الآخر.

ويضاف إلى ما سبق مما يوجد ملكة عند الدارس يعرف بها طريقه إلى هدفه، الاطلاع على ما كتبه السابقون معاصرون أو غيرهم، عما لاحظوه على هذه النصوص وأمثالها، سواء جاءت هذه الكتابة بصورة كُتُب أوقفت على النقد والتمحيص، أو أقوال مبثوثة بين أسطر كتب التاريخ والأدب وتاريخه. فالمتصدي اليوم لمثل هذا البحث لا

يستغنى عن مثل هذه الحصيلة، خاصة تلك التي أبديت ودونت في زمن قريب من زمنها، أو تسلسلت من ذلك الزمن.

والمقارنة في هذا المجال، في ضوء الخطوات التي ذكرناها، تأتي بأمور عجيبة، فإما أن تبطل النص بكامله، أو تبطل الزيادة فيه، أو ترفض النقص الذي أحدث فيه، أو التحوير الذي اعتراه. والبديع في هذه الصورة أن التعليل يواكب الحقيقة المكتشفة، والدليل يصبح واضحاً للعيان، بقدر ما أدى إليه اجتهاد الدارس، وأوصلته إليه ملكته وثقافته وذهنه.

ولا يكاد الأمر يخرج في أسباب هذه الزيادات، أو هذا النقص، أو التحوير، عن أمور تكاد تكون محدودة، فهي إما أُقدم عليها قصداً لغرض، أو جاءت نتيجة خطأ في النقل رواية ومشافهة أو كتابة ونقلا، إذ أن بعض الأخطاء تأتي من خلل في السماع أو نقل الوراقين، أو عدم المراجعة الدقيقة، أو سوء

الخط، أو عدم فهم المقصود، أو أن هناك من ألبس الحادثة لشخص آخر في زمن آخر، ولم يدر الناقلون أو المدونون أن مثل هذا قد حدث في الماضي، ودُوِّن. ونحن إلى اليوم نسمع عن بعض الأشخاص المعاصرين المشهورين في عملهم أو فكاهتهم أو جنونهم ما نجد أنه في الحقيقة قد دون في كتب التراث، وتناقلته هذه الكتب في أبوابها المصنفة، وأصبح أمراً معروفاً لمن يقرأ.

أذكر أن شخصاً محترماً في مركز محترم تحدث عن أمر حدث له، وفيه ذكاء، وفيه فطنة، ويستحق من حدث له أن يفاخر به، ولكني وجدته قد حدث تماما في عصر سابق، وبعيد جداً، وأحسنت الظن بالرجل، وقلت لعله استفاد مما قرأ، وطبق في أمر حل مشكلته ما أقدم عليه السابق. فيكون له فضل الاستفادة، رحمه الله - فهو حري أن يستفيد من ثقافته في حل ما يمر به من مشاكل.

وقد يأخذ المرء سنين ليقرر في أمر نص، وقد

يقر ر أمراً نحو النص في ضوء ما تبين له ، فيعود بعد سنوات فينقضه نتيجة ظهور نص جديد مهم لم يطلع عليه ، وقد يصبح النص المنبوذ هو المقبول ، والمقبول هو المنبوذ . ويقول الدارس كما قال عمر ابن الخطاب عندما حكم في أمر لاحق بغير ما حكم به سابقا : هكذا حَكَمْنَا وهكذا نَحْكُمْ . أو ما في هذا المعنى .

ويمكن أن نعطي أمثلة محددة لبعض النصوص والقصص والأحداث التي اتسمت بصفة الحيرة بين التأرجح من زمن إلى زمن أو من راو إلى راو أو بطل قصة إلى آخر ، وإن كان حيِّز المقالة والوقت لم يسمح بعرضها على المحك الذي ذكرناه ، بما فيه من مبارد يمكن أن تهدي إلى الحقيقة حيالها ، وستبقى في حيز الحيرة لتعطي فكرة عن هذا الأمر الذي ذكرنا وصفه :

الحادثة الآتية وردت في بعض الكتب على أنها حدثت للفرزدق ووردت في كتب أخرى على أنها

حدثت للجاحظ، وهي تجري كالآتي:

قال يموت بن المزرع: قال لنا الجاحظ: كنت مجتازاً في بعض الطرقات، فإذا أنا بامرأتين، وكنت راكبا على حمارة، فضرطت الحمارة، فقالت احداهن للأخرى: «وي حمارة الشيخ تضرط!» فغاظني قولها، فأعننت، ثم قلت: «إنه ما حملتني أنثى قط إلا ضرطت»، فضربت بيدها على كتف الأخرى، وقالت: «كانت أم هذا منه تسعة أشهر في جهد جهيد!»[1].

هذا قول رَكِبَ كَتِفَ قول، والفرزدق يذكر أنه اسكت في ثلاثة مواقف هذا أحدها، والجاحظ يأتي بها على أنها حدثت له، فهل توافقت الخواطر، أو ادعاها أحدهما وأخذها من الآخر، أو هما معا أخذاها من ثالث، أو خلط الراوي بينهما؟ لعل البحث والاستقصاء حسب القواعد التي ذكرنا يجلو الحقيقة.

---

(١) أخبار الظراف ١٦٩. راجع عن الفرزدق الأغاني ٢١/ ٣٨٠.

وهناك قصة تروى عن هارون الرشيد في بعض الكتب، وتروى في كتب أخرى فتنسب إلى ابنه المأمون، وطبيعتها تجعل من غير المستبعد أنها حدثت للاثنين، لتكرار الحدث، وإمكان تكرار الإجابة عليه، قال صاحب «محاضرات الأدباء»:

أتي المأمون برجل وجب عليه حد، فأمر بضربه، فقال: «قتلتني»، قال: «الحق قتلك»، قال: «إرحمني»، قال: «لست بأرحم ممن أوجب الحد عليك»[1].

أما صاحب المحاسن والمساوىء فقد عزاها هارون الرشيد[2].

ويعزى لأحمد بن حنبل قول في بعض النصوص، وفي بعض النصوص يقال إن الذي قاله سقراط، فإذا صحّ أن سقراط هو أول من قاله - وهذا لا يستبعد - فإن أحمد بن حنبل إنما جاء به على سبيل

---

(١) محاضرات الأدباء ٨٥.

(٢) المحاسن ٥١٢.

الاستدلال، ولم يشر إلى منبعه، أو أن الراوي لم يهتم به، أو لم يسمعه جيداً:

قال سقراط الحكيم في معرض كلامه: «وقد خلق الحق - سبحانه - لك أذنين ولسانا لتسمع ضعف ما تقول، لا لتقول ضعف ما تسمع»[1].

وتنسب في كتاب آخر إلى بقراط، فيقول صاحب «محاضرات الأدباء»:

سمع بقراط رجلا يكثر الكلام، فقال له: «إن الله - تعالى - جعل للإنسان لسانا واحداً وأذنين ليسمع ضعف ما يقول»[2].

ويقول أبو الدرداء: «أنصف أذنيك من فيك فإنما جعل لك أذنان اثنتان، وفم واحد، تسمع أكثر مما تقول»[3].

وهناك رواية جاء المصدر غير محدد عنها، فخف النقد على صاحبه، وهذه الرواية جاء بها صاحب

---

(١) الكشكول ١/٢٢٨.

(٢) محاضرات الأدباء ٣٣.

(٣) عيون الأخبار ٢/١٩٣.

كتاب «تسهيل النظر» حيث يقول :

«حكي عن بعض الحكماء أن الله - تعالى - إنما جعل لك أذنين ولسانا واحداً ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به»[1] .

ويروى خبر عن عامل من عمال الخليفة أوجب على اليهود في المنطقة التي هو عليها دفع دية المسيح بعد أن أقروا أنهم قتلوه فيقال أحيانا أنه حاكم البحرين ، ويقال أحيانا أنه حاكم اليمن ، ولعل القصة مختلقة من أساسها لطرافتها ، وهان أمر تعليقها على أي حاكم ، ولم ير معلقها أهمية لدقة تعليقها على أي حاكم .

(ولي أعرابي اليمن ، فجمع اليهود ، فقال : ما تقولون في عيسى؟ قالوا قتلناه وصلبناه ، فقال : لا تخرجوا من السجن حتى تؤدوا ديته »[2] .

ويقال في بعض الروايات أن الله أنشأ سحابا ،

---

(١) تسهيل النظر ٦٠ .

(٢) الكشكول ٢ / ٣٤٩ ، ويروى صاحب البصائر والذخائر أنه عامل على البحرين جزء ٥ /١٩٣ .

فمرّ من فوق رأس الرشيد، فالتفت إليه الرشيد، وخاطبه قائلا للسحابة: «إمطري حيث شئت، فخراجك لي». رمزاً لسعة ملكه، وامتداد رقعته، ولكن بعض الروايات تنسبها لسعيد بن خالد، دليلا أيضاً على كثرة أملاكه، واتساع أراضيه:

كان سعيد بن خالد بن عبدالله المطرف بن عمرو بن عثمان بن عفان من أكثر الناس مالاً، وأعظمهم حالاً، وترك لورثته مالاً ضخماً، وكانت السماء تبرق فيقول: «إمطري حيث شئت، فلا تمطرين على بلد إلا ولي فيه مال»[1].

ونأتي عند نص ينسب في بعض الكتب إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وفي بعضٍ إلى عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - فابن عبد ربه في «العقد الفريد» ينسبه إلى أبي بكر فيقول:

«نظر أبو بكر الصديق إلى رجل يبيع ثوباً، فقال له: أتبيع الثوب؟ قال: لا عافاك الله! قال: لقد

(١) الذخائر والتحف ٢٠٧.

علمتم لو تعلمون، قل: لا، وعافاك الله!»[1].

أما مؤلف محاضرات الأدباء فينسب هذه الحادثة إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فيقول:

روي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال لرجل: «أتبيع الثوب؟ فقال: لا عافاك الله! فقال: لقد علمتم لو تعلمون، قل: لا، وعافاك الله»[2].

قصة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مع قاتل أخيه معروفة، والكلمات التي تبادلها عمر مع أبي مريم الحنفي تتردد في كتب التاريخ والأدب، وصاحب البيان والتبيين جاء بها مرتين على الأقل، مرة جاء بنصف الحديث فقال:

قال عمر لأبي مريم الحنفي، قاتل زيد بن الخطاب «لا يحبك قلبي (أبداً) حتى تحب الأرض الدم المسفوح»[3].

---

(١) تأديب الناشئين ١٦١.

(٢) محاضرات الأدباء ٣٠.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣٧٩.

واكتفى بهذا، ومرة جاء بصيغة أطول فقال:

قال عمر بن الخطاب - رحمه الله - لأبي مريم الحنفي: والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح، قال: فتمنعني لذلك حقا؟ قال: لا، قال: فلا ضير، إنما يأسف على الحب النساء[1].

ولولا أن الكتاب واحد، وأن المؤلف واحد لقام الظن في أن الأصل هو النص الناقص، أضيف إليه من قبل الحنفيين الاضافة التي جاءت في النص الثاني وكأنها جاءت بديهة وعن ذكاء، أو أن الأصل هو المطول، وأراد شخص احتسابا أن يبقى الكرة في حجر أبي مريم، تأدبا مع الخليفة.

ومن الطرافة أن رجلا من قيس بن عيلان استفاد من هذه الكلمة في مواجهة له مع عبدالملك، ويروي صاحب «البيان والتبيين» الحادثة كالآتي:

دخل رجل من قيس بن عيلان على عبدالملك بن مروان، فقال: زبيري عَميري، والله لا يحبك قلبي

---

(١) البيان والتبيين ٢/٨٩.

أبـداً ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب المرأة ، ولكن عدل وإنصاف[1] .

وتشبيـه الأديب الـذي لا يقـول الشعر بالمسن الـذي يشحـذ ولا يقطع ، نسب إلى شخصين في عصرين متباعدين من أمتين مختلفتين ، وحضارتين متباعدتين ، أولهما ديسيموس :

«كان ديسيموس من موسوسي اليونانيين ، قال له قائل : ما بال ديسيموس – يعلم الناس الشعر ، ولا يستطيع قوله؟ قال : مثله مثل المسن الذي يشحذ ولا يقطع»[2] .

ولكن صاحب كتـاب المصون يقول إن سؤالاً بهذا المعنى كان وجه إلى عبدالله بن المقفع فأجاب بهذه الإجابة :

«قيل لابن المقفع : لم لا تقول الشعر مع علمك به؟ فقال : أنا كالمسن أشحذ ولا أقطع»[3] .

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٧٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢٢٦ .

(٣) المصـــون ٦ .

وقد يكون ابن المقفع استفاد من الجملة التي رد بها ديسيموس، وليس غريبا على ابن المقفع ذلك، وهو من عرف باطلاعه على الآداب الأجنبية السائدة في زمنه، ويبدو أن ابن المقفع ليس الوحيد الذي استفاد من تلك الجملة الصادقة في تشبيهها، فالأصمعي أيضا روي عنه أنه جاء بها في معرض رده على من سأله لماذا لا يقول الشعر:

«قيل للأصمعي: لم لا تقول الشعر؟ قال: الذي أريده لا يواتيني، والذي يواتيني لا أريده. أنا كالمسن أشحذ ولا أقطع»[١].

ومن الحوادث التي رويت بعدة صور في عدة مراجع القصة الآتية عن عائشة - رضي الله عنها - وكنت أشعر دائماً أن القصة مفتعلة وأن الذي أغرى بافتعالها هو قرن «الجمل» بوقعة الجمل، و «البغلة» بوقعة البغلة. وقد وجدت أن الجاحظ قد فطن لهذا في كتابه «كتاب البغال»، ونبه عليه، لسبب غير السبب

---

(١) بهجة المجالس ١/ ٩٦.

الذي أرجحه[1].

يقول صاحب «المراح في المزاح»:

اقتتل غلمان عبدالله بن عباس وغلمان عائشة، فأُخبرت عائشة بذلك، فخرجت في هودج لها على بغلة لها، فلقيها ابن أبي عتيق، فقال لها: يا أمي جعلني الله فداك، أين تريدين؟ قالت: بلغني أن غلماني وغلمان ابن عباس اقتتلوا، فركبت لأصلح بينهم، فقال: يعتق ما يملك إن لم ترجعي. فقالت: ما حملك على هذا؟ قال: ما انقضى عنا يوم الجمل حتى تريدين أن تأتينا بيوم البغلة![2].

والرواية التي أوردها الجاحظ فيها بعض الاختلاف.

قالوا: وقع بين حيين من قريش منازعة، فخرجت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - على بغلة، فلقيها ابن أبي عتيق، فقال: إلى أين جعلت

---

(١) كتاب البغال ٢٦.

(٢) المراح في المزاح ٣٣٢.

فداك؟ قالت: أصلح بين هذين الحيين، قال: والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل، فكيف إذا قيل: يوم البغل! فضحكت وانصرفت[١].

وتبعد الرواية كثيراً فيما أورده صاحب «بهجة المجالس»، وتأخذ منحى آخر، ويبدو أن الشيء المختلق يكون مشاعاً يعمل فيه من يريد ما يريد! يقول ابن عبد البر:

«لما مات الحسن أرادوا أن يدفنوه في بيت رسول الله ﷺ فأبت ذلك عائشة، وركبت بغلة، وجمعت إليها الناس، فقال لها ابن عباس: كأنك أردت أن يقال: يوم البغلة كما قيل يوم الجمل! قالت: رحمك الله، ذاك يوم نسي، قال: لا يوم أذكر منه على الدهر»[٢].

والمعروف أن الذي وقف دون دفن الحسن بن علي - عليه رحمة الله، هو والي الخليفة في المدينة

(١) كتاب البغال ٢٦.
(٢) بهجة المجالس ١/١٠٠.

مروان ، ويقول الزمخشري أنه خرج الحسين ومواليه بالسلاح لدفن الحسن ، حسب وصيته للحسين ، مع رسول الله ﷺ - إن وُجِد إلى ذلك سبيل ، وإن منعوه فيدفنه في بقيع الغرقد ، وكان الذي وقف في سبيل ذلك بالسلاح مروان ومواليه لا عائشة - رضوان الله عليها[1] .

هذه بعض أمثلة لما سارت فيه قدم على قدم ، ووطئت جادة على جادة ، والتراث مليء بأمثال ذلك . ولعله يأتي يوم يتصدى من يستطيع ذلك ، فيلقى ضوءًا أكثر قوة على هذا الجانب .

---

(١) ربيع الأبرار ٤/ ٢٠٩ .

# الرد الحسن(*)

الأدب العربي فيه قصص دونت عن مواقف منيرة في حياة بعض الناس ، أو في مجتمعاتهم ، وأصبحت مصدر تربية وتوجيه في حثها على الفضائل ، وإعطائها صوراً مغرية للاقتداء بها وبأصحابها ، وهي تكشف جوانب حميدة للناس ومجتمعهم في ذلك الزمن .

وقد حرص الكتاب والأدباء على تدوينها لما جذبهم إليها من مبادئ إسلامية تدعو لتحسين الخلق ، ورفع مستوى الناس إلى ما يجعلهم سعداء في مجتمعهم . ولا يمكن الجزم بأنها كلها قد وقعت ، فقد يكون بعضها لم يقع ، ولكن واضعها أراد أن يسجل فكرة مرت بذهنه رأى أنها جديرة بأن تقع ، فصاغ قصة حاول أن يكون فيها من عناصر الإقناع ما يجعلها مقبولة . وهذا يضمن لها تأثيرها ،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٩٧١) في ١٤١٤/٦/٧هـ الموافق ١٩٩٣/١١/٢٠م .

وإصابتها للهدف الذي أراده .

والحكمة أو الموعظة أو الإرشاد الذي تحتوي عليه القصة قد لا يكون واضحاً، فقد تغلب عليه الطرافة، أو يغلب أمر جانبي ورد في القصة، فجعل الهدف منزويا، وهذا ما أراده القاص، ويعتبر نفسه قد نجح فيما أراده .

وهذه القصص المؤلفة لا تنقص قيمتها عن القصص الحقيقية التي وقعت ودون عنها ما دون، لأن تلك رغم افتعالها تصور الفكر في تلك الفترة، والفكر يعكس طموح المجتمع، ويُرى ما يمكن أن يحدث فيه كأنه حادث فعلاً، لأن القاص يراعي أركان الحادث، ويحرص ألا تكون القصة خارجة عن المألوف، أو بعيدة عن الواقع، إلا فيما يقبله ذلك المجتمع مثل قصص الجان، وما يؤلف عن العين وعن الأحلام، أو بعض القصص الخرافية التي يتقبلها المجتمع، لأنه مهيأ لها في زمنه أو في زمن سابق .

والمهم إن هذه القصة أدت الغرض الخلقي أو الـترفيهي، أو عبرت عن فكـر قبـلي، أو تعصب عائلي، أو نزاع سياسي، سواء كان ذلك في عصر العبـاسيين أو الأمويين، وقد يجمح الخيال أحياناً جمحـات تفضـح هدف المؤلف الملتـوي، وتـري تعصبه وتحيزه، وما أكثر ذلك، ولكن في ذلك فائدة كبرى للباحث في زمننا هذا عن حالة ذلك العصر، والتيـارات التي تجري فيـه، فهـذه القصص غير المتحرزة، تعطي ببيان ووضوح بعض ما قد لا يكون بالامكان معرفته إلا عن هذا الطريق.

أما الذي يهمنا في هذا المقام فهو اللمسات المؤدَّبَة التي تأتي بدءاً أو رداً على تساؤل، أو تأتي تعليقاً، أو تسبق فعلاً لم يعرف صاحبه حسن التصرف تجاهه فيسأل عنه.

وقد دوَّن كتّاب ذلك العصر وأدباؤه من القصص في هذا المجال شيئاً كثيراً، فخدموا بذلك الفكر في زمنهم، وسجلوا تحركـات مجتمعهم في المجـالات المختلفـة. ومـا تركوه، يعطينا فكرة متكاملة عن

زمنهم، وكيف كانت الأمـور تسير فيه، ولو أراد باحث أن يستقصى جانباً واحداً من جوانب حياتهم لوجـد حصيلة تغنيـه، وتشفيـه في بحثه. وسوف نقتصر على بعض قصص وأقوال تعطي نموذجاً من حسن الأدب أو ضده.

والـرد الحسن قد يتبين من ضده كما حدث في قصة ليزيد بن عبدالملك مع «كثِّير» الذي يبدو أنه لم يكن يعـرف آداب مجالسـة الخلفـاء والملوك، فتصرف تصرف سوقة في حضرة الخليفة، ولهذا جاء الرد عليه من الخليفة حاداً وعنيفاً، ونبهه إلى الخطأ الذي وقع فيه.

كان كثير يحضر سمر يزيد بن عبدالملك، فقال له ليلة: يا أمير المؤمنين، ما يعني الشماخ بقوله:

وقد عَرِقَتْ مغابنها وجادت

بـدرتها قِـرى حَجَـنٍ قتـين

فقال: «وما يضر أمير المؤمنين أن لا يعرف ما قاله أعـرابي بوّال على عقبه، هو القراد أشبه خلق الله

بك ! وكان كثير قصيراً قميئاً دميماً»[1] .

لعل كثيراً أقلقه الصمت في مجلس يزيد ، فأراد أن يكسره بتحريك ساكن الحديث ، أو لعل الحديث كان جارياً بعيداً عنه ، فأراد أن يقربه منه ، ولكنه لم يوفق ؛ لأنه عمد إلى اختبار أمير المؤمنين ، ولم يغب عن يزيد عاقبة هذا السلوك ، فقد يسأل كثير أو غيره ممن يشجعه ذلك سؤالاً لا يكون عند الخليفة جوابه ، فيقع المحذور ، ويظهر الخليفة بمظهر الجاهل . ولهذا جاء الرد مزمجراً ، لمس كثيراً وكل أعرابي ، ونزل صاعقة في المجلس تؤدب كل من تسول له نفسه أن يبني مجده على مجد الخليفة ، أو يختار منزلة أعلى من منزلته .

والأصمعي علم من أعلام أدباء العصر العباسي ، وسجل له الأدب مواقف لامعة ، ولكنه يشك في بعضها ، إذ قد تكون ركبت عليه لتدرج في دفاتر الوراقين ، وتقبل من القارئين ، وأغلبها فيه من

---

(١) آداب الملوك ٢٣٠ ، الأغاني : ٩/١٦٧ .

الطرافة والغرابة مايكاد يؤكد هذا الظن . وفي القصة التالية يخطئ الأصمعي في مخاطبة الخليفة، هارون الرشيد، ولكن أدب الرشيد منعه من التعليق، فما كان من أحد المسؤولين وهو وزير الرشيد، إلا أن تولى الرد القاسي المناسب :

قال الرشيد يوماً للأصمعي : «أخبرني عن فلان – لإنسان من العرب –» فقال له : «على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين»، فقال له الفضل بن الربيع : «أسقط الله أنفك وعينك ! أهكذا يخاطب الخلفاء؟»[1] .

اهتم قاص القصة بما جاء من الأصمعي، وما جاء عليه، وأهمل اسم الإنسان المسؤول عنه، وهذا يزيد من درجة الشك في نحلها على الأصمعي، ولعله ما جيء بها إلا لطرافتها . على أي حال فإنه إن صح أن الأصمعي سقط هذه السقطة فهي سقطة مؤلمة مخجلة . ولعل الحماس هو الذي قاده إلى هذا، والحماس يأتي بأكثر من هذا : يروى أن عاملاً

---

(١) آداب الملوك ٢٣١ .

فلاحاً كان يسني السواني التي تمتح الماء لتسقي الزرع، وكان مقرراً أن يتزوج في ذلك اليوم، فاستدعي على عجل ليملكه المُمَلِّك، فمن حماسه قال عندما سأله الشيخ إن كان موافقاً على الزواج: «أُفْ». فقال الشيخ لم أعلم أني أزوج ثوراً، ولما أعاد عليه السؤال قال: «إذا لماذا استدعيت أمي لتسني عني؟» وكانت الثانية أسوأ من الأولى. ورحم الله الأصمعي، فلم تكن درجة سقوطه بهذا المستوى!

والخليفة المأمون له تاريخ حافل بمجالس الأدب والفكر والدين، ودُوِّن عن مجلسه وما كان يدور فيه قصص كثيرة تكشف عن جوانب من حياة المجتمع الذهنية والاجتماعية وغير ذلك. وفي إحدى المرات سجلت قصة أبانت عدم توفيق أحد الأدباء في التصرف في مجلس الخليفة المأمون، ونَبَّه الأديبَ أحدُ أصدقائه فيما بعد على الخطأ، أما المأمون فلم يبد ملاحظة. والمأمون عرف بصبره وحلمه، حتى قيل إنه يتعلم الحلم في مثل هذا الأديب الأخرق:

«أوصل أحمد بن أبي خالد بعض الأدباء إلى مجلس المأمون، فطاوله الحديث. فلما خرج قال لأحمد: فهل أنكرت مني شيئاً؟ قال: نعم، ضحك أمير المؤمنين، وضحكت أكثر من ضحكهِ، والضحك بين أيدي الملوك سوء أدب، لا سيما إذا كان أكثر من ضحكهم»[1].

ويبدو أن الأديب أحس في داخل نفسه أنه تعدى حدود اللياقة والأدب، وتمنى أن يأتي جواب رفيقه مطمئناً، إلا أن أمله خاب، ويبدو أن سؤاله جاء ليطمئن أن له عودة إلى مجلس الخليفة. وقد يكون له عودة إلى هذا المجلس إذا كان المأمون ينوي أن يستعين به على تعود الصبر!

هذه هي المواقف النابية التي تبين نقص الأدب، والانحراف عن حدود اللياقة، وحسن الأدب، والأدب يتبين كما رأينا بضده، ولكن هناك مواقف تبين الأدب، وتجسد حسنه، وهي عن أناس

(١) آداب الملوك ٢٣١.

الذهب من معدنه فيهم لا يستغرب . هذا الامام مالك ابن أنس يتحرى ألا يتخطى حدود الأدب مع هارون الـرشيد ، ويحرص على ذلك ، ويعمد إلى الـوسيلة النـاجحـة التي تضمن له أن يقف أمـام الخليفـة المـوقف الـذي يتنـاسب مع مقـامه ، فلا يتعرض لانتقاد ، لأن الأمر أمر عادات وتقاليد ، ولو كان الأمر أمر دين لكان هو الناصح المرشد :

لما أراد مالك بن أنس الدخول على الرشيد أول دخلة ، قال للفضـل بن الـربيـع : «علمني كيف أدخل إلى أمير المؤمنين ، وكيف اسلّم عليه ، وأين أقف من مجلسه ؟ »[1] .

إن مالك - رضي الله عنه - جمع في هذا الموقف عدة فضائل :

أولاها : تحري حسن الأدب ، فهو يتحرى ما لا يخرجه عن سمت العلماء وحسن تصرفهم ، ويفكر في الموقف سابقاً لوقوفه ، فلا يفرط ، ويترك الأمر

(١) اداب الملوك ٢٣١ .

للصدف، وإنما يأتي الأمر من الطريق التي اعتادها، وهي تقليب الأمر على جميع جوانبه، وأخذه من أفضل طرقه.

ثانيها: أنه لم يتصنع العظمة، ويتقي بظل العلم، وما له من احترام، يسمح بالتغاضي عن حامله ألا يخضع لعادات دنيوية، وإنما اعترف بهذه العادات، واحترم اختيار أهلها لها، ورغب أن يتحلى بها في ظلال ما يودون هم. ورأى بثاقب فكره أن هذا يدخله قلوبهم، ويحببه إليهم؛ ولا ينفرهم منه، وهذا أدعى لقبول ما يبديه، وما ينصح به.

ثالثها: أنه لم يسأل إنساناً منزوياً، يخفي عن طريقه ما قد يظنه بعض الناس ضعفاً، ولكنه، وهو مليء بالثقة، ذهب رأساً وعلناً إلى وزير الرشيد، وهو خير من يعرف مجلس الرشيد ورغبته، ومكان مالك من هذا المجلس.

رابعها: أنه أحاط بعناصر الأمر، وهي ثلاثة،

فلم يترك مجالاً واحداً للاجتهاد، إلا مجالاً واحداً، وهو ماذا يقول، وفي أي موضوع يبحث، لأنه يعرف هذا جيداً، ولا يحتاج فيه إلى استشارة، خاصة وأنه لا أحد يعلم ما هو الحديث الذي سوف تتركز فيه الجلسة. أما الدخول والسلام، ومكان الجلوس أو الوقوف فهو ما يجهله مالك، ويعرفه جيداً الفضل.

خامسها: أن مالك خلي، مثل أمثاله من الرجال العظام - من العقد النفسية، وأظهر بها لا يدع مجالاً للشك أنه مهتم لهذه المقابلة، ويشعر أنه لا بد من التحضير لها. هذا عن أدب الدخول وما يتبعه، أما ما يسبقه من أدب اللباس والتصرف فيمكن أن نتصوره في ضوء ما دون هنا عن مالك، وفي أماكن أخرى.

وإنها لنعمة من الله على المرء أن يكون تصرفه طبيعياً، ويمثل خارجه فيه داخله، فلا يتكلف ليغطي نقصاً هو يعرفه، أو يتخيل أنه معيب له،

فيأتي بتصرفات نابية يغطي بها هذا العيب، فيصبح هذا التصنع هو العيب نفسه. وأحسب أن غير مالك كان يرضي كبرياءه أن يدخل على الرشيد دالا بعلمه، فيكسر الترتيب المعد لهذا المجلس، ويجد لذة منحرفة في أنه غلب الخليفة، وهو لا يدري أنه أساء إلى نفسه، وأظهر من الاعوجاج ما كان خفياً، وجاءه الخطأ من حيث أراد الكسب مما ليس له حق فيه.

وما بدر من مالك من خلق فاضل، وأدب حسن، سلكه شخص آخر أيضاً في ذلك الزمن، مع اختلاف في مرتبة كل من الطرفين في القصة الآتية عن قصة الرشيد ومالك:

قال جليس لعبدالله بن زياد: «أيها الأمير أعلمني ما يوافقك حتى أمتثله، ولا أجوز إلى غيره، فلعلي أثقل عليك من حيث لا أدري».

قال: «طلبت الأمر من وجهه: لا تكثرنّ إتياني فأملّك، ولا تقعدن عني كل القعود فأنساك، ولا

تكثرن طلب الحوائج فيُبخل عليك بحاجتك»[1] .

إنها لفتة ذكية من هذا الجليس الذي أراد أن يعرف الوضع السليم الذي يديم الرفقة ، ويبقى الود ، ويبعد عن النفور والجفوة . ولعل عبدالله بن زياد قدر ذلك له ، ورأى اعتناءه بالأمر ، وهو أمر يدعو إلى الحرص على جعل العلاقة صافية ، خالية من الشوائب التي قد تأتي مع الاجتهاد . وقد لخص عبدالله بن زياد الأمر تلخيصاً وافياً ، فأراح قبيله ، وأراح نفسه ، وقد جاء على كل ما يمكن أن تدخل الأخطاء عن طريقه ، فأبانه وأوضحه ، وهي أمور إنسانية تكاد تنطبق على العلاقة بين كل اثنين ، مهما تغير المجال ، أو اختلفت الرتب .

وإذا كانت النصيحة التي أدلى بها عبدالله بن زياد جاءت بعد استنصاح ، فقد تأتي أحيانا مع أناس آخرين مباشرة ودون طلب لها ، والقصة الآتية تبين ذلك :

قال عبدالله بن صالح الهاشمي لجليس له : كن

(١) آداب الملوك ٢٣٤ .

على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام، ولا تساعدني على ما يقبح بي، ولا ترد عليّ الخطأ في مجلسي، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية، ودع عنك: «كيف أصبح الأمير وأمسى»[1].

وقد تبرع عبدالله برسم السياسة التي يريد من جليسه أن يسير عليها، ووضع المواد التي تعورف في زمنه على أنها من أصول اللياقة والأدب. والغريب في الأمر أنهم يؤكدون على بعض الأمور التي لا تتماشى مع الدين، مثل التشميت، ولعل لتسرّب تقاليد الأعاجم دخل في هذا. والتشميت أمر إسلامي يُثاب العاطس إذا حمد الله، ويُثاب المشمت إذا قال: يرحمك الله، ويُثاب العاطس إذا قال: يهدينا ويهديكم الله. وإذا سلمنا بما يخص عدم سؤال الأمير: كيف أصبح وكيف أمسى، فإننا لا نسلم بأمر العطسة وتشميت صاحبها إذا حمد الله، وكذلك الأمر في التهنئة والتعزية لا نسلم بهما.

---

(١) آداب الملوك ٢٣٤.

ونميل إلى أن هذه عادة جديدة، دخلت على مجتمع العصر العباسي في وقت متأخر، لأنه ورد عن العصر الأموي ما يوحي بأن الخليفة يتطلع إلى أن يشمت، وقد عفى عن أحد الخوارج بسبب عطسة، فقد جيء بأحد الخوارج إلى الخليفة، وشمته الحاضرون رغم أنه لم يحمد الله، ولم يشمته الخارجي، فحاسبه على هذا، فاحتج الخارجي بأن الخليفة لم يحمد الله، وتشميت من حوله له في هذا خطأ، فعفى عنه الخليفة لفقهه في الدين. وروي أيضاً أن المنصور عطس، وشمته من حوله ما عدا القاضي الذي لم يحاب، وكان بعض الناس يتهمه بالمحاباه، فاستدل المنصور على براءة القاضي مما اتهم به؛ لأنه لو كان يحابي لحابى الخليفة في هذا المقام.

# الجاحظ والملاحظة والتعبير(*)

برع الأدباء العرب في العصور الإسلامية الأولى في ملاحظة ما حولهم، وفي القدرة على دقة التعبير عما يريدون التعبير عنه، وَوَصْف مايرون، وما يسمعون. ودخلت بعض كتاباتهم إلى عمق الأمور النفسية، فوصفوا ما فكروا فيه نتيجة ما لاحظوه، فجاء وصفهم من نوع أسلوب السهل الممتنع. وقد تكون الفكرة المراد اقتناصها طفيفة، وسهلة قريبة، وقد تحدث في مظهرها وتتكرر، عدة مرات، ولكن الذي يقيد أوابدها كاتب واحد، يجعل الآخرين يتمنون أنهم الذين اصطادوها، ويتعجبون كيف لم يفعلوا وهي من السهولة بمكان، وتبين لهم بعد اصطيادها قربها منهم، وسهولة الإمساك بها وقيدها.

وإذا ما أوغل أحدنا في قراءة كتبهم، خاصة

---

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٩٧٨) في ١٤/٦/١٤١٤هـ الموافق ٢٧/١١/١٩٩٣م.

عنـدمـا يُلزم أحدهم نفسه بموضوع معين محدد، يركز تفكيره فيه، ويحصر بحثه في مجاله، ويبدي فيه ويعيـد، فإننـا نجـد أن هذا وأمثاله جاؤا بكل ما يمكن أن يخطر على البال، من المبدع والمدهش؛ لأنهم وقفوا أنفسهم على تحصيل كل المعلومات في ذلك الأمر. ولا يهمهم طول الزمن، ولا ما يأخذه منهم التحضـير، فهمهم أن لا يتركـوا شاردة ولا واردة إلا أحاطوا بها وسجلوها. ولا يكفيهم هذا لأن كثرة المعلومات قد تكون مدعاة للملل، وقد يُنظر إليها على أنها جمع وتحصيل لمجهود آخرين، وما بذل فيه من مجهود لا يستحق أن يحمد؛ ولهذا يحرصون على الإبداع ما أمكنهم ذلك، ويجتهدون في أن يأتـوا بجـديـد طريف ما وجـدوا إلى ذلك سبيلا. ولا يتأتّى لهم ذلك إلا إذا أعملوا الفكر، وتعمقوا في دراسة ما بين أيديهم، وما قد يهديهم إليه تقصيهم، وما يقودهم إليه تدبرهم، وما تنتهي إليه تجربتهم، وما قد يقومون به من مقارنة.

والجاحظ من بين أبرز الكتاب الذين يمكن أن

ينطبق عليهم هذا الوصف ، فقد تصدى لأمور بعينها ، وركز على بحوث أجراها بنفسه أو تقصاها عن الحيوان مثلاً ، وأجاد ، وأتى بما جعل كتابه في الحيوان من أهم الكتب وأوفاها ، وكذلك هو في كتابه : «المحاسن والاضداد» فلقد كانت فكرته في هذا الكتاب طريفة ومبتكرة ، فاحتوى على ما تلذ قراءته ، وصار كأنه معجم للأفكار . وكتابه «البرصان والعرجان والعميان والحولان» ، كتاب فريد في نوعه حصر فيه ما استطاع أن يحصره عن هؤلاء . وتبدو روح الجاحظ فيه واضحة . وأحد كتبه المشهورة كتابه «البخلاء» ، وهذا كتاب حصر طريف ، وقراءته تكشف النواحي النفسية للبخيل من زوايا مختلفة تقصاها الجاحظ بدقة ، وتتبعها بامعان وأحاط بها من كل زاوية رأى أهميتها .

وتتبين دقة ملاحظة الجاحظ ، وعنايته بالجوانب النفسية ، وحسن اختياره للقصص التي تمثلها خير تمثيل ، في القصتين الآتيتين ، وفيهما دقة وصف مع دقة ملاحظة ، وفي إحداهما ما يمكن أن يدخل في

إطار السهل الممتنع ؛ لأنه يحدث لكلٍ من سار على قدمين في شارع مزدحم، ولكن فرداً واحداً، هو الجاحظ، استطاع أن يعبر عنه خير تعبير :

قال الجاحظ : قال سليمان بن غزوان : «بكرت اليوم إلى أبي عمران فلزمت الجادة، فاستقبلني واحد، فلزم الجادة التي أنا عليها، فلما غشيني انحرفت عنه يمنة، فانحرف معي، فعدت إلى سمتي، فعاد، فعدت فعاد، ثم عدت فعاد، فلولا أن صاحب برذون فرّق بيننا لكان إلى الساعة يكدّني.

فدخلت على أبي عمران، فدعا بغدائه، فأهويت بلقمتي إلى الصِّباغ (الادام)، فأهوى إليه بعضهم، فنحيت يدي فنحى يده، ثم عدت فعاد، ثم نحيت يدي فنحى، فقلت لأبي عمران : ألا ترى ما نحن فيه؟ قال : سأحدثك بأعجب من هذا : أنا منذ أكثر من سنة أشفق أن يراني ابن أبي عودة الخياط، فلم يتفق أن رآني مرة واحدة، فلما أن كان أمس ذكرت لأبي الحارث الصنع في السلامة من

رؤيته ، فاستقبلني أمس أربع مرات »[1] .

ألم يعبر الجاحظ في هذه القصص عما يحدث لكل واحد منا مراراً وتكراراً؟ فنحن نفتقد شخصاً فترة طويلة لا نراه فيها ، ويأتي يوم نراه دون سابق وعد عدة مرات . وألم يحدث لكثير منا أن تقابل مع شخص آخر في الطريق فكاد أن يصطدم به ، وكل من الاثنين حاول أن يتفادى الآخر ، ولكن المحاولة نفسها كادت تؤدي إلى الاصطدام . وعندما يحيط جمع من المدعوين بإناء فيه طعام نرى الأيدي تتصادم وهي تمتد إلى اللحمة في وسط الإناء !

والقصة الآتية فيها لون من التحقيق والتدبر ، ومتابعة الحوادث في تشابهها ، وفيها يحدث للناس مما لا يتدبره إلا قليلون ، وأقل منهم من يصفه ويدونه . والجاحظ عرف بهذه الطريقة من الكتابة ، وهذا الأسلوب في الاختيار ، واقتناص هذا النوع من الأفكار البديعة الدقيقة :

(١) الحيوان ٣/ ٤٦٩ .

«قال جعفر بن سعيد : الخلاف موكل بكل شيء يكون ، حتى القذاة في الماء في رأس الكوز ، فإن أردت أن تشرب الماء جاءت إلى فيك ، وإن أردت أن تصب من رأس الكوز لِتَخْرُجَ رجعت»[1] .

وهكذا يغوص الجاحظ ببراعة وإتقان على مسائل صغيرة دقيقة، منزوية من أركان أفعال الناس ، يرونها مراراً ، ويفعلونها تكراراً ، ولا تلفت نظرهم بالطريقة التي لفتت نظر الجاحظ إليها . ولعل تكرارها هو الذي جعلها تبقى على هامش النظر عند الناس ، لا في بؤرة الملاحظة والتفكر . ولا شك أنه ما من إنسان يمر اليوم بهذه التجربة ، بعد أن أبدى الجاحظ ملاحظته فيها ، إلا ويقف أمامها متدبراً ، وملاحظاً ، وربما مبتسماً ؛ لأن الجاحظ قد وصفها فأحسن الوصف ، وأبرزها فأتقن ذلك .

والإنسان لو أمعن النظر ، وطرح البال ، وفتح العينين ، وأعمل الفكر ، لوجد أنه يمر بكثير من

---

(١) الحيوان ٣/ ٤٦٩ .

الأمور التي توجب الوقفة والالتفات والتعليق، ولأبصر فيها يرى ناحية نفسية تستحق أن تروى وتدون؛ فمثلا يركب أحدنا المصعد، وفي نيته أنه يتجه به إلى أعلى، فيفاجأ أنه نزل به إلى أسفل، وفي هذه المفاجأة شعور غريب، لو كان حدث للجاحظ لاستلّ منه ملاحظة تستحق الوقفة والتدوين.

والجاحظ في ملاحظاته دقيق، وهو كاتب مجيد، ذو أسلوب متميز، وفكر ثاقب، ولهذا فلا عجب أن تكون له ملاحظة ثاقبة على الكتابة، وهي مهنته الرئيسة، ولهذا فهو عندما يبدي ملاحظة في هذا الشأن يأتي بها جامعة واعية، وينطلق بها من منطلق نفسي، وهو العارف بهذا الجانب في الإنسان. وفي النص الآتي نجد أنه يتعمق في نفس الكاتب، ونفس القارئ، ويعرف ما يدور داخلها، فيأتي قوله سديداً، ورأيه صائباً مقبولاً، وتصبح فكرته التي طرحها نصيحة مسداه، وقاعدة ثابتة، ومبدأ

يعتبر به. يقول الجاحظ عن الكتابة يكتبها الكاتب:

«ينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلَّهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإنّ لابتداء الكتاب فتنة وعجباً، فإذا سكنت الطبيعة، وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه، فيتوقف عند فصوله توقف من يكون وَزْن طَمَعِهِ في السلامة أنقصَ من وزن طمعه في العيب»[1].

لا يكتب هذا القول الصادق، ويبدي هذا الرأي الصائب، ويحلل هذا التحليل السليم، ويدرس هذه الدراسة العميقة، إلا كاتب عانى الكتابة، وكابد وسائلها، وجرب وضع أفكاره أمام الناس، وعرض بذلك عقله عليهم. فالجاحظ هنا يؤكد على توخي الحذر والتوقي، وينبه إلى أن

(١) الحيوان ١/٨٨.

القــارئ عدو للكـــاتب متربص، وخصم مدرك فاهم، عالم بما يريد، ومتفرغ للكاتب يتناوله وما كتــب، لا يشــغله عن ذلـــك شيء، وأن أدوات الحــرب والهجــوم، وأسباب النصر، كلها متوافرة لديه. ويطلب الجاحظ من الكاتب ألا يعطي عدوه هذا فرصة للهجوم الناجح، فيقضى على ما اعتبره الكـاتب مصدر فخره، ومقر اعتزازه، ويرى أن السلاح المضاد هو أن لا يدع الكاتب كتابه غفلا، وأن لا يرضى بالرأي الفطير الذي لم يردده في ذهنه، ويقلبـه على وجوهه، وأن يتأكد من سلامة الرأي قبـل أن يبـديه؛ لأن الزلل يأتي من بريق الفكرة الأولى التي تخطر في الــذهن، فيســارع المرء إلى اقتناصها وتدوينها، فرحاً بها، وقد يكون غيرها، عنـد التـدبر، خيراً منها وأصوب؛ فإذا سارع ولم يتـأن، فإنـه يصبح أسير فكر لم ينضج، ورأي لم يمحص، ولهذا فعلى الكاتب إذا كتب شيئاً فقبل عرضه على الناس عليه أن ينتظر فترة، ثم يعود إليه قارئـاً، ناسياً أنـه كاتبـه، ويحكم عليه من زاوية

جديدة ، فينقده نقد غريب عنه ، بعد أن تكون شعلة الحماس العاطفي فيه قد خفتت ، وزاحمها صوت العقل والتدبر والتبصر ، ونشدان السلامة من هجوم الآخرين .

فالجاحظ هنا تغلغل في طبيعة النص الكتابي ، وأبرز ما يكمن خلفه من أمور نفسية يمكن أن ترفعه أو تضعه ، وحث على هذه ، وحذر من تلك . وهو ينطلق من تجربة طويلة ، ودراسة لأنفس الناس عميقة .

وليست هذه هي المرة الأولى التي يتحدث إلينا الجاحظ فيها عما يشغل باله في هذا المجال ، فلقد تحدث في عدة استطرادات عن ذلك ، كان أحدها في مقدمة «كتاب الحيوان» ، حيث يقول :

« . . . لأن كل من التقط كتاباً جامعاً ، وباباً من أمهات العلم مجموعاً ، كان له غُنْمُه ، وعلى مؤلفه غرمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كده ، مع تعرضه لمطاعن البغاة ، ولاعتراض المتنافسين ، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة ، ومعانيه

على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة»[1].

ويلتفت الجاحظ، في نص آخر، بدقة متناهية إلى ناحية نفسية معينة، تتمثل في طرق الاقناع الذي يقوم به عادة قادر على عاجز، وذكي على من هو أقل منه ذكاء، وما يذكره الجاحظ هنا ينطبق على حالات كثيرة في زمنه وزمننا وفي كل زمن من الأزمان:

«وإن الشطار ليخلو أحدهم بالغلام الغرير، فيقول له: لا يكون الغلام فتىً أبداً حتى يصادق فتًى، وإلا فهو تكش، [والتكش عندهم الذي لم يؤدبه فتًى، ولم يخرجه]. فما الماء العذب البارد بأسرع في طباع العطشان من كلمته، إذا كان للغلام أدنى هوى في الفتوة، وأدنى داعية إلى المنالة (الشطارة)»[2].

أليست هذه هي اللغة التي يستعملها اليوم الشباب مع الشباب، والمراهقون مع المراهقين. إذا

---

(١) الحيوان ١/١٠.
(٢) الحيوان ١/١٦٩.

أرادوا أن يقنعوهم بأمر فيه ما يجعلهم يترددون في قبوله؟ أليس كثيرون ممن وقعوا في عادة التدخين وقعوا فيها عن طريق أقوال مثل هذه؟ يحاول الشاب المدخن، خاصة إذا كان معه آخرون يدخنون مثله، أن يقنع شاباً آخر يقاوم الوقوع في هذه العادة: «إنك ابن أمك ولست ابن أبيك، إن مكانك بين النساء لا مع الرجال، إنك لا تستطيع أن تأخذ نَفَسَاً دون أن تكح وتسعل، لأنه ليس عندك القوة التي عندنا، ولو جربته لرأيت عجباً، إن التدخين يوحي إليك بالأفكار في الدراسة، ويساعدك على السهر في الامتحان، وطول الاستذكار، ويدفئك وقت البرد. ولكنك لست أهلاً لهذا الأمر، فلا تزال في سن الرضاعة، وما الفرق بينك حينئذ والآن؟» وهكذا يأتي الكذب والتضليل.

وتأتي كلمة من شاب تتبعها كلمة من آخر، ثم تتساقط الكلمات والغمز واللمز والضحك والتضاحك حتى يسقط المسكين فيما سقطوا فيه،

ويصبح ضحية يصبح لها فيما بعد ضحايا، وهكذا يتسلسل الأمر، وفي النهاية يعود الأمر إلى إتقان الولوج إلى النفس، وفك مغلقها بالعبارات المنتقاة، والأفكار المتقنة المجربة.

ودقة الملاحظة عند الجاحظ تجعله يهتم بأمور لا يهتم بها غيره، وقد تبدو لغيره تافهة، ولكنه يلمح فيها ناحية نفسية تسيطر على بعض الناس، فيجد أنها تستحق التدوين، ونحن معه في هذا، ومعه في اهتمامه بالنواحي النفسية، ونجده سابقاً لزمانه في ملاحظتها وتلمّسها، وإعطائها الأهمية، وقد اهتم بهذه القصة الآتية لما لمح فيها من جوانب تستحق الابراز، فأبرزها بإسلوبه المميز:

حدثني الحسن بن إبراهيم العلوي قال: مررت بخالي، وإذا هو وحده يضحك، فأنكرت ضحكه، لأني رأيته وحده، وأنكرته؛ لأنه كان رجلاً زمّيتاً ركيناً، قليل الضحك، فسألته عن ذلك فقال: «أتاني فلان، يعني شيخاً مدينياً، وهو مذعور، قلت له: ما وراءك؟ فقال: أنا والله هارب من بَيتي!

قلت : ولِمَ؟ قال : في بيتي ذباب أزرق ، كلما دخلت ثار في وجهي ، وطار حولي ، وطنّ عند أذني ، فإذا وجد مني غفلة لم يخطئ موق عيني . هذا والله دأبه ودأبي دهراً معه . قلت له : إن شبه الذباب بالذباب كشبه الغراب بالغراب ، فلعل الذي آذاك اليوم أن يكون غير الذي آذاك أمس ، ولعل الذي آذاك أمس غير الذي آذاك أول أمس . فقال : أعتق ما أملك إن لم أكن أعرفه [ بعينه ] منذ خمس عشرة سنة . فهذا الذي أضحكني»[1] .

إن الجاحظ هنا يصف حادثة طالما حدثت للناس في الماضي قبل إتقان مكافحة الذباب ، فالذباب دنيء يهشه المرء ويعود ، ويطرده فيعاند ، ويُضرب به المثل في الدناءة ، فيقولون : «فلان دنيء النفس كالذباب» . وحق للمديني أن يظن أنه ذباب واحد ذلك الذي آذاه ، لا للشبه ولكن لتماثل الفعل ، فيكاد كل واحد منها إذا همّ بأذى لأحد أن يشبه

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣/٣٩٩ .

الآخر مما يوحي بأنه واحد لا يتغير . وموق العين هو الهـدف المفضل للذباب ، ولهذا كثر انتقال مرض العين من شخص إلى شخص . وطالما أدى هذا إلى العمى .

وتأكيد المديني بأن الذباب هو الذباب بعينه لأنه يعـرفه يذكرني بقصة طريفة حدثت في زمننا ، أو زمن آبائنا القريب ، وفيها تأكيد مثل هذا التأكيد :

جاء رجـل في آخـر يوم من شعبـان إلى قاضي إحدى المدن ، وشهد عنده بأنه رأى هلال رمضان في تلك الليلة ، فأراد القاضي ، كالعادة ، أن يتأكد فعلاً بأنه رآه ، فسأله عدة أسئلة ، وعندما وجد أن الـرجـل ليس بالثقـة جديراً لعدم ارتفاع مستوى إدراكه ، سأله سؤالاً أخيراً ، وقال له : «أخشى أن الـذي رأيتـه ذنيب إبليس» ، ملمزاً إلى أن إبليس يلبس على النـاس بالـوهم ، فقال الرجل : «لا يا شيخ ، أنا أعرف جيداً ذنيب إبليس» . وبهذا أجهز الرجل على شهادته بنفسه .

# بهـاء اللغـة(*)

اللغة العربية بحر زاخر، يعج بالدرر، ويصطخب باللآلئ، وكلما أبعدت في الغوص إلى أعماقه، وجدت شعابا من المرجان الثمين، والكنوز المخبأة، وما عليك إلا أن تقف متأنياً، وتفحص بمجهرك ما تحت القشرة مما سوف يأتي بإشعاع نافذ ذي ألوان بهجة. ولا غرو أن تكون اللغة العربية كذلك، فهي وعاء الدين الحنيف، حُفِظ جمالها بحفظه، وبقي بريقها ببقائه، واحتلت منزلتها القلوب من منزلته في النفوس، ومكانه في القلوب، واختلاطه بدم المؤمن قبولاً ومتعة وطاعة، وأخذاً بما فيه، وعيشاً في حدود ما أمر به، وما نهى عنه.

واللغة حاملة الأفكار، والجسر الذي تعبر عليه من متكلم إلى مخاطب، فلا بد لذلك أن تكون وافية دقيقة، حتى تنقل الصورة بأمانة وجاذبية. واللغة

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٩٨٥) في ١٤١٤/٦/٢١هـ الموافق ١٩٩٣/١٢/٤م.

العربية أهل لذلك، وإذا لم نتحدث عن نقلها للدين في القرآن الكريم فلأن هذا عند المسلم أمر مسلم به، وقضية مفروغ منها، والحجة فيها لا يختصم فيها اثنان، ولا ينتطح عنزان، والحديث سوف يكون عن بعض التعابير العربية وما جاء نصاً أو حديثاً عن ذلك النص، وهذا يكشف بهاء اللغة العربية وجمالها.

بعض النصوص جمالها في تجردها من أي ثوب إلا من ثوبها، فجمالها في الحقيقة الناصعة التي تؤديها كلماتها، بما تحمله هذه الكلمات من معان مباشرة، والقبول التام لها يأتي من هذا الجانب الطبيعي لانطباق الكلمة على المعنى دون استعانة بوسيلة تساعد على فهم النص، أو تعضد سيره من فم المتكلم إلى أذن السامع وفكره.

وبعض التعابير يأتي جمالها من الثوب الذي يستعار لها، ليساعد على ظهور معناها ظهوراً لا يؤديه الثوب الطبيعي المجرد، وإذا كان الثوب

المجرد واحداً لا يخرج عن الكلمة ومعناها المحدد الدقيق فإن ثياب الاستعارة كثيرة، والمستعير يختار منها ما يشاء مما يتفق مع ذوقه، ويتماشى مع ثقافته، وقد يكون منبع اختياره له جاء من بيئته أو مهنته، أو من مؤثر ما من المؤثرات التي مرت عليه في حياته.

لهذا فالتعابير المستعارة، بما يصاحبها من جمال معضد للفكرة الأصيلة، باب في اللغة والفكر منفرد، ولا حدود له، ويلعب دوراً متمكناً من التأثير على السامع، فيكون التأثير نتيجة اختيار الثوب، وقربه في الشبه من الثوب الأصلي، وأحياناً لجماله الخارق الملفت للنظر.

فعندما يقول وكيع: «الجوع يمص الداء»[(١)].

فإنه يكشف الجمال في الكلمة ومعناها، فَقِصَر الجملة، وثوب الاستعارة الذي لبسته أعطاها البهاء الذي هي عليه. وصدق الجملة في حد ذاته جمال

(١) وكيع ٣/١٦٥.

ورونق. والصورة أظهرت الجوع في صِفَة مخلوق حي سلط على الداء يمتصه، ويعفي المريض من المعاناة، وهذا مأتى لمعان الجملة في لغتنا المدهشة، فالفكرة الناصعة الواضحة الصادقة استحقت هذا الثوب البهي.

والصدق التام، والحقيقة الواضحة، والقول المقبول بتسليم، يتبين في الحديث الشريف الذي يقول رواية عن أبي الدرداء:

«حبك الشيء يعمي ويصم»[1].

هذه كلمات أربع، جمعت مبدأ ينطبق على أفعال لا حصر لها من أفعال الإنسان، لا يمكن أن تخرج عن هذه القاعدة الجامعة المانعة.

ويتجادل الناس، ويبعدون عن الحقيقة، ويقتربون منها، ويأخذون قولاً ويردون قولاً، في تعريف البلاغة، وما هي، وهذا أمر شُغل به الناس عندما التفتوا إلى تدوين فنون اللغة، وأصبح

---

(١) وكيع ٣/٢٠٢.

عندهم لهذا وعي، وبهم عليه حرص، ويأتي من يقول كلمة تقبل من كثير من المهتمين باللغة، لأن فيها بهاءً يليق باللغة العربية، والمقدرة التي تأتي من خادمها المتضلع فيها، فيُسأل عبيدالله وزير المهدي عن البلاغة، فيقول عن فهم وعلم وممارسة:

«البلاغة ما فهمته العامة، ورضيته الخاصة»[1].

ويبدو لكثير ممن سمعوا هذا التعريف أن جهيزة قطعت قول كل خطيب، والجملة ساطعة النور بالحقيقة، ومضيئة بالمعنى الحسن، وفيها ما يُرتضَى دائماً وهو الاختصار، وفيها إحاطة وافية، فقد فكرت في العامة ولم تنس الخاصة، ولاحظت دور اللغة الرئيسي، وهو أن اللغة جسر للمعنى من ذهن إلى ذهن، ومن عقل إلى عقل.

ويصدق الثعالبي حين يضمن كتابه «أحسن ما سمعت» بيتاً يشع جمالاً، ويعطي صورة مقبولة،

---

(١) تحفة الوزراء ١٤١.

لأنها تعطي تعليلاً مبتكراً لظاهرة من الظواهر في المجتمع ، وهي كثرة الآثام عند بعض الناس أحياناً ، والتعليل أدبي جذاب ، ويقبل في الأدب ما لا يقبل في غيره ، لأن للأدب اعتباراً يأتي من طبيعته التي يحليها الخيال ، وتكسبها الاستعارة وأبواب البيان رونقاً وجمالاً :

قال الشاعر في الذنب والعفو :

تبسطنا على الآثام لما
رأينا العفو من ثمر الذنوب[1]

والشاعر رسم صورة جميلة للعفو ، فوضعه في المقدمة ، ليكرمه ويمتدحه هو وصاحب العفو ، وفي خلف الصورة شجرة الذنوب التي تطرح هذه الثمرة الممتدحة ، ونسي قبح الذنب هنا بمقدرة الشاعر وسيطرته على التعبير ، عند جمال العفو .

وتأتي جملة مضيئة ، تنطق بالحق ، وتنضح صدقاً ، وتقنع السامع ، وتغري بالتطبيق والتبني ،

(١) أحسن ما سمعت ١٢٢

لما لوقعها على النفس من أثر قوي، فلكلماتها المختصرة، ولأهميتها للإنسان، ومساسها بحياته اليومية، وتجاوبها مع ما يدور في ذهنه، ولأنها الحل لما قد لا يكون توصل إليه، جاءت مقبولة مؤثرة، وهي ليحيى بن معاذ، يقول فيها:

«الفقر خوف الفقر، والزهد إخفاء الزهد»[1].

لهذا جاء بها الثعالبي في كتابه «الاعجاز والايجاز»، ووفق الثعالبي في اختيارها لتكون مادة لهذا الكتاب، ووراء هذه الجملة ذات الشقين معانٍ لو ترك العنان للأقلام أن تستوفيها لكانت صفحات وصفحات، ولكن المقدرة اللغوية لدى يحيى بن معاذ، وطبيعة اللغة العربية جاءت بهذه الثمرة الفكرية اليانعة، وكشفت عن درة مكنونة، ولؤلؤة لم تثقب، ومن أولى بأن يكون وعاءً شريفاً للأفكار غير اللغة العربية.

ويأتي القول الصادق، والفكرة الواضحة في

(١) الإعجاز والايجاز ٨٣.

جملة قصيرة لا تزيد عن أربع كلمات، ولكنها تحمل فكـرة عظمى، فهي مثـل العمـود النحيل القوي الذي يقوم عليه مبنى كبير، والجملة هي:

«الانصراف قبل التمكن هزيمة»[1].

لقـد اختار صاحب كتاب «آداب الملوك» هذه الجملة، ولعله استقـاهـا من استقـرائـه لحالات شاهدها في زمانه من حروب كانت تقوم بين الملوك المتجاورين، خاصة في مناطق خراسان وما جاورها شرقاً وغرباً، فرأى أن الجيش المتلاحم مع آخر، إذا اكتفى بقليل من أول النصر فإنه لا يعتبر منتصراً، بل يدخل في عداد المنهزمين، لأنه أولاً لم يحقق ما دخل الحرب من أجله، وثانياً ترك خصمه في حالة لا يلبث معها أن يتقوى، ويعيد عليه الكرة، وقد يكون هو المنتصر في الجولة الثانية، وكان الأولى إذا ضرب الحية، وقطع ذيلها، أن يتبع رأسها الذنبا، ليأمن غائلة عدوه.

وهـذا جاءت الكلمـة صادقـة فيـها عنيت له،

(١) آداب الملوك ١٨٤.

ودلت عليه ، ويمكن أن تطبق في أي عمل يقدم عليه الإنسان ، وينال منه القليل ، ويكتفي به ، ولا يصل طموحه إلى إكماله .

وعندما نقرأ الجملة الآتية :

«المنافسة أخت العداوة»[1] .

عند التفكير في هذه الجملة نجد أنها صادقة ، وتنطبق على المنافسات ، فالمتنافسون دخلوا وفي نية كل واحد منهم أن يكون قصب السبق له ، ووطّد نفسه على هذا ، وملأها بالثقة بأنه المنافس الرابح ، فإذا خانه الحظ ، وفشل في هذا السباق ، فإنه يصاب بخيبة أمل كبرى ، وهو لا يلوم نفسه ، ولكنه يجعل اللوم على المنافسين الآخرين ، ويحمل داخل نفسه شعوراً أقل ما يوصف به أنه عداوة ، ولهذا جاءت الجملة ، وكأنها تقول إن المنافسة والعداوة ولدا معاً في لحظة واحدة ، وجاءا من بطن واحد ، لأن مبتداهما ووقتها واحد .

والمتتبع للمنافسات أياً كانت يجدها لا تخلو مما

(١) الأدب الكبير ١٥٦ .

نصت عليه الجملة ، ولا يضعف الحقيقة ما قد يقال من روح رياضية تسود هذه المنافسات ، فهذه وإن جاءت ظاهراً ، فهي باطنا مكبوتة ، ومخبأة ، وقد يكون مرجلها يغلي ، إلى الحد الذي يجعلها أحياناً تتفجر ، ويؤدي إلى صدام أحياناً بين أفراد ، وأحياناً بين جماعات ، وقد تكون حصيلة الطحن فيها قتلى وجرحى ، والمباريات العالمية تشهد بهذا ، وتكررها ، وعنفها يجعلها خير شاهد ، ويستحيل معها الشك في أنها حقيقة واقعة ومخيفة .

ويأتي تعبير مشع ، من رجل يشع نور الإيمان من جميع جوارحه ، نال رضى الناس في الدنيا ، وسعى فيها لنيل رضى الله ، ونرجو أن يكون من نصيبه ، فقد أدى الأمانة ، وسن سنناً حسنة ، وأعاد للناس ثقتهم بمزايا الدين والخلق . هذا عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - يقول قولاً ينضح حكمة ، ويطفح حقاً ، ويسفح صدقاً ، يقول :

«إني وجدت لقى الرجال تلقيحاً لألبابهم»[1] .

---

(١) العقل وفضله ٥٤ .

هذه جملة اختارها الحافظ بن أبي الدنيا في كتابه «العقل وفضله» ، وقد وفق إلى هذا الاختيار ، فهي جملة فيها عصارة عقل ، يُري فضل العقل المفكر والمتدبر ، فلا أقل من أن يأتي منه مثل هذه الكلمة النـاطقـة بالحكمـة ، والممثلة للحق ، والمجسمـة للصواب ، وهي من معدنها لا تستغرب ، فعمر بن عبدالعزيز حري أن يتبين له من تجربته ، وحسن تبصره وتدبره مدى فائدة احتكاك أفكار المتماثلين ، ومـدى نجـاح الفكـرة التي يخرجون بها ، وصدق القول الذي يأتي من تباحثهم ، والتحام أفكارهم وتلاقحها .

وهذا قول يؤكد ما سبق أن ردده كثيرون في هذا المعنى ، ولكن بعبارات أطول ، وجمل مسهبة ، أما عمر فقد ضغط المعنى في هذه الكلمات ، ولم يخل بالمعنى ، بل جاء بالتعبير وافياً شافياً مضيئاً .

وهناك قول يجرى مجرى هذا القول ، جاء من رجل لا يستغرب منه ذلك ، وهو مقاتل بن حيان ، واختـاره صاحب كتاب «العقل وفضله» أيضاً كما

اختار قول عمر بن عبدالعزيز، والقول هو:

«إن في طول النظر في الحكمة تلقيحاً للعقل»[1].

وهو تعبير رائق المظهر والمخبر، وقال ما لا يستطيع أحد أن يشكك فيه، أو يزيد عليه، أو ينقص منه. فالحكمة على اسمها حكمة، وطول النظر فيها وتدبرها، والتبصر فيها وفي معانيها ومراميها يوصل المرء إلى ما يحمده، لأن في هذا استيعاباً لجميع جوانبها، وعصراً لكل ما يمكن أن تحتوي عليه من فائدة.

أما النظرة السريعة، والاطلاع الخاطف، بحيث لا يعدو الأمر العلم السطحي، والفهم الضّحل، فإنها لا تأتي بالفائدة الكاملة. ولهذا نص في قوله على طول النظر، وفي ذلك ضمان للتمعن، والتملي الذي يكفل الوصول إلى ما رمَى إليه مقاتل.

ويأتي التعبير الحسن على لسان عبدالحميد

(١) العقل وفضله ٥٤.

الكاتب، وهو من هو في معرفة البيان، وحسن القول، فقد طبق ذكره الآفاق في أواخر زمن الأمويين، وحسب المشير إليه أن يقول: «عبدالحميد الكاتب» أو «عبدالحميد» فقط فيعرف أنه هو. يقول: «العاقل للسان عاقل»[1].

والمعنى المقصود في هذا القول الموجز واضح، وجماله جاء من اختيار كلمتين متماثلتين في المظهر مختلفتين في المعنى، ولكن هناك خيط دقيق يربط بينهما عند الغوص على جذور اللغة.

وميزة هذه الأقوال المختصرة أنها سهلة الاستدعاء إلى الذهن عند الحاجة إليها نطقاً، أو فعلاً وتطبيقاً، وهي أخت المثل، أو لعلها المثل بعينه في بعض التعابير.

وعندما نسمع تعبير الحكيم وما فيه من صدق، وإنطباق على الواقع، نقف عنده معجبين، لأنه صياغة مختصرة محكمة لفكرة تمر بأذهاننا دائماً، أو

---

(١) قوانين الوزارة ٤٧ .

نراها في أفعالنا، وأفعال غيرنا، فمثلاً عندما نسمع القول المتقن الآتي، نتبناه لصدقه:

«من وهن الأمر إعلانه قبل إحكامه»[1].

وهذا عين الصدق، ومخ الحقيقة، ومشاهد في كثير من الأمور، خاصة إذا كانت مهمة، لأنها حينئذ مما يشغل الذهن، ويأخذ بمجامع النفس، فإعلان الأمر قبل إكماله، واحكام نسجه، قد يعطي فرصة لمن لا يريده أن يقف في طريقه، ويفشل سيره قبل أن يبدأ، أو يقول بما يضعف مفعوله، ويقلل من شأنه.

وعندما نسمع الحكمة التي تقول:

«النصح بين الملأ تقريع»[2].

لا نملك أنفسنا من أن نقول للقائل صدقت وأحسنت، وأصبت عين الحقيقة، وكبد الواقع. وهو أمر نلمسه كثيراً عندما نرى من ينصح علناً،

---

(١) قوانين الوزارة ١٢٥.
(٢) قوانين الوزارة ١٣٤.

فتنحرف الفائدة عن مكانها ، ويأتي النصح بخلاف ما أمل الناصح في كلماته أن تؤديه . والسبب أن الناس تأخذهم العزة بالإثم فيردون الحق إذا جاء علنا ، ويفضلون عليه الباطل ، لأنهم يشعرون بعزة تغطي على عيونهم . وعلى كل حال مادام البادئ قد أخطأ فما جاء من الخطأ لا يستغرب أن يكون خطأ .

وهكذا نرى جمال لغتنا وقوتها ، وضياءها المشع ، فنحمد الله أننا عرب ، وأن هذه الثروة اللغوية بما تأتي به من أفكار عميقة ، نقلها سهل ، هي ملكنا ، ونشعر بفخر أننا من حماتها ، والمحافظين عليها ، وأخطر شيء أن نتهاون فيما يقترب منها من خطر قد لا يبدو مهماً في أول الأمر ، ولكنه سوس ينخر في جسدها إذا أهمل ، والمداخل لاضعاف أي لغة معروفة ، وعلينا أن نحذرها ، ونتنبه لها .

# النفوس العظيمة(*)

هناك أناس ميزهم الله بخلق يجعلهم فوق كثير ممن حولهم ، وأعطاهم من فضله ما لم يعط غيرهم ، وبهذا الخلق يأتون بأفعال حميدة تكون حديث الناس ، يتناقلونها ، ويستشهدون بها ، ويضعونها مقاييس في عرفهم الاجتماعي ، لما يجدون فيها من تميز ، ويرون أن إبرازها يعطي مجتمعهم بروزاً على المجتمعات الأخرى وتميزاً ورفعة .

وهؤلاء الفضلاء يلمع نجمهم في كل مجتمع ، وفي كل زمن ، ويختلف ما يأتون به حسب ما يقابلهم من ظروف تقتضي التصرف الجميل الذي يجعلهم قبلة الأنظار ، وشغل ألسنة المدح والفخر . وبعض ما يعرف عنهم يجد طريقه إلى التسجيل ، ثم يدخل التاريخ بهدوء وجدارة .

وهؤلاء الناس يقدمون على ما يقدمون عليه

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٩٩٢) في ٢٨/٦/١٤١٤هـ الموافق ١١/١٢/١٩٩٣م .

نتيجة إيمان منهم بمبدأ غذوه بماء النفس الطيبة فيهم، وسقوه بالفكر العميق الذي أوصلهم إلى حسن التصرف في أمر يخالف ما تعارف عليه الناس في مجتمعهم، ورأوا فيما تدبروه ما لم يره غيرهم ممن يعتبر عملهم ملفتاً للنظر، وخارجاً عن الجادة المعتبرة بينهم. والنور الذي شع في أذهانهم، وأراهم ما لم يره غيرهم، يبقى معهم يعالجون به كل أمر، فتتصف طبيعتهم بالخير والفضيلة في أي أمر يعالجونه.

وهؤلاء في الغالب ينطلقون في تسامحهم مع غيرهم ممن أخطأ من اعترافهم بعدم كمال الإنسان، واستيلاء النقص عليه في ساعات العسرة، التي لا يستطيع أن يقاوم ما تأتي به من إغراء لارتكاب ما تقتضي الفضيلة الابتعاد عنه، وهم يزنون الأمر، ويقارنون بين الفعل المنتقد، والظرف الذي أدى إليه، ونتائج المحاسبة فيه، وصلتهم هم بهذا الفعل، وحكمهم، وما سيأتي به من مضاعفات قد يكون الندم عليها فيما بعد أكبر من الفائدة المجتناه

في الـوقت الحاضر . فهم بهذا ينطلقون من طبيعة خيرة، أدت إلى تدبر سليم، أوصل إلى نتيجة محمودة .

وهذا الأمر يتركز على فضيلة التسامح تجاه من أخطأ، وعدم الوقوف عند هذا، بل يتعدى هذا إلى اكرامه والإحسان إليه، ولا يستطيع هذا إلا أولو الفضل والعزم من الناس، لأن الإنسان في الغالب إذا رأى شخصاً يستهين به، ويستغفله، أخذته العزة فأخذ حقه مضاعفاً إذا قدر على ذلك، لأنه يعتبر أن السكوت ضعف، وعدم المعاقبة الرادعة المعلنة يجرئ الآخرين على سلوك الطريق نفسه، وهـذا فيه من الخسارة شيء كبير، وقد يصعب القضاء على الظاهرة، ويبدأ الأمر يتجهم داخل نفسه، فيأتي العقاب كبيراً لا يتناسب مع الذنب .

لهذا كان التسامح من الخيرين مقدراً، محموداً، والأمثلة على التسامح كثيرة في تراثنا، وسوف نكتفي بنمط واحد منها يسير على نهج معين، وأمثلته سوف تعطي فكرة عما يدور في داخل نفس أصحابه،

وكيف تفاعل الأمر فيها، والنتائج التي أثمرت من هذا التفاعل:

«أُدخِلَت إلى عبدالرحمن بن الحكم يوماً أموال وردت عليه، فعبيت الخرائط بين يديه، وبث فتيانه بالرسائلِ إلى خدمته، فخلا مجلسه منهم حاشا فتى كان قائماً بين يديه، فتغشت عبدالرحمن سنة، ظن بها الفتى أن النوم قد أثقله، فبسط يده على خريطة من المال، أرسل عليها كمه وولى، وعبدالرحمن يلاحظه، فلما توالى فتيانه أمرهم برفع المال، وعد الخرائط، فإذا خريطة ناقصة، فتدافعوا فيها، كل يتهم صاحبه.

فقال لهم عبدالرحمن: (أمسكوا عن هذا، فقد أخذها من أخذها، وعاينه من لا يقولها). وأمر بضم المال، ورأى أن كشف آخذها لؤم، حياء وكرماً»[1].

هذا التسامح وهذا الكرم جاء من تفكير عميق سليم، فلابد أن عبدالرحمن وزن الأمر في نفسه،

---

(١) أخبار مجموعة ١٢٣.

وقارن بين فضيلة التسامح ، وستر فضيحة الفتى الجاني ، وفضيحته ، والاتصاف باللؤم بدلاً من الحياء والكرم ، فوجد أن الضياء خير من الظلمة ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وخلق الملك يجب أن يختلف عن خلق العامة ، وسارق الخريطة لا بد أنه محتاج ، أو لم يستطع مقاومة النظر إليها ، أو أن ضعف نفسه أدى به إلى ما حدث منه .

ونذهب بعيداً في التاريخ ، لتكون رحلتنا مع رياض التسامح نشطة وممتعة ، فنقف عند حكم بهرام جور في إحدى حقب التاريخ الفارسي :

يحكى أن بهرام جور خرج ذات يوم متصيداً ، وانفرد عن أصحابه ، فدفع إلى راع في ظل شجرة ، وهو حاقن ، فنزل وأمر الراعي بحفظ فرسه ، ففعل ، وقطع بعض أطراف اللجام ، وكان من ذهب مرصع بالجواهر ، ونظر إليه بهرام ، فاستحيا وتشاغل ، وغمض عينيه .

ثم قال : «يا راعي قدم إلي الفرس ، فقد قَذِيَتْ

عيني من هذه الريح ، حتى ما أقدر على فتحها» . فلما ركب بهرام قال له الـراعي : «أيهـا العظيم ، كيف آخذ لي موضع كذا - يعني موضعاً بعيدا - » قال : «فما سؤالك عن ذلك الموضع؟» قال : «هناك وطني ، وما وطئت هذا المكان إلا في يومي هذا ، وما أراني أعـاوده» . فضحك بهرام ، وفطن لما أراد ، فقال له : «أنا رجل مسافر ، وأنا أحق بألا أعود إليه أبداً» . ثم مضى فلما نزل عن فرسه قال لصاحب ركابه : «قد وهبت طرفاً من معاليق اللجام لبعض السوَّال ، فلا تتهمن بها أحداً»[1] .

لقـد قدر بهرام حاجـة الـرجل وفقره ، وعرف صعـوبـة مقاومة الذهب وبريقه مع صوت الفقر وصراخـه ، فآثـر الكـرم على اللؤم ، والحيـاء على المكـاشفـة ، وهكذا دخل فعله التاريخ من أوسع أبوابه ، وقد يكون عمله هذا أوحى فيما بعد بكثير من القصص التي تروى عن الحكام ، وضياعهم عن أصحـابهـم في الصحـراء ، والتقـائهم بمن لا

(١) آداب الملوك ٢٢٠ .

يعـرفهم ، فيـأتي منهم معهم من الـطرائف ما هو مثبت في كتب الأدب .

ونـطيل قليلاً في المكوث في حقبة ملوك الفرس ، فنسمع قصة عن أنو شروان في هذا المجال ، استحقت التـدوين ، وتخللت حقب التاريخ حتى وصلت إلينا مضيئة ، فيما تحكيه عن تسامح هذا الملك :

« يحكى عن أنو شروان أن بعض من حضر مجلسه ، في يوم نيروز أو مهرجان ، ترصد غفلة من السقاة ، فأخـذ جام ذهب ، وأخفاه في قبائه ، وأنو شروان يلاحـظه ، والـرجل لا يشعر به . فلما افتقد الجام صِيْح : « لا يخرجن أحد من الدار حتى يفتش » . وأخبـِر أنـو شروان بذلك ، فقال : « أخذه من لا يرده ، ورآه من لا ينم عنه ، فلا تتعرضوا لأحد » ، وانصرف الرجل بالجام »[1] .

---

(١) آداب الملوك ٢٢١ .

وهكذا سجل أنو شروان حالة من حالات التسامح المضيئة بإشعاع الكرم، والبعد عن اللؤم. ولا بد أن أنــو شروان مثل بهرام جور وزن الإغراء بضعف النفس، فعــذر، في ضوء قوة هذا وضعف هذا، السارق، واعتبر الأمر طبيعياً، وأن المكسب في ستر الأمر وعدم فضحه.

ولمعــاوية موقف مثــل هذا، ومعــاويــة ممن لا يستغــرب منه ذلــك، لأنــه يتــماشى مع طبيعتــه وسياسته، وهو الذي رُوي عنه قوله: «إني لأجر ذيلي على الخدائع». وقد قرر أبو دلامة هذه الصفة فقال: «إن الخليفة للسُّؤَّال ينخدع»[1].

والشعــراء خير من يقتنص الفضائل، ليجعلها محوراً من محاور المدح، فمثل قول أبي دلامة يأتي قول أبي تمام:

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي[2]

---

(١) آداب الملوك ٢٢١.
(٢) آداب الملوك ٢٢١.

ويبـــدو أنها فضيلة يرى المفكــرون أنها تلازم الملوك الناجحين في حكمهم ، لأنها تأتي من نظرة أبوية إلى أبناء تجبرهم ظروف الحياة إلى تخطي حاجز الفضيلة ، والـرتـوع في حمى الـرذيلة دون اختيار متعقل ، حاسب للعواقب . وما تأتي به الحوادث من نتائج وخيمة .

ويأخذنا تتبع هذا الضرب من التصرف الحسن إلى حادثة طريفة ، تفادى صاحبها في آخر المطاف ما كانت سوف تنتهي إليه من موقف مؤلم :

«يحكى أن جعفر بن سليمان الهاشمي افتقد درة ثمينـة ، فأمـر بطلبهـا من أصحاب الجواهر ، فلما جاءوا بها وبالرجل إليه جعل ماء الحياء يترقرق في وجـه جعفر ، فقال له : «ألم تكن طلبت مني هذه فوهبتها لك؟» قال : «بلى أيها الأمير !» قال : «فما معنى التعرض له ، خلوه وإياها» ، فباعها بمئة ألف درهم»[1] .

---

(١) آداب الملوك ٢٢ ، البصائر والذخائر ٦/١٧٢ .

. الحيـاء هو العامل المشترك بين هذه القصص، والحيـاء شعبـة من شعب الإيـمان، والإيمان الحق جزاؤه من الله في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا ينال صاحبـه التـوفيق من جراء رِضى الله عليـه، وفي الآخرة حسنات مضاعفة، ترجح ميزانه، وتعلي مكانه.

ونعود إلى معاوية، وسبق أن قلنا أن له موقفاً في هذا يتفق مع طبيعته، فنجد أن أبا حيان سجل له الموقف الآتي:

سرق رجل من مجلس معاوية كيساً فيه دنانير، ومعـاوية يراه، فقال الخازن: «يا أمير المؤمنين قد نقص من المال كيس دنانير»، قال: «صدقت، وأنا صاحبه، وهو محسوب لك»[٢].

ومعاوية قد يكون غلبه الحياء في أن يكشف سر السارق، وإن لم يكن الحياء هو الذي وراء تسامحه وكرمه، فلا بد أنها طبيعته في مداراة الأمور، والسير

---

(٢) البصائر والذخائر ٦/١٦١.

في طريق هادئ، لا زوابع فيه، ولا عواصف عليه.

وهناك حادثة طريفة، اختلط فيها الأمر، وتضاربت الجوانب، ودخل الجد فيها مع بعض ما يثير الضحك، وتصارعت الطبائع الأصيلة، والصفات المكتسبة، فجعلت منها أنموذجاً لقصة تروى:

«كان سليمان بن عبدالملك خرج في أيام أبيه لنزهة، فقعد يتغدى مع جماعة، فلما حان انصرافه شغل حشمه بالترحال، فجاء أعرابي فوجد منهم غفلة، فأخذ دواج سليمان، فألقاه على عاتقه، وسليمان ينظر إليه، فصاح به بعض الحشم: «إلق ما معك ويلك». قال: «لا، ولا كرامة لك، قد خلعه علي الأمير»، فضحك سليمان، وقال: «صدق، أنا كسوته»، ومر الأعرابي كالريح»[1].

لم ينتظر الأعرابي حتى يقول سليمان أنه أعطاه

---

(١) البصائر والذخائر ٦/١٧٢.

إياه، بل ادعى ذلك وصدقه سليمان، إذ لا فائدة من قول غير ذلك، فالأعرابي مصمم على فعله، وقد رمى برقع الحياء، وصمم على أمر جاء نتيجة تفكير. ولابد أن عينه كانت على هذا الكساء، ورأى أن الرحيل قد آن، وأنه سيخرج بعد ذلك بدون حصته، فاختار حصته. وفي النهاية أعطى ساقيه للريح، ولعله خشي أن يغير سليمان رأيه، نتيجة فكرة تعن له، وسلم هو وكسبه، وآب بالغنيمة ظافراً.

وطلحة بن عبيدالله عرف بالكرم والجود، ولهذا فلا يستغرب أن يدون له في هذا المجال ما يضعه في صفوف أمثاله من الكرماء المتسامحين:

«استلب رجل رداء طلحة بن عبيدالله، فذهب ابن أخيه يتبعه، فقال طلحة: «دعه، فما فعل هذا إلا من حاجة»[1].

وهذا أول نص يكشف أن المتسامح فكر في السارق أو الآخذ وأنه فَعَلَ ما فَعَلَ من حاجة، وهو

---

(٢) البصائر والذخائر ٦/١٧٢.

ما لا يشك فيه، ولكن الحياء أيضا لا يخرج من هذا الحيّز الخير.

وعلى هذا فغض النظر، حياء وكرماً فضيلة اعتبرها هؤلاء العظماء من مكملات ملكهم، وإذا كان ما سجل في الأدب قليلا مما لا بد أنه حدث، فإن ما اقتبس هنا، ليعطي مثلاً، قليل جداً مما دون، وما لمس جانباً من جوانب التسامح والكرم، وأخذ صفة واحدة، ليمكن استيعاب الفكرة عن هذا الجانب المضيء في تراثنا، وهو نافذة أطللنا منها على رياض مخضرة، سقاها ماء حضارة توالى وبله وسحابه عليها، وتعهدها حتى بقيت مخضرة حية، تؤكد عمق حضارتنا، وسطوع نورها في أزمان كان غيرنا بعيداً عن السطح ومغموراً.

هذا يجعل التمعن في تراثنا أمراً يحتمه الواجب الوطني، ويدعو إليه التطلع إلى إحياء ما كان مضيئاً في زمن من الأزمان التي ملأت الدنيا، سمعها وبصرها، ولعل التراث يحظى منا بنظرة، ثم عناية ثم اقتداء، في المجالات المختلفة التي تغص بأخبارها كتب التراث.

# التراث وإراحة النفس(*)

لا تمسك كتاباً من كتب التراث، أو كتاباً يتعلق به، إلا وجدت نفسك مشدوداً إليه، ومأخوذاً بما فيه، ينقلك من حاضرك إلى الماضي، ويسبح بك في أجواء جميلة ممتعة، وينسيك ما أنت فيه بما يريك، ويبسط بين يديك، مما يذهلك، ويشغل ذهنك بالتفكير والتبصر. وقد أجاد الأولون العناية بنتاج أفكارهم، وأتقنوا الإختيار في تسجيل ما يمثل مجتمعاتهم، وبرعوا في الخطة التي انتهجوها لذلك. فكلما يقرأ الإنسان ما كتبوه يخرج بفكرة جديدة عن هذا التراث، مرة عن الأفكار واتجاهها، وأخرى عن النسق والنهج، وثالثة عن الإختيار، وهكذا كلما قرأ وجد جديداً يضيفه إلى ما لديه.

ومما أجد أنه منهج يستحق أن يبرز، ويوقف عنده، منهج محاولة أن يكون ما يكتب جذاباً، وأن

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٩٩٩) في ١٤١٤/٧/٥هـ الموافق ١٩٩٣/١٢/١٨م.

يكـون ما فيـه شاداً للقارىء، ويأتي هذا أحياناً في طبيعة القصة التي تدون، أو في منهج قصها أحياناً أخرى، أو فيهما معاً، فيضمن الكاتب لقصته، أو الحادثة الحقيقية التي يرويها، الرواج، ويتأكد أنها سوف تنتقـل من ورّاق إلى آخـر، حتى تكون في أيدي من يهمهم مثل هذا الفن. وصار من حظنا أن وصلت إلينا بعض هذه الجهود.

وأجد دائماً أن هناك اعتناء بما يشبه «العقدة» في القصة الحديثة، إلا أنها تختلف، لأنها لا تسير على نسق واحـد، ولعـل القصـة أو الحادثة تساهم في التنـويـع. وأقـرب ما يمكن أن أصفهـا به هي «المفـاجـأة» التي يحرص عليهـا صاحب القصة أو الحادثة. ولعل في بعض ما سألمسه هنا ما يوضح هذا:

أهدى الشريف إلى الملك صلاح الدين بن أيوب هدايـا، وكان الرسول يُخرج منها واحدة واحدة، ويعـرضها على الملك، فأخرج مروحة من خوص

النخـل ، وقـال : «أيها الملك هذه مروحة ما رأى الملك ، ولا أحد من آبائه ، مثلها» .

فاستشاط الملك غضباً ، وتناولها منه ، وإذا عليها مكتوب :

أنـا مـن نخـلة تجاور قـبرا
ساد من فيه سائر الناس طرا
شملتني سـعادة القـبر حتى
صرت في راحة ابن أيوب أقرا

فعـرف أنها من خوص النخل الذي في مسجد رسـول الله - ﷺ - فقبلها الملك ، ووضعها على رأسه ، وقال للرسول : «صدقت . . صدقت»[1] .

وقد أحسن رسول الشريف في تقديم الهدايا ، فيبدو أنه بدأ بما يدل من أول نظرة على حسن اختيار المهدي لهدايا تقدم من مرؤوس إلى رئيس ، وترك المروحة التي لفتت نظر صلاح الدين بتدنيها ، وفي

---

(١) الكشـكول ١ / ٨٤ .

الغالب، لفتت نظر من كانوا معه، وبأنها ليست في مقام ما يهدى، وقد أدرك رسول الشريف هذا، فزاد في تعجبهم بما قاله، ثم جاءت المفاجأة، في أن الأهمية ليست في خوصها، ونسيجها وحبكها، وإنما في وجود نخلتها في مسجد الرسول - ﷺ - مما جعل لها ميزة على مثيلاتها، وأظهرت رسول الشريف بالصادق عندما قال: إن صلاح الدين لم يرها لا هو، ولا أحد من آبائه. وقد أقر صلاح الدين له بذلك. ولولا هذه المفاجأة لما استحقت القصة أن تدون، وأن تحملها الأجيال إلى أن وصلتنا. والمفاجأة هنا صارت هي «العقدة».

وتأتي المفاجأة عندما يخيل للسامع أن المتكلم قد أخل بحق الدين. فيتحفز السامع للرد، والانتصار للدين، ثم يجد عند التفسير أن الأمر بعيد عما كان قد فهم. وقد ينتج عن سوء الفهم هذا تصرف لا يمكن تفادي الضرر الذي يجيء منه. ويمثل هذا قصة الرجل الذي دخل على بيت فيه نواح على أثر موت أحد سكان البيت، فسأل الذين جاءوا

للعزاء : «من المُتوفِّي؟» بكسرة تحت «الفاء» بدلا من أن يقول : «من المُتوفَّى» بفتح الفاء، فقال أحد الحاضرين مراعيا صحة اللغة : المتوفِّي» هو الله – سبحانه وتعالى – فانهال السائل على المجَيب ضرباً، وتبعه الحاضرون الآخرون، ولم يستطع هنا المضروب مع الضرب أن يقنع الناس بأنه على حق، وأنهم على باطل، إلا بعد أن فات الأوان، وما فات لم يكن ليسترجع. والخطأ في كلمة «المتوفي» و «المتوفى» شائع في زماننا، وقليل من الناس يدرك هذا الخطأ، خاصة العامة.

والطرافة التي حدثت من هذا الإلتباس هي التي دعت إلى تسجيل هذه الحادثة في التراث. ولو قالها أحد في زماننا اليوم فقد يحدث له ما حدث لذلك الرجل قبل قرون.

وتأتي المفاجأة عندما يتحدث المتحدث بغير ما كان معتاداً أن يتحدث به، فالتعزية في مكان التهنئة، والتهنئة في وقت التعزية، والإشادة بدل التأنيب، أو التأنيب بدل الاشادة، أمور تلفت

النظر، وتفاجيء السامعين، فمثلاً تجد اثنين تقابلا في المقبرة ليحضرا دفن عزيز عليهما، ولم يكن رأى أحدهما الآخر، لفترة طويلة، فيقول أحدهما، على سبيل العادة، للآخر: «هذه فرصة سعيدة أن تقابلنا هنا اليوم»، ثم يدرك بعد أن قال ما قال، أن المناسبة دفن صديق أو عزيز، وأنها ليست مناسبة سعيدة البتة، ولكن الكلمة خرجت، ولا يمكن ردها، وسمعت، ولا يمكن أن يخفي السامع ما سمع، وما عليه إلا أن يبتسم رغم موقف الحزن الذي يشمل الجميع.

وهناك قصة فيها مثل هذه المفاجأة، ولكن طول الحديث فيها يدل على إصرار وتعمد، ولعل صاحبها، رغم أن من سمع قوله فوجيء، لم يكترث، وبقي في ظنه أنه لم يقل إلا ما أراد، وأن ما أراد هو الحق، ولعله فخور برصف هذه الجمل عن تعزية رجل بفقد عينيه:

«دخل أبو عتاب على عمرو بن هداب، وقد كف بصره، والناس يعزونه، فمثل بين يديه،

وكان كالجمل المحجوم (الملجم المكموم الفم) وله صوت جهير، فقال:

يا أبا أسيد، لا يسوءنك ذهابهما (أي عينيه)، فلو رأيت ثوابهما في ميزانك تمنيت أن الله تعالى قد قطع يديك ورجليك، ودق ظهرك، وأدمى ضلعك»[1].

ترى لو أن هذا المعزي بالعينين سمع قصيدة الحزيمي وذكره عماه، أكان يقول ما قال؟! قال الحزيمي:

أصغي إلى قائدي ليخبرني
إذا التقينا عمن يحييني
أريد أن أعدل السلام وأن
أفصل بين الشريف والدون
أسمع ما لا أرى فأكره أن
أخطئ والسمع غير مأمون
للّه عيني التي فجعت بها
لو أن دهراً بها يواتيني

(١) الحيوان للجاحظ ٣/٣٥، ٥/١٦٧.

لو كنت خيرت ما أخذت بها
تعمير نوح في ملك قارون[1]

وإذا كان للعاقل ما يمكن أن يفاجئ سامعه به، فإن للمجنون أيضاً ما يمكن أن يفاجئ به الناس، ولعله أولى الناس بالمفاجأة، لأن أصول التفكير عنده تسير على غير مقاييسهم، ولأن نظرته للأمور لها من التنظيم والقواعد ما يسير على نمط غير معتاد، ولبهلول المشهور قصة تسير على هذا النهج :

قال علي بن الحسين الرازي :

مر بهلول بقوم في أصل شجرة، فقالوا : يا بهلول، «تصعد هذه الشجرة، وتأخذ عشرة دراهم؟» فقال : «نعم». فأعطوه عشرة دراهم، فجعلها في كمه، ثم التفت إليهم، فقال : «هات سلماً» فقالوا : «لم يكن هذا شرطنا»، قال : «كان في شرطي»[2].

(١) الحيوان للجاحظ ٣/١١٣ .
(٢) أخبار الظراف ١١٩ .

المفاجأة تركها بهلول بعد أن اطمأن إلى المبلغ، ووضعه في جيبه، لقد كان هذا الأمر في ذهنه منذ أن عرض العرض، ومنذ أن أخذ في المساومة، ولكنه أخفاه ليكون مفاجأة. هنا جاءت «العقدة» للقصة، وهي ما أوجب تدوينها وتسجيلها لتكون من بين ما نتمتع به مثلما تمتع بها أجيال قبلنا.

وتكون المفاجأة التي جعلت من الأمر قصة توجب التدوين، وإبراز الطرافة فيها، وما يعجب ويدهش، أن أمراً ما لم يتنبه له في أول الأمر، رغم وضوحه لأحد المشاركين في الأمر، وغيابه عن الآخرين بسبب انشغالهم بجانب مهم في الأمر، مما جعلهم لا يفكرون إلا فيه، وكيف يصلون إلى غايتهم منه، فهم يعملون الحيلة، ويتقنون الأداة، غافلين عما تبين في نهاية الأمر أنه مهم، وأنهم سادرون عنه، وأن الإلتفات إليه سوف يبطل كل ما بنوه، وينقض كل ما غزلوه.

قال بكار بن رباح:

كان بمكة رجل يجمع بين النساء والرجال،

ويعمل لهم الشراب، فشُكِي إلى أمير مكة، فنفاه إلى عرفات، فبنى بها منزلاً، وأرسل إلى حرفائه (زملائه في المهنة): «ما يمنعكم أن تعاودوا ما كنتم فيه؟» قالوا: «وكيف وأنت بعرفات؟» فقال: «حمار بدرهمين، وقد صرتم إلى الأمن والنزهة».

فكانوا يركبون إليه، حتى أفسد أحوال مكة، فعادوا يشكونه إلى الوالي، فأرسل إليه، فأتى به، فقال: «يا عدو الله طردتك من حرم الله، فصرت بفسادك إلى المشعر الأعظم!».

فقال: «يكذبون عليّ». فقالوا: «دليلنا أن تأمر بحمير مكة تتجمع، ويرسل بها مع أمنائك إلى عرفات، فإن لم تقصد منزله من بين المنازل فنحن مبطلون».

فقال الوالي: «إن هذا لشاهد ودليل» فجمع الحمر، ثم أرسلها، فصارت إلى منزله. فقال الأمير: «ما بعد هذا شيء»، فجردوه، فلما نظر إلى السياط، قال: «لا بد من ضربي؟» قال: «نعم».

قال : «والله ما علي في ذلك أشد من أن يضحك منا أهل العراق ، ويقولون : أهل مكة يجيزون شهادة الحمير» . فضحك الوالي[1] .

وهكذا أنقذ هذا المذنب نفسه بمفاجأة جاءت في اللحظة الحاسمة ، وقد لجأ إلى أن حرك في نفس الوالي ما جاء بالغرض المقصود منه ، فمن الأمور غير المقبولة أن تنظر بغداد وأهلها إلى والي مكة وقاضيها نظرة غير نظرة الاحترام التي يتطلعون إلى بقائها . وستكون كبيرة عليهم أن يَرُدَّ قاضي بغداد شهوداً من كبار القوم لمطعن طفيف ، بينما قاضي مكة يقبل شهادة أحد الحيوانات المرذولة ، مهما أمتاز بالدلالة ، واشتهر بمعرفة طريقه إلى ما تعود أن يذهب إليه .

ولقد كانت «المفاجأة» قوية إلى الحد الذي أوقفت معه تعزيزاً كاد أن يتم ، وله من الأركان القوية ما كان مقنعاً للناس والوالي والقاضي ، ولكن

---

(١) أخبار الظراف ١٥١ .

المفاجأة كانت «العقدة» التي «حلت» القضية ، وإن كانت القضية غريبة ، فغريب أيضاً أن تحل «العقدة» القضية ، والعادة أن العقدة تحل !

وإذا كانت المفاجأة جاءت في نهاية هذه القصة الطويلة ، فقد تأتي المفاجأة في السطر الثاني من قصة ليست أكثر من سطرين :

قيل لبعضهم : «أتحب أن تموت امرأتك؟» قال : «لا» قيل : «لم؟» قال : «أخاف أن أموت من الفرح»[1] .

انه بجانب ما تبينه هذه القصة القصيرة من جاذبية المفاجأة التي جعلت من هذا الخبر القصير قصة تروى وتسجل ، فإنها تكشف أيضاً أن علاقة المرأة والرجل لم تكن تختلف عندهم عما هي اليوم ، لا بالحياة الفعلية فقط ، ولكن في الحرص على التهكم والاستهزاء ، كما هو حادث اليوم ، مما نرى أثره في الصحف من نكت عن العلاقة بين الرجل والمرأة والحياة .

---

(١) أخبار الظراف ١٥٢ .

وتكون المفاجأة أحياناً في صرف معنى من اللغة إلى غير المعتاد، فيبدأ الأمر بدهشة، ثم يصبح تطلعاً، ثم تأتي المفاجأة، فيستقر الأمر.

حدث عبيدالله بن محمد بن أبي محمد اليزيدي عن عمه إبراهيم قال:

حدثني أبي قال: كنت مع عمرو بن العلاء، في مجلس إبراهيم بن عبدالله بن حسن بن علي بن أبي طالب فسأل عن رجل من أصحابه فقده، فقال لبعض من حضره: «إذهب فسل عنه»، فرجع فقال: «تركته يريد أن يموت؛» فقال إبراهيم: «لقد ضحكتم منها عربية، إنَّ (يريد) في معنى (يكاد)، قال الله تعالى: ﴿جداراً يريد أن ينقض﴾[*] أي يكاد». قال: فقال أبو عمرو: «ولا نزال بخير ما كان فينا مثلك»[1].

ولعل مسك الختام في هذا الباب قصة مليئة بالحكمة، ولعلها أيضاً سيقت لتكون رمزاً خلقياً،

* سورة الكهف: آية ٧٧.

(١) معجم الأدباء ١٢/ ٦٠.

وفيها عنصر المفاجأة، وهو عنصر قوي احتفظ به القاص، وهو الحكيم، إلى آخر لحظة في القصة.

كان رجل ينادي على بعض أبواب الملوك :

«من يشتري مني ثلاث كلمات باثني عشر ألف درهم؟»، فكان من سمعه يعجب منه، حتى بلغ ملكاً منهم خبره، فدعا به، وسأل عن الكلمات، فقال : «احضر المال»، فأحضره. فقال :

«أما الكلمة الأولى : فينبغي أن تعلم أنه ليس في صحبة الناس خير. والثانية : ينبغي أن تعلم أنه لا بد منهم. والثالثة : ينبغي أن يعاملوا على قدر ذلك». فقال له الملك : «قد أحسنت، فخذ المال». قال : «لا حاجة لي فيه، إنما أردت أن أعلم هل بقي أحد يطلب الحكمة»[1].

---

(١) الذهب المسبوك ١٦٢.

# العلة صحة(*)

ليس المقصود بالعلة هنا المرض أو الداء، وإنما المقصود إعطاء السبب لدعوى يدعيها مدع، فهي، على هذا، التعليل الذي يساق أمام الفكرة التي تطرح تمهيداً لقبولها، ولا قبول إلا باقتناع، ولا إقتناع إلا بتبيان السبب، والسبب لا بد أن يكون قوياً حتى يقبل.

والأسباب وتلمسها، وربطها بالحوادث والنتائج تسلسل فكري، وكل عمل فكري، متقن ومتماسك ومتتابع، هو مظهر من مظاهر الحضارة التي تعطي الفكر ونشاطه أهمية كبرى ترجح على جانب القوة الجسمية. وإعمال الفكر دليل على تقدير العقل، واستمرار نشاطه حتى لا يصدأ، أو تكل ملكاته المختلفة، وهي ما يحكم تصرف الإنسان بطريقة سليمة ومنتجة.

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٠٦) في ١٢/٧/١٤١٤هـ الموافق ٢٥/١٢/١٩٩٣م.

وإذا أخذنا جانباً من جوانب تصرف الإنسان في الحياة مثل إعطاء الأوامر من الأعلى إلى الأدنى، ومن الرئيس إلى المرؤوس، ومن القوي إلى الضعيف، ومن الحر إلى المقيد، نجد أن الأوامر المطلقة لا تنفذ أبداً، أو لا تنفذ تنفيذاً كاملاً، أو يكون في تنفيذها من الضرر الخفي ما لا يتبين في وقته، فإذا تبين فيما بعد فقد يكون جسيماً.

والأوامر بهذه الصفة تكون سمة المجتمعات البدائية، أو سمة الشخص الذي لم يكتمل علمه أو تأديبه وتهذيبه، لأنه يشم، في إلقائها على من أريد منه أن ينفذ، رائحة التعالي، وعدم الثقة، وانقطاع الصلة المحترمة بين من ألقاها ومن ألقيت عليه، وتنعدم اللذة في التنفيذ، لأن جانباً مهما وهو الفلسفة وراء كل عمل، ومعرفة جوانبها قد خفيت، فيقترب الإنسان المنفّذ من منزلة الحيوان، ولا يكون بينه وبين الدابة فرق، فهذه تحمل الحمل، وتوجه إلى حيث يراد منها أن توصله، ولا حيلة لها في الإعتراض إذا لم يعجبها الطريق، ولا

تدري أبداً ما هي الحكمة في توجيهها للسير في الطريق الوعر مع وجود السهل، ولا الطريق الطويل مع وجود القصير.

والإنسان الذي يوجه وجهة ما، ولا يوضع في الصورة التي عليها الموجه، لا بد أن يشعر أنه قارب مرتبة الحيوان، إلا إذا كانت الظروف التي هو يقدرها تقتضي ذلك، فالجيوش تسير أحياناً، وتعرض للصعوبات، دون أن تعرف السبب، ولكن ثقة كل جندي بضابطه، وكل ضابط برئيسه تجعلهم يقدرون الأمر، والتعليل لهم متوفر في أن السرية تقتضي هذا، وأن سلوك الطريق الصعب مع وجود السهل إنما جاء لعلة مقدرة.

وأقف كثيراً بتقدير واحترام أمام بعض عبارات أبي حيان التوحيدي عندما يسوق رأياً غريباً لم يعلل، خاصة إذا كان مخالفاً لما هو معتاد، أو فيه غرابة، فيقول: «ليته أعطانا العلة»، أو «ليته علل». ويعضد القارئ أبا حيان في هذا القول، لأن الدعوى بقيت دعوى، وأصبح من يمر بها،

يمر بخريطة مقفلة لا يدري ما بداخلها ، ولهذا فهو لا يغليها ولا يرخصها .

وخلاف هذا عندما يأتي الشيء معللاً ، فإن الجانبين الملقِي والملقَى إليه يصبحان متصلين بصلة تنتج عنها الفائدة المرجوة ، لأن اعطاء السبب ، وكشف الحكمة ، جعل الاثنين في مستوى واحد ، مما جعل التفاهم مضموناً . وإذا لم يكن التعليل كافياً ومقنعاً ، فإن مجرد سقوط العلة ، ورفضها ، تعليل قوي في الأخذ بخلافها ، وبهذا فالموقف الأقوى قد اتخذ آلياً .

والتعليل مطلوب في كل طريق من طرق الحياة ، وليس لازماً في شيء وغير لازم في شيء آخر ، أو لازماً في سن معينة ، وليس لازماً في سن أخرى . أو لازماً للكبير وليس لازماً للصغير أو للرجل دون المرأة ، بل هو لازم لكل أحد ، وفي كل أمر ، فعندما تلقي أمراً على الطفل في عدم الاقتراب من الأجهزة الكهربائية لا بد من التعليل ، وإن أمكن أيضاً فيتبع

هذا باطلاعه على بعض مظاهر الضرر الذي حدث لمن خالف التحذير.

والمرأة التي تراجع الطبيب مع طفلها المريض، يحتاج الطبيب أن يشرح الأمر لها، مع إعطاء الأسباب وراء التعليمات التي أصدرها لها، لتكون مقتنعة تماماً بما وجّه به، فتنفذ أوامره بدقة وحماس، ولا تتراخى لأنها لم يتبين لها السبب، وقد تتلمس لهذا الأسباب لعمل ما يخالف ما أمرها به، لأنها أعملت فكرها في حدود علمها الضيق بالطب، وارتاحت إلى نتيجة تفكيرها المنيرة على أوامره المظلمة.

والمدرس مع تلاميذه أول من يُطالَبُ بالتعليل، وسوق الأسباب، أولاً لاقناعهم بالأفكار التي يطرحها، حتى يستفيدوا منها الفائدة الكاملة، وثانياً ليتعودوا هم على تلمس الأسباب في حياتهم المقبلة لكل ما يصادفهم في حياتهم فيما بعد، فيعتادوا هذه العادة الحسنة، التي فيها فائدة في نتائجها، وفي تعويد الفكر على أن يتلمس الأسباب

لما ينتج عنه، ليكون سبباً في نجاح أفكار صاحبه وأعماله.

ولا شك أن كل أحد يرتاح عندما يقرأ نصاً مسبباً ومعللاً، ويقف عنده متأنياً متأملاً، ويشارك صاحبه مسالك الفكر التي سلكها، ويقدر جهده المبذول.

والتعليل مهما كان بسيطاً أحياناً، أو جاء على الهامش فهو مقدر، لأنه يدل على أن خلفه تفكيراً، التفكير يدل على اعتناء، والاعتناء يدل على الالتفات لمصلحة الآخرين، والآخرون يقدرون هده الالتفاتة ويقابلونها بما تستحقه من التجاوب والقبول.

والأدب العربي وتاريخه فيه ما يثلج الصدر في مجال التعليل، سواء كان التعليل واقعاً أو متخيلاً في بعض الأمور التي يحليها ويجملها الخيال. ولعل الخيال فيها يعطيها قبولاً، لأن في التعليل ابتكاراً، وتلمساً لما هو أبعد عن ذهن القارئ، مما يوجب

الدهشة والقبول التام مثلما حدث في التعليل الآتي في سبب صفرة الأترج :

أمسيت آخذ أترّجا
في صفرة اللون من بعض المساكين
عجبت منه فما أدري أصفرته
من فرقة الغصن أم من خوف سكين[1]

والشاعر بلا شك قد أعمل فكره إعمالاً تاماً ، فقد حيرته صفرة الأترّج ، وأخذ يبحث عن أسباب هذه الصفرة ، فاستعرض أسباب الصفرة في الإنسان فوجد أنها تركب على الأترج ، فألبسها إياها ، مع الحيرة في أي لباس منها الذي يتماشى معها . وكان تعليلاً مقبولاً ، لأن فيه فكراً وخيالاً !

ونترك الخيال إلى الحقيقة ، ونعود إلى الأمر أو الطلب ، وإذا أريد للأوامر والطلبات أن يستجاب لها وتنفذ ، فلابد أن يكون معها من التعليل ما يسبقها . وحتى إذا كان الأمر من الخليفة لجلسائه ،

---

(١) الكشكول ١ / ٣٢١ .

فإن التعليل يجعلهم ينفذون هذه الأوامر، ويحترمون هذه الرغبات بقناعة تامة، فلا تقوم جوارحهم بما لا تستسيغه قلوبهم، ولا يُجَرُّون إلى ما طلب منهم بالسلاسل، وإنما ينفذونها برغبة، ويتعلمون منها ما يلقونه على من دونهم.

قال عبد الملك بن مروان لجلسائه:

«جنبوني ثلاثاً: لا تطروني فإني أعرف بنفسي منكم، ولا تكذبوني فإنه لا رأي لكذوب، ولا تغتابوا أحداً عندي فيفسد قلبي عليكم»[1].

هذه ثلاث حكم ذهبية، ألقاها عبدالملك على جلسائه، أتْبَع كل واحدة بعلتها، طلباً للاقناع، حتى يكون العمل المطلوب تاماً. وينفذ بطيب نفس، فمن يطري عبدالملك بعد ذلك فإنما يقول لعبدالملك أنا أعرف منك بنفسك، وهذه شتيمة كافية لأن تطرده من صحبة عبدالملك. ومن يكذب على عبدالملك بعد أن علم أن عبدالملك لا يقبل

(١) سراج الملوك ٢٢٨.

للكذوب رأياً ؛ لأن هذا رأي عبدالملك وقد أعلنه ، ومن يجرؤ أن يغتاب عنده أحداً بعد أن بين أن هذا يفسد قلب عبدالملك على المغتاب ؟!

إن المدح في الوجه قيل فيه الكثير في الأدب العربي ، وأحدنا يشعر بالخجل والإحراج عندما يمدحه أحد في وجهه أمام الناس ، ويشعر أحدنا أنه كلما طال المدح يصغر الممدوح تدريجياً أمام المادح حتى ليتمنى أن يتلاشى أو تبتلعه الأرض ، وقد قال الرسول - ﷺ - في المدح في الوجه قولاً قوياً ، لأنه ظاهرة اجتماعية لو انتشرت لآذت المجتمع .

والكذب ذنب لا يقبل بحال من الأحوال لأنه يجر إلى رذائل عديدة ، والكاذب تنعدم الثقة فيه ، فلا يقبل منه الصدق لو جاء به ، وكيف يعرف الصدق من الكذب عند الكذوب ؟

والمغتاب يكدر القلوب على الآخرين ، ثم يعود الأمر إليه في النهاية بالأذى والنبذ ، لأن من تكلم عندك بأحد تكلم عنك عند الآخرين ، لأن هذه

مهنة المغتاب، وهذه سلعته، ومادة المغتاب الناس، ولا فرق عنده بين أحد وأحد. ومن قال لك قال فيك.

ويأخذ التعليل أحياناً طريقاً طويلاً، ويأتي بالمقنع، لأن الأسباب المشروحة تنير الطريق لقبول الفكرة.

كان يقال: «أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال، والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفىء النار، والسحاب يحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يتقي الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان، والنوم يذهب السكر، والهم يمنع النوم، فأشد خلق ربك الهَمّ»(١).

لو قال صاحب الدعوى: «أن الهمّ أشد خلق الله» لاعترض معترض وقال الجبال أكبر خلقاً من الهم، ولكن صاحب الدعوى اتخذ طريقاً طويلاً

(١) سراج الملوك ١٠٥.

أمل عن طريقه أن يقنع. والهم مصدر قلق لكل الناس، فكثيرون سيقبلون هذه الحقيقة مع هذا التعليل.

وقد لا يكون الرأي مقبولاً حتى إذا جاء معه التعليل، ولكنه يكون محترماً لإنه سار على النهج الصحيح في إعطاء الأسباب، وقد يكون مقبولاً في حدود معينة، كأن يقبل على أنه رأي منطقي بالنسبة لصاحبه دون غيره مثلما حدث مع أعرابي عندما بين رأيه في الحرب:

«قيل لأعرابي: ألا تغزو العدو؟

قال: وكيف يكون لي عدواً، وما أعرفهم ولا يعرفوني؟

وقيل لآخر: ألا تغزو العدو؟

قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي فكيف أخب إليه ركضاً»[(١)].

إن كان هذا القول جاء على سبيل المزاح فهو

---

(١) العقد الفريد ١/١٤٤.

مقبول، وإن كان قائله لم يرد المزاح، فالأقرب أنه قول مختلق، ومركب على الأعراب. والأعراب عرفوا بأنهم رجال حرب، وأن أحدهم إذا لم يغزُ غُزي. ولا يتوقع أن يتأخر أحدهم عن الغزو لأن هذا يوجب نبذه وإبعاده عن مجتمعه.

على أي حال الفكرة طريفة، والذي يهمنا منها هو التعليل، لأن القول لم يقف عند رفض الغزو فقط، وإنما اتبع بالتعليل الطريف المساق، في كلا الحالتين. ولعل التعليل، وإعطاء السبب هما الأصل في هاتين القصتين، فطرافة التعليل والسبب أوحيا بالسؤال، وليس السؤال هو الذي جاء بالجواب. وهذا غير قليل في أدبنا وفي أدب غيرنا، فأحياناً تخطر فكرة في بال شخص، فيصوغها صياغة جميلة، ويلبسها لشخص بعينه، أو لجنس من الأجناس أو بلدة من البلدان وتسير في حقب التاريخ، وتدريجياً تضيع معالم الوضع والتدليس، فتصبح جزءاً من التاريخ، وقد لا يعترض عليها معترض في حينها، وقد يأتي المعترض بعد قرون.

وقد تبدو ظاهرة فيطلب لها التعليل، فيأتي التعليل مفاجئاً لصاحب الطلب، ولكنه ممتع للقارئ فيما بعد ومقنع. والقصة الآتية تمثل ذلك:

«قال رجل لخالد بن صفوان: ما لي، إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار، وتتدارسون الآثار، وتتناشدون الأشعار، وقع عليّ النوم؟ قال: لأنك حمار في مسلاخ إنسان»[1].

والعادة جرت أن تأتي الدعوى أولاً ثم يتلوها السبب ولكن في هذه الحالة سبق السبب والتعليل، وهذا لا يهم فقد جاء الأمر في النهاية متكاملاً، والتعليل بطبيعته مقنعاً!

ومن التعليلات المعجبة، لأن فيها خروجاً عن المألوف، وفيها طرافة أوجبت كالمعتاد تدوينها وتسجيلها في كتب الأدب، القول الآتي:

سمع رجل بمكة رجلا يدعو لأمه، فقال له: «ما بال أبيك؟» قال: «هو رجل يحتال لنفسه»[2].

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٧٠.

(٢) البيان والتبيين ٣/ ٢٨٢.

ولا يسع القارئ إلا أن يقبل هذا التعليل الذي يأتي في حدود عقل هذا الرجل، ويوجب له الاحترام والقبول لأنه جاء على مبدأ، ولأن صاحبه عنده تعليل، ولم يأت دون تفكير سابق، وإن كان هذا التفكير في إطار القصور الذي يتصف به هذا الفكر.

وقد يكون هذا القول مركباً، وأوجبت طرافته تركيبه، وقد يؤكد ذلك الخبر الآتي، الذي يشم منه رائحة العصبية من قبيلة لقبيلة، وأن واضعه أراد أن يلمس قبيلة تميم.

قال عروة بن سليمان العبدي: كان عندنا رجل من تميم يدعو لأبيه، ويَدَعُ أمه، فقيل له في ذلك، فقال: «إنها كلبية»[1].

هذه القصة لا تخلو من نبو، لأن العرب يفخرون بأخوالهم مثلما يفخرون بأعمامهم، وطيب الأخوال يلحق أبناء أختهم، ولهذا أميل إلى أن

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٨٢.

القول مركب ، والمتسبب في اختلاقه طرافة الفكرة ، وهـذا الـذي وضعهـا غلبت عليه فكرة الطرافة ، فغطت بقوتها على ما انكشف من ضعفها .

# خارج الهدف(*)

بعض الأقوال تشبه الكرة المصوبة نحو المرمى، أو مثل السهم المسدد نحو الهدف، فالكرة قد تخطئ المرمى، فتقصر عنه، أو تتعداه، أو تصدّ دونه، والسهم كذلك قد يحيد عن الهدف، أو يقع دونه، أو يقف في طريقه ترس يتقيه به صاحبه.

والقول يرسل لهدف، ويقال لغاية، له من التوقع للأصابة أو عدمها ما للكرة أو السهم، وتصاحبه الخَيبة إذا قصرت الكلمة عن هدفها، أو جاءت نابية عن موقعها، أو غريبة على محلها، فإذا حدث هذا فإنها تقع في موقع يؤذي الأذن، ويجرح النفس، وتقع كبيرة على من قيلت له، محرجة له إحراجا يكبر أو يصغر بكبرها أو صغرها.

والكلمة يُنطق بها، تخرج من ملك صاحبها، ولا يمكنه ردها، أو التحكم فيها، أو تقليل أثرها،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠١٣) في ١٩/٧/١٤١٤هـ الموافق ١/١/١٩٩٤م.

أو الحدس عن مدى تأثيرها. ولا يستطيع علاج دائها إذا وقع إلا قليل من الناس، يُوفَّقون إلى ابتداع ما يمكن أن يقابل ما عرف بشيء يوهم صاحبه أنه المقصود، حتى ولو لم يكن كذلك، والأمر في القبول أو الرفض يعود على السامع، صاحب الأمر، والمعني به.

والقول الخارج مخرجاً خاطئاً قد يكون ضرره في حدود القول مثله، وقد تكون نتيجته السخرية بصاحبه، وازدرائه، وهذا يكون فيه الجزاء محدوداً.

ولكن الأمر أحياناً لا يقف عند هذا الحد، ويتلو القول الأعوج فعل ينسي هذا القول، ويغطي عليه، لما فيه من إيلام أكثر كما حدث في القصة التالية:

وعامل الخليفة يفترض فيه أن يكون رجلاً مختاراً، ليمثل الخلافة في الإقليم الذي يحكمه، بما فيه من علماء وأدباء وأصحاب مهن وتجار وغيرهم،

ولكن الخليفة قد لا يوفق في وسيلة الاختيار ، فيأتي السهم خارج الرمية ، كما حدث مع الخليفة معاوية ابن أبي سفيان ، فقد استعمل رجلا من كلب ، فذُكر في مجلس هذا العامل المجوس ، وكان في مجمع من الناس فقال :

«لعن الله المجوس ، ينكحون أمهاتهم ، والله لو أعطيت مئة ألف درهم ما نكحت أمي» .

فبلغ ذلك معاوية ، فقال : «قاتله الله ، أترونه لو زادوه على مئة ألف فعل» فعزله[1] .

ولا تقل مخاطبة عامل الخليفة عن مخاطبة الخليفة ، وقد يكشف شخص عن عدم كفايته لهذه المخاطبة ، فيتكلم بما يجعل قوله خارج الإطار المقبول ، ويطيش بهذا سهمه ، وتتسلل كرته خارج الملعب ، بعيداً عن الهدف :

قعد قدام زياد رجل ضائعي - من قرية باليمن يقال لها ضياع - وزياد يبنى داره ، فقال له : «أيها

---

(١) البيان ٢ / ٢٦٠ ، أدب الدنيا والدين ٢٣ .

الأمير لو كنت عملت باب مشرقها قِبل مغربها، وباب مغربها من قبل مشرقها» فقال له: «أنَّى لك هذه الفصاحة؟» قال: «إنها ليست من كتاب ولا حساب، ولكنها من (ذكاوة) العقل»، فقال: «ويلك، الثاني شر»[1].

ولو كان في زمننا لقال: أردت أن تكحلها فعميتها.

وفي مثل هذه المواقف يحمد الصمت، إلا أن ما بدا من «ذكاوة» هذا الرجل لا تجعل هناك أملاً في أن يدرك مثله قيمة الصمت، ولعله، وهو القادم من بعيد - ولعل ذلك لطلب الرزق - أراد أن يلفت نظر زياد، عامل الخليفة إلى نفسه ليحظى عنده.

وقد يصيب السهم بالنسبة لشخص، وفي الوقت نفسه يخطئ مع آخر كما حدث في المحادثة التي جرت بين الجماز وأبي شراعة:

قال الجماز لأبي شراعة: «كيف تجدك؟»

---

(١) البيان ٣/ ٢٤٠.

قال : «أجدني مريضاً من دماميل قد خرجت في أقبح المواضع» .

فقال : «ما أرى في وجهك منها شيئاً»[1] .

والسهم الطائش جاء من المخبر عن حاله ، لأنه لم يحسب حساب قبيله الذي يبدو أنه صاحب أسلوب تهكمي ، أسعَفه في مثل هذا الموقف ، فسدد السهم فأصاب مقتلاً .

وأمل جار في جاره في وقت عسرة ، فخاب الأمل ، وطاش السهم ، وترك حسرة لبست في التاريخ ثوب سخرية :

قال أبو الحسن : جاء رجل إلى رجل من الوجوه ، فقال : «أنا جارك ، وقد مات أخي ، فمر لي بكفن» ، فقال : «لا والله ما عندي اليوم شيء ، ولكن تعهدنا ، وتعود بعد أيام ، فيكون ما تحب» .

قال : أصلحك الله ، فنملحه إلى أن يتيسر عندكم

---

(١) أخبار الظراف ١٥٩ .

شي ؟ ! »[1] .

إن هذا الخبر من غرابته لا يكفيه أن يوصف سهمه بالطائش فقد تعدى هذا الحد، والغريب أن هذا الـرجل موصوف بأنه من الوجوه، ولعل المقصود الوجوه اللئيمة !

وعنـدما يتحدث الناس عما يؤكل يبتعدون عما يُقِزّز، فإذا لم يفعلوا، واقتربوا من المحذور، فيعتبر التعبير خارجاً عما قصد له، ويصبح السهم طائشاً، وبعيداً عن الهدف :

قال محمد بن الجهم في هذا المجال :
«هذا الدواء الذي جئتَ به قدرُ كَمْ آخذ منه ؟ » .

قال : «قدرُ بعرة »[2] .

وواصف الـدواء وجالبه لم يجد مقياساً للجرعة غير البعرة !

ويأتي أزورار السهم عما أرسل إليه أحياناً عندما

---

(١) البيـــان ٤/١١ .
(٢) البيـــان ٤/١٢ .

يختلف الفهم، فيفهم السامع غير ما أراد المتكلم، فيأتي الرد بعيداً عن القصد، ويخرج عن الهدف المرسل إليه:

قال حمزة للكسائي: «أتهمز الذيب؟»

قال: «لو همزته أكلني»[1].

وعلى هذا النسق أجاب أعرابي سائله على الفطرة، فجاء الجواب بعيداً عما قصده السائل:

قيل لأعرابي: «أتهمز الفارة؟»

قال: «إنما يهمزها السنور»[2].

ويجتهد الإنسان فيركز ذهنه على أمر، ويغفل عن بعض الجوانب التي لو أدرك بعدها لجفل منها، وتراجع تراجع الخائف المرتعب، ولكنه، في اندماجه فيما جعله همه الأول في الأمر الذي هيأ نفسه للقيام به، يغفل عما قد يدركه الناس فور النطق به:

ورد على زبيدة شاعر وُصف أنه من غثات

---

(١) بهجة المجالس ١/١٠٤.

(٢) بهجة المجالس ١/١٠٤.

الشعراء ليمتدحها فقال :

أزبيـــدة ابنـــة جعفـــــر
طــوبـى لشــاعرك المثـاب
تعطـــين مــن رجليـك مـا
تعطي الأكف من الرغاب

فهم به الحشم ، فقالت : لا تفعلوا ، فإنه إنما أراد الخير فأخطأه ، ومن أراد الخير فأخطأ أحبّ إلينا ممن أراد الشر فأصاب ، وإنما أراد أن يربى على قول الشاعر :

شمالك أجود من يمين غيرك
وقفاك أحسن من وجه سواك

فظن أنه إذا ذكر الرِّجلين أبلغ في المدح .

فأمرت له بجائزة[1] .

وزبيدة أثبتت أنها امرأة عاقل ، لم تستثرها غلطة ارتكبها مجتهد ، وكان خلقها أقرب إلى أن يجد

---

(١) الدرر الفرائد ١/١٩٠١ .

الطريق المقنع لعذر صاحب الخطأ، والتعليل لما زلّت قدمه فيه، وتعليلها الذكي دل على ثقافة واسعة، وإدراك للمدح وأبوابه. ويتبين عقلها في أنها صرفت الشعر إلى وجه حسن، ولو لم تفعل لكان الشعر على الألسنة تلوكه، وتفسره بما فهمه الخدم والحاشية، ولكنها تنبهت، وهي صاحبة المقام الرفيع، والتربية الراقية، ومن يعْنِيها الأمر ويخصّها، فحولت مجرى الأمر إلى ما أصبح معه محمدة لا مذمة.

والرمية ترسل للهدف فتخطؤه قد تكون النتيجة فيها مؤلمة أشد الإيلام، ويترتب عليها أمور كبرى، تأتي بضرر عظيم، ويقع بسببها من الإثم والأذى ما لا يمكن تداركه، وقد حدث هذا كما يروى الأصبهاني في كتاب «أفعل»:

«إن سليمان بن عبدالملك كتب إلى ابن حزم، عامله على المدينة، أن يحصي المخنثين الذين بالمدينة، بالحاء المهملة، أي أن يعدهم ليرى فيهم رأيه، فوقع للكتاب نقطة على الحاء، فصيرتها

خاءً ، فلما وصل الكتاب إلى ابن حزم ، خصاهم من ساعته»[1] .

ويخطئ جاهل في التفكير والتعبير ، فيصف عملاً رديئاً بما لا يوصف به ، ويَدَّعي على الله ما يدل على جهله بما أعده الله له من استدراج ، يمسك فيه بجرمه ، ويعاقب عليه :

قال أبو الحسن : «كان شظاظ لصاً ، فأغار على قوم من العرب ، فاطّرد نعمهم ، فساقها ليلته حتى أصبح ، فقال رجل من أصحابه لقد أصبحنا على قصد من طريقنا ، فقال : «إن المحسن معان»[2] .

ولقد أعان الله الحجاج على شظاظ ، فأمسك به وصلبه ، ولقي جزاءه ، وعلم بهذا ما جهل .

وعرف عن الحجاج أنه فصيح ، تعجبه الفصاحة ، وتقوم عنده مقاماً كريماً ، وطالما عفا عن مُذنبين لفصاحتهم وحسن بيانهم ، حتى أنه عتب على من سبق

(١) تحفة العروس ٢٤٧ ، راجع «الديارات» ٨٤ أيضاً وكذلك ٨٧ .
(٢) البيـان ٢ / ٣٢١ .

إليه السيف كيف لم يوفقوا إلى ما وفق إليه أحدهم :

«ضرب الحجاج أعناق أسرى ، فلما قُدم رجل لضرب عنقه ، قال : والله لئن كنا أسأنا في الذنب ، فما أحسنت في العفو ، فقال الحجاج : أف لهذه الجيف ، أما كان فيها أحد يحسن مثل هذا الكلام ، وأمسك عن القتل»[1] .

إلا أن الحجاج في موقف آخر لم يؤثر فيه قول فصيح قاله أحد الأسرى ، وطاش السهم عن المرمى فيه :

من الخطباء أيوب بن القرّيّة ، وهو الذي لما دخل على الحجاج قال له : ما أعددت لهذا الموقف؟ قال : «ثلاثة حروف ، كأنهن ركب وقوف : دنيا وآخرة ومعروف» . ثم قال له في بعض القول : «أقِلْني عثرتي ، وأَسِغْني ريقي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، وللسيف من نبوة ، وللحليم من هفوة» .

قال : «كلا والله حتى أوردك نار جهنم» .

---

(١) البيان ١/٢٥٩ ، تمام المتون ٩٦ .

ألست القائل برستقاباذ : «تغدّوا الجدي قبل أن يتعشّاكم ؟»[1] .

السهم طاش هذه المرة عن الهدف ، رغم العناية بتصويبه ، والنية في تجويده ، إلا أن ابن القرّيّة يبدو أنه قد نكأ جرحاً عميقاً في نفس الحجاج ، لم تستطع فصاحته أن تفيد فيه ليندمل ، وإذا كان الحجاج قد عفى عن آخرين دخلوا ضمن فتنة ، لم يكونوا فيها بارزين ، فإن ابن القرّيّة متفرد بأقوال لعلها في يوم من الأيـام قد أقضّت مضجـع الحجاج ، فما نسي آلامها ، ومايزال يذكر ما قد كان من الممكن أن تأتي به لقوتها ، وكلمة «تغدوا بالجدي قبل أن يتعشاكم» كلمـة فصيحـة لا يعرف تأثيرها إلا الفصحاء من أمثال ابن القرّيّة والحجاج .

وأخـطأ سهم أعـرابي أراد الكسب فجـاءتـه خسـارة ، وهدف إلى سعادة فباء بشقاء ، وأمل في خير فوقع في شر ، وظن أنه أدخل يده في كنز ، فتبين

(١) البيـان ١ / ٣٥٠ .

أنه أدخلها في فم أسد أو بين فَكّي حية ، والقصة تجري هكذا :

دخل أعرابي على الحجاج ، فسمعه يقول : لا تكمل النعمة على المرء حتى ينكح أربعَ نسوة يجتمعن عنده ، فانصرف الأعرابي ، فباع متاع بيته ، وتزوج أربع نسوة ، فلم توافقه منهن واحدة : خرجت واحدة حمقاء رعناء ، والثانية متبرجة ، والثالثة فارك ، (أو قال فروك) ، والرابعة مذكرة .

فدخل على الحجاج فقال : أصلح الله الأمير ، سمعت كلاماً أردت أن تتم لي به قرة عين ، فبعت جميع ما أملك ، حتى تزوجت أربَعَ نسوة ، فلم توافقني منهن واحدة ، وقد قلت فيهن شعراً ، فاسمع مني ، قال : قل ، فقال :

تزوجت أبغي قرة العين أربعاً
فياليت أني لم أكن أتزوج
وياليتني أعمى أصم ولم أكن
تزوجت بل يا ليت أني مخدّج

فواحــدة مـا تعـرف الله ربهـا
ولا ما التقى تدري ولا ما التحرج
وثـانيــة مـا إن تقـرّ ببيتـها
مـذكــرة مشــــهورة تتــبرج
وثالثـة حمقـاء رعنـاء سخيفة
فكل الذي تأتي من الأمر أعوج
ورابعـة مفـروكـة ذات شــرة
فليست بها نفسي مدى الدهر تبهج
فهـنّ طـلاق كلهـن بـوائـن
ثلاثاً ثلاثاً فاشهدوا لا تلجلجوا

فضحك الحجاج حتى كاد يسقط من سريره، ثم قال له: «كم مهورهن؟»

قال: «أربعة آلاف درهم» فأمر له بثمانية آلاف درهم[1].

ولعل تدارك إصابة السهم من الحجاج قد دهنت

(١) بهجة المجالس ٣/٣٤.

نفس الأعرابي بما أزال عنه آثار كربة التجربة ، التي خرجت عن الهدف ، وقصرت عن أن تنيله مطلوبه في ضوء نصيحة الحجاج ، التي يبدو أنه شعر تجاهها بأنه غارم .

# زمــام الكلمــة(*)

«كم من كلمــة قالت لصــاحبهـا دعني» كلمة صادقة على كثير من الأقوال، التي يتلفظ بها بعض الناس، وتكون خارجة عن خط الصواب، ويندم عليها صاحبها، ويتمنى أن يستردها، أو يتمنى لو أنــه ما قالهــا. وليس هنــاك إنســان لم يمر به هذا الموقف، إما ناطقاً ومنتَقِداً، أو سامعاً ومنتَقَداً.

والمرء أحياناً يقع في هذا الموقف لأنه أخرق، ولا يدرك مدى بعد الكلمة التي رماها، عن المرمى، ولا مدى الضرر الذي أحدثته، ولا الأحراج الذي تسببت به، أو أنــه استعجــل ونــطق قبل أن يزن الرد، أو يمرره على بوتقة الفحص والنقد، أو أن جمال الرد، ومطابقته للموقف من الأغراء بحيث إن المتكلم جازف بعلم وبإصرار، ولا يهمه عاقبة ما نطق به. وهذا الموقف الأخير قاهر لا يستطيع المرء

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٢٠) في ١٤١٤/٧/٢٦هـ الموافق ١٩٩٤/١/٨م.

مقاومة الإغراء فيه، بدليل أن أي إحراج أو جزاء قد يأتي لصاحب الكلمة بسببه يصغر ألمه عند لذة الرد الذي أطلقه صاحبه.

والقول الخاطئ، أو الرد المحرج، يأتي في الدرجة الثانية من الملامة لصاحبه، ويسبقه في الحساب والعتاب واللوم القول الذي يأتي ابتداء وليس رداً، كأن يسأل المرء سؤالاً يأتي الرد عليه دامغاً يتمنى معه صاحب السؤال أنه لم يسأله، أو أن الأرض، وقد سأله، ابتلعته، لأن هذا النوع يسبقه التعدي والتحرش والاستعلاء، واستصغار القبيل، وتعمد العداء، وهي أمور مرذولة، ومستهجنة.

وفي الأدب العربي مواقف مسجلة تعطي صوراً من الحالات التي لا يسع الإنسان عند ما يقرؤها إلا أن يقول: «كم من كلمة قالت لصاحبها دعني». وهي وإن كانت تسجل موقفاً يمثل هذه الحالة إلا أنها تعطي فكرة عن مجتمع ذلك الزمن، بما تكشفه من جوانب اجتماعية، وصلات بين الأشخاص،

وما في زمنهم من أمور يهمنا أن نعرفها ، وهي لا تأتي إلا عن طريق الصدفة ، وضمن قصص لم يؤت بها لها عمداً .

وإذا كانت الكلمة تنصب على القول في هذه الجملة ، فإن بعض الأعمال ينطبق عليها هذا القول ، فبعض الأفعال مثل الكلمات بعد أن يفعلها بعض الناس ، يقول صاحبها ، أو من له صلة بها : ليتني لم أعملها ، والمواقف في هذا أيضاً يختلف فيها الناس مثلما يختلفون في مواقف الأقوال . ومن المفيد أن يعرف أبناء اللغة العربية ما في تراثهم من هذا الشيء ، قولاً أو فعلاً ، فيستفيدوا مما مر بآبائهم وأجدادهم من مواقف ، يمكنهم أن يتفادوا الوقوع فيها . والتجارب إذا عرف عنها اللاحقون من السابقين فإنها توفر عليهم وقتاً وجهداً ، وتعفيهم من مواقف ألم يقعون فيها ، ويحمدون الله على أن من قبلهم ضحى من أجلهم ، دون قصد ، وعانى مما لم يعانوا منه .

ولعل من المناسب أن نختار نصاً يوضح هذا، ويكـون عن شخص جدير أن تأتي منه الحكمة، ويصدر قوله عن عقل، ويتصرف تجاه ما يطرأ عليه، أو يفـاجـأ به، بما يتصف به من قيـادة لقـومـه، وبـالميزات التي جعلتهم يختارونه لرئاستهم، وهو رجل له سمعة جعلت النصوص التي تشير إلى أقواله ومـواقفـه في الأدب العـربي لا تكاد تحصى، وهو الأحنف بن قيس. وقد عاش بسمعة مضيئة في فترة عصيبة من فترات خطو الإسلام، وحكمه وحكامه :

قال رجل للأحنف : «بأي شيء سدت تميماً؟ فوالله ما أنت بأجودهم، ولا أشجعهم، ولا أجملهم، ولا أشرفهم!» قال : «بخـلاف ما أنت فيه». قال : «وما خلاف ما أنا فيه؟» قال : «تركي ما لا يعنيني من أمور الناس كما عناك من أمري ما لا يعنيك»[1].

لو أن السائل اكتفى بأول السؤال، وقال : «بأي

---

(١) الامتـاع ٣/١٧٣.

شيء سدت تميماً؟» لرد عليه الأحنف رداً يشفيه، ويكفى سؤالـه من الفـائدة، إلا أنه أردفه بجملة استفـزت الأحنف، فاختـار الرد الذي لا يسمعه عاقل إلا ويقول: «كم من كلمة قالت لصاحبها دعني»، فالأحنف وصمه بصفة متدنية كان في غنى عنها، إلا أن رداءة العقل تجلب لصاحبها الشقاء.

وفي القصة التالية يأتي الأمر من غير ما احتسب صاحبه، وظنه أنه يحسن فيما فعل، وتبين أن هذا الاحسان هو ما جاء له بخلاف ما يريد، ولم نكن نحن من يقول له: كم من كلمة قالت لصاحبها دعني»، ولكن لا بد أنه قالها هو. ويبدو أن الذي خانه ليس القول وإحسانه، ولكن النية التي لا بد أنها لم تكن سائرة في وجه القبول، فعادت عليه بما لم يرغبه:

كتب زياد بن عبدالله الحارثي إلى المنصور يسأله الزيادة في عطائه وأرزاقه، وأبلغ في كتابه، فوقع المنصور في القصة: «إنّ الغِنى والبلاغة إذا اجتمعا

في رجل أبطراه، وأمير المؤمنين يشفق عليك من ذلك، فاكتف بالبلاغة»[1].

وفي بعض المواقف رغم أن الرد ليس حاداً إلى الدرجة التي يندم عليه قائله ندماً كبيراً، إلا أن المتبصر يجد أن البادئ بالأمر لو عرف أن هناك مثل هذا الرد لما ابتدأ القول، والحالات التي مثل هذا كثيرة وهي تدخل ضمن موضوعنا هذا، فمثلاً:

قال أبو الزناد لابن شبرمة في مناظرته له: «من عندنا خرج العلم». فقال ابن شبرمة: «ثم لم يعد إليكم»[2].

ولا يستغرب أن يأتي هذا الرد من ابن شبرمة، ولم يفاجئ بسرعة هذه البديهة، فابن شبرمة ما أهله للقضاء إلا علمه وذكاؤه، وهو ما لم يحسب أبو الزناد له حساباً.

وهذه الردود الحاذقة يبدو أنها توحي في بعض الأحيان لبعض الأشخاص، الذين يتعصبون لبعض

(١) البخلاء للبغدادي ٦٦.
(٢) بهجة المجالس ١/٩٧.

الفئات بقصص يضعُونها، لترجح كفة على كفة، وتبين فضل قوم على قوم، أو لتضعف من سمعة علت وارتفعت عن أناس يزعجهم أن يكون لهم هذا الصيت والسمعة. فمثل القصة الآتية توحي بشيء من هذا:

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب:

ما أبين الشبق في رجالكم يا بني هاشم! قال: «لكنه في نسائكم يا بني عبد شمس أبين»[1].

لو صح أن هذا حدث فعلاً فلا بد أن معاوية ندم على ما قاله، ولكن الراجح أنه لم يقله، وأن عقيل لم يكلف بالرد، وإنما هي فكرة طرأت على ذهن مؤلف القصة ليرجح جانب عقيل، فاستفاد من أسلوب الندم في ضوء الكلمة التي تقول: «كم من كلمة قالت لصاحبها دعني».

وسيطرة الفكرة عندما تتبلور في ذهن الواضع تجعله يسارع إلى إتقان جوانبها، وسبكها سبكاً

(١) بهجة المجالس ١/٩٧.

مقنعاً، مستفيداً من بعض حوادث التاريخ، أو ما عرف عن بعض الأشخاص، أو القبائل أو الفئات، وموائماً بين بعض الحوادث الحقيقية الوقوع، فيأتي بفكرته فتبدو لغير المتمعن أنها صحيحة. فهناك قصة ذكرها الجاحظ، رغم أنه شكك في صحتها، ولكن لجاذبيتها، وانطباقها على السمعة التي عرفت عن بني نمير، أوردها، وقوتها رغم الشعور بأنها موضوعة جاءت من أنها ارتكزت بقوة على ما شهر جرير به بني نمير، وزاد عليها أن عضدها بآية من القرآن مما أظهر المرأة بمظهر القوة الفكرية التي تغلبت على ما بدر من الرجال الذين اعتمدوا على قوة الجنس، وأن الرجل عموماً أقوى موقفاً من المرأة.

يقول الجاحظ: ما علمت في العرب قبيلة لقيت من جميع ما هجيت به ما لقيت نمير من بيت جرير، ويزعمون أن امرأة مرت بمجلس من مجالس بني نمير، فتأملها ناس منهم، فقالت: «يا بني نمير، لا قول الله سمعتم، ولا قول الشاعر أطعتم»، قال

الله تعالى : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾[1] ، وقول الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا[2]

والجاحظ أبدى شكه عندما قال : «زعموا» ، ثم عقب على سرد هذه القصة بقوله :

«وأخلق بهذا الحديث أن يكون مولداً ، ولقد أحسن من ولّده» .

فالجاحظ ساقه لإتقان التوليد ، وطرافة القصة ، وبعد خيال مؤلفها ، واعتنائه في جمع موادها من هنا وهناك ، حتى جاء بها موهمة ، مما يجعل المرء يقول : لقد تغلبت امرأة على عدد من الرجال رغم ضعفها في جنسها ، وقوتهم وعددهم . وعلى هذا فكم نظرة قالت لصاحبها دعني .

ومن القصص التي تروى عن الحجاج ، وما يروى عن الحجاج يحتاج إلى تمحيص ، لأن الوضع

(١) سورة النور : آية ٣٠ .
(٢) البيـان ٤/٤٦ .

عليه كثير، وبطرق شتى، فإذا صحت القصة فقد جلب الحجاج لنفسه الموقف الذي انتهت إليه المجادلة التي قامت بينه وبين أحد الحُجاج :

قال زيد بن عمرو : سمعت طاووساً يقول : بينا أنا بمكة إذ دفعتُ إلى الحجاج بن يوسف، فثنى لي وساداً، فجلست، فبينا نحن نتحدث إذ سمعت صوت أعرابي في الوادي رافعاً صوته بالتلبية، فقال الحجاج : «عليّ بالملبي»، فأتي به، فقال : «ممن الرجل؟» قال : «من أفناء الناس» قال : «ليس عن هذا سألتك». قال : «فعمّ سألت؟».

قال : «من أي البلدان أنت؟» قال : «من أهل اليمن» قال له الحجاج؛ «فكيف خلفت محمد بن يوسف؟» - أي أخاه - قال : «خلفته عظيماً جسيماً خرّاجاً ولاّجاً». قال : ليس عن هذا سألتك». قال : «فعم سألتني؟» قال : «كيف خلفت سيرته في الناس؟». قال : «خلفته ظلوماً غشوماً عاصياً للخالق، مطيعاً للمخلوق».

فازورّ من ذلك الحجاج، وقال: «ما أقدمك على هذا وأنت تعلم مكانته مني؟» فقال له الأعرابي: «أفتراه بمكانة منك أعزّ مني بمكانتي من الله تبارك وتعالى، وأنا وافد بيته، وقاضي دينه، ومصدق نبيه ﷺ» فوجم لها الحجاج، ولم يُحِرْ جواباً، حتى خرج الرجل بلا إذن[1].

وكثيراً ما يخرج الغضب صاحبه عن طوره، فيتلفظ بألفاظ لا تليق بمقامه، ولا مقام من وجه إليه سحاب الغضب ومطره، فيندم بعد أن يفرغ الشحنة التي ملأت صدره، فانفجرت دون مقود يسيطر عليها، حينئذ لا ينفع الندم، ولا يرد ما فات، والاقرار بالخطأ، ومد حبل الاعتذار، سوف يقلب الأمر رأساً على عقب، فيصبح القوي ضعيفاً، والسيد مملوكاً، والبادئ ظالماً ملاماً، والقصة الآتية تري مثل هذا النوع من الغضب الذي وصف بأنه ريح تهب على سراج العقل فتطفؤه:

(١) نوادر القصص ٢٩، وربيع الأبرار ٢/٦٠٢.

«حضر جنادة مجلس الصاحب إسماعيل بن عباد بشيراز، وهو شعث الزيّ، ذو أطمار رثّة وسخة، فجلس قرب الصاحب، وكان مشغولاً، فلما بصر به قطب، وقال: «قم ياكلب من ههنا» فقال له جنادة: «الكلب هو الذي لا يعرف للكلب ثلاث مئة اسم»، فمد عند ذلك الصاحب يده، وقال: «قم إلى ههنا، فما يجب أن يكون مكانك حيث جلست»، ورفعه إلى جانبه»[1].

وعود البخور، إذا لم يعرفه من يميزه عن الخشب العادي، فهو عود من جملة الأعواد، ولكنه عندما يشم يتبين في رائحته ما لم يتبين في شكله. وجنادة بمجرد أن اختار كلمة الشتم التي سمعها، فجعل رده على الإهانة منطلقاً منها، وضع عود الند على جمرة أبانت فضله على بقية الأخشاب.

والأدباء في زمن الأمويين والعباسيين كثيراً ما يقعون في مواقف محرجة، نتيجة ردود مفاجئة لم

---

(١) هامش معجم الأدباء ٧/ ٢٠٩.

يتوقعوها ، من أناس ظنوا أنهم في عقلهم أقل مقدرة منهم ، فيتحرش الأدباء بهؤلاء الناس سواء كانوا أعراباً أو أصحاب مهن ، وقد وقف الأصمعي موقفاً من هذه المواقف مع كناس ، لعله احتقره ، وقد قاده إلى ذلك بريق ما فكر فيه في ضوء البيت الذي سمعه :

قال الأصمعي : «مررت بكناس في بعض الطرق وهو ينشد :

وأكرم نفسي إنني إن أهنتها
وحقّك لم تكرُم على أحد بعدي

فقلت : «عن أي شيء أكرمتها ، وهذه الجرة على رقبتك ؟» فقال : عن الوقوف على باب مثلك»[1] .

ولا بد أن الأصمعي ندم على قوله ، وسماع هذا الرد ، ولعل نقله لهذه الحادثة جاء تنفيساً عما يعتمل في نفسه من الخجل من موقفه . إلا إذا كان هذا

(١) البصائر ٦/٢٤٣ ، لاحظ السقطة التي سقطها الشاعر عندما قال : «وحقك» حالفاً بغير الله - سبحانه وتعالى - .

مركباً، وموضوعاً، مثل كثير من الأخبار، على مشجب الأصمعي المسكين.

وشر مواقف الخطأ ذلك الذي يكون بحضور شهود، يشمتون بما رأوا، ويروونه، وقد يزيدون فيه، وينقصون ما يفيد صاحبه. والقصة التالية تعطي صورة من ذلك، ويتوفر فيها عنصر الإبتداء والمحارشة:

قال الطلقاني: «كنا عند ابن منارة الكاتب، وعنده ابن المرزبان، فدخل أبو العيناء، فقال ابن المرزبان: «أريد أن أعبث به». فنهاه ابن منارة، فلم يقبل. فلما جلس، قال له: «يا أبا عبدالله، لِمَ لبست جُباعة؟» قال: «وما الجباعة؟» قال: «التي ليست بجبة ولا درّاعة».

فقال أبو العيناء: «ولم أنت صفديم؟» قال: «وما الصفديم؟» قال: «الذي بين الصفعان والنديم». فوجم لذلك، وضحك أهل المجلس»[1].

---

(١) البصائر ٦/٢٣١.

وأمثال هذه الموقف كثير مما يبدؤه البادىء ظناً أن الميدان له، وأنه صاحب الجولة وكاسبها، فيفاجأ بما لم يخطر له على بال، مما يجعله، هو أو من حوله، يقول: «كم من كلمة قالت لصاحبها: دعني».

# الحيوان الأعجم ينطق(*)

القصص على ألسنــة الحيـوان تغص بها كتب الأدب في اللغات المختلفة ، فليس هناك لغة تخلو من عدد يكاد لا يحصى من الحكايات التي تدور على ألسنة الحيوانات ، وتختار الأمم من الحيوانات ما هو متواجد فيها ، وتنطلق في تأليف القصة عنه حسب معتقـد هذه الأمم في الحيـوان نفسه ، من خير أو شر ، قوة أو ضعف ، ذكاء أو غباء ، فتنسج في ضوء ذلـك القصـة التي يكون هدفها التسلية أو العظة والحكمة ، وكثير منها هي قصص لتقريب النوم لعين الطفل ، وتطويع عينه له ، وجعله ينام على صورة مفرحة مبهجة ، إذا كانت الأمة متحضرة متمدنة ، وعلى صورة الحرب ، ومظاهر الشجاعة إذا كانت الأمة صحراوية أو جبلية مقاتلة .

وتتفاوت القصص والحكم التي تقال على ألسنة

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٢٧) في ٤/٨/١٤١٤هـ الموافق ١٥/١/١٩٩٤م .

الحيـوانات بين البساطة والتعقيد، وبين الضحالة والعمق، ولهـا أدبهـا الخـاص بها. ولعـل قصص الحيـوان، ومـا يُلبس عليهـا من أقـوال الإنسـان وأفعاله، قديمة قدم بدء الإنسان في التجمع، ولعل الحيوان نفسه أيضاً بمظهره وتصرفه أوحى للإنسان بأن ينسج على ما يراه منه ما هو من طبيعة الإنسان فإن كان مكـراً فالثعلب خير مثـال، وإن شراسة فالذئب لذلك، وهكذا.

والأدب العـربي مليء بقصص الحيوان، مجمعة ومنتشرة، كل جيـل ينسـج ما يوافق جيله، وكل مجتمع يصوغ ما يناسب مجتمعه. ولعل من أبرز الكتب في اللغـة العـربيـة، سواء كان مترجماً أو مبتدعاً، كتاب كليلة ودمنة، وهو كتاب فريد في نوعه، عميق في مرماه، مهم في موضوعه، غريب في نسْجـه، جذاب في أسلوبـه، جمع من الحكم أهمها، وعالج أمور السياسة والملك، وكشف عن طبائع البشر ومجراها، وجاء بكل شاردة وواردة مما قد يأتي به الخير، أو يجلبه الشر، في محيط المجتمع

الذي رسمه ، وقصد أن يعالج فيه أموراً رأى أنها تستحق ، وأنه يمكن أن يبرز فيها ما هو في صلاح المجتمع . وقد أجاد عبد الله بن المقفع في عمله هذا ، وأحسن في اختيار الحيوانات في ضوء ما عرف عنها من طبيعة ، فألبس كل واحد منها اللباس الذي يليق به ، وأعطاه الدور الذي يتماشى مع عرف المجتمع عنه ، وحرك الحيوانات بكفاية ومقدرة على المسرح الذي أقامه . هذا إذا لم يكن الكتاب مترجماً كما هو الظن .

ومن قرأ الأدب العربي في الجاهلية والإسلام يجد أن العرب كثيراً ما ألبسوا الحيوان ثوب الإنسان ، في تسميته ، ولقبه وكنيته ، وكثيراً ما نسجوا من القصص الخيالية ما جعل حيواناً متوحشاً أو أليفاً أو طيراً يقوم بما هو من طبيعة الإنسان ، وكسبوا من هذا موعظة ، أو إرشاداً ، أو حكمة ، أو خرجوا بطرفة ملأت فراغ الوقت ، وما أكثره عندهم ، فهو كثير وقت الربيع الخصب ، والأشهر الحرم ، وأوقات الهدنة ، أو وهم في طريقهم راحلين من مقرهم في الشتاء إلى مقرهم في الصيف ، أو في

انتقالهم من روضة إلى روضة، أو وهم في طريقهم إلى معركة، أو غارة سلب ونهب، أو وهم في رحلة للبحث عن إبل ندت، أو غنم صدت، أو وهم في مرعى ومنتجع. ولا ينافس في ملء وقت فراغهم قصص الحيوان إلا القصص عن الإنسان، أو الحداء أو القصيد.

ولم يكتفوا بربط الحيوان بالإنسان، وإنما ربطوه بالجن، وبالسعالي وغيرها مما لا يُرى أو يعرف معرفة حقيقية، وفي جزيرة العرب دخل الذئب وابن آوى والضبع والجمل والحصان والعنز والغزال والضب كثيراً من القصص، وأصبحت قصصهم مادة دسمة، فهناك «أم العنزين» و «خضير» مثلاً، وهناك غيرهما مما لا يكاد يحصى.

وهناك مرحلة بين مرحلتين فلا الحيوان يبقى حيواناً وليس هو إنساناً، ولكنه يقوم بعمل يدل على ذكاء يقرب من الإنسان ويستغرب من حيوان، فهو يؤاخي الإنسان، ويسايره رغم أنه متوحش، ولكنه لا يضر به، وقد يحميه وقد يساعده، وقد يأتي بها لا

يأتي به الصديق. والخيال في هذا يجمح جمحات واسعة المساحة، ولكنها متقنة، خاصة إذا قرنت بطريقة أو أخرى بالجن، حتى لا يكاد الإنسان يرى الصنعة فيها، أو التزييف في أجزائها.

والعربي في خياله الجامح، ومع ذهنه الصافي، يأتي بما هو بديع، فهو يفسر نظرة جمله أوناقته، في ضوء ما يعرفه عن أخيه أو حبيبته، فيرى في نظرة الجمل نظرة الأخِ المعاتب، إذا حمّله ما لا يطيق وفي نظرة الناقة نظرة الحبيبة المشتاقة أو المتشكية، إذا طال مقامه عن أهله ومقر إقامته، ويسمع في رغاء البعير نغمة يعرفها من الإنسان، وهكذا يأخذه الخيال، ويشعر أنه حر في شطحاته، لا محاسب له، ولا مدقق.

ونظرة عجلى على ما في تراثنا مما دون عن الحيوان، وما ألبسه الإنسان له من ثوب مستعار، تعطي فكرة عن نظرة العربي إلى هذا الجانب، وما سأورده من ذلك يقتصر على نماذج جاءت عفواً، ولم تختر اختياراً، لتعطي فكرة عن بعض الجوانب في

نظر العربي إلى الحيوان، واستفادته منه للغرض الذي أراد خدمته، أو الحكمة التي أراد تثبيتها وبثها. وهذه قصة عن الطير، وكيف وقع في ورطة، وخرج منها:

أولم طير فأرسل رسله ليدعو إخوانه، فغلط بعض الرسل فجاء إلى الثعلب فقال: أخوك يقرأ عليك السلام، ويسألك أن تتجشم العناء إليه في يوم كذا، وتجعل غداءك عنده، فقال الثعلب: قل له: «السمع والطاعة».

فلما رجع وأخبر الطير بغلطه. اضطربت الطيور من ذلك، وقالوا له: «يا مشؤوم أهلكتنا، وعرضتنا للحتف، ونغصت أمرنا علينا».

فقالت القنبرة: «إن أنا صرفت الثعلب بحيلة لطيفة، ما لي عندكم؟» قالوا: «تكوني سيدتنا، وعن رأيك نصدر، وعلى أمرك نعتمد». فقالت: «مكانكم»، ومشت إلى الثعلب، فقالت له: «أخوك يقرأ عليك السلام ويقول: غداً يوم

الاثنين، وقد قرب الأنس بحضورك، فأين تحب أن يكون مجلسك؟ مع الكلاب السلوقية، أم الكلاب الكردية؟»، فتجرعها الثعلب، ثم قال: «أبلغي أخي السلام، وقولي له: والله أنا مسرور بقربك، شاكر لله - سبحانه - على ما منحني من مكانك، ولكن تقدم لي نذر، منذ دهر، بصوم الاثنين والخميس، فلا تنتظروني»[1].

والقصة تشبه ما يوضع على ألسنة الناس، فالناس يقع أحدهم في خطأ، يقلقه، ثم يلجأ إلى من هو أذكى منه، فيحتال في إزالة الخطأ، وقد أبرزت القصة القنبرة أنها أذكى الطير، واحتالت بحيلة تدل على ذهن صاف، وتفكير سليم. وقد أرت القصة مجرى التفكير في هذا العمل، وأرت عناصر تكامل القصة.

وتسبك الحكمة سبكاً متقناً في القصة التالية:

لقي كلب كلباً في فمه رغيف محرق، فقال:

---

(١) البصائر والذخائر ١/ ٢٣٥.

«بئس هذا الـرغيف ما أرداه». فقال له الكلب الـذي في فمـه الـرغيف: «نعم، لعن الله هذا الرغيف، ولعن من يتركه قبل أن يجد ما هو خير منه»[1].

وهذا على نسق: «طير في اليد ولا عشرة فوق الشجرة»، وقد صور لهذه الحالة خير صورة في هذه القصة. والتصرف بعقل من حيوان فيه تأثير على الإنسان أكثر مما لو كان القائل إنساناً؛ فمجيؤه على لسان الحيوان يجعله من الأمور المسلم بها، التي لا تقبل الجدل، ومن شك فيها احتاج إلى أن يختبر عقله.

وإذا قورنت القصة السابقة بالقصة الآتية التي جاءت عن الإنسان، وعلى لسانه، رجح الحيوان في القصة السابقة على الإنسان في القصة الآتية:

«حكي أن بعض الأرقاء كان عند مالكٍ يأكل

(١) الكشكول ١/١٩١.

الخاص، ويطعمه الخشكار، فاستنكف الرقيق من ذلك، وطلب البيع، فباعه، فشراه من يأكل ويطعمه النخالة. فطلب البيع، فباعه، فشراه من لا يأكل شيئاً، وحلق رأسه، وكان في الليل يجلسه، ويضع السراج على رأسه بدلاً عن المنارة، فأقام عنده، ولم يطلب البيع. فقال له النخاس: «لأي شيء رضيت بهذه الحالة عند هذا المالك؟» فقال: «أخاف أن يشتريني في هذه المرة من يضع الفتيلة في عيني عوضاً عن السراج»(١).

وهكذا تتأكد الحكمة: «القناعة كنز لا يفنى»

والقصة التالية جميلة ومعبرة، وتأخذ باللب، ففيها صفاء ذهن، وفيها عمق تفكير، وحسن اختيار لأفراد القصة، والمسرح معدٌّ إعداداً متقناً، وحوادثها تجري هكذا:

رأت الضبع ظبية على حمار، فقالت: «إردفيني على حمارك، فأردفتها»، فقالت: «ما أفره حمارك!»

(١) الكشكول ١/٣٢١.

ثم سارت يسيراً، فقالت: «ما أفره حمارنا!» فقالت لها الظبية: «إنزلي قبل أن تقولي ما أفره حماري، وما رأيت أطمع منك!»[1].

وقد اختيرت الضبع للجانب السيء من العمل والحوار، لأنها قبيحة مكروهة، واختيرت الظبية للجانب المضيء من التمثيلية، لأنها جميلة ومحبوبة، وقد مثلت القصة رذيلة الطمع خير تمثيل، ومثلت كذلك نكران الجميل. والإقرار بالمعروف ومراعاة صاحبه فضيلة محمودة معتبرة. وأرت صفاء النفس في جانب، وإظلام النفس في جانب آخر.

والعرب تمثل ببعض الحيوانات، وتتقن التمثيل، وترمز فيما تأتي به إلى معان عميقة، وأفكار بعيدة، وهي بهذا تعرض فضائلها، ومدى التزامها بها، ومراعاتها لها، والقصة الآتية تبين شيئاً من هذا:

قالوا: شتم جدي على سطح ذئباً مرّ تحته، فقال

(١) الكشكول ١/٣٣٧.

الذئب : «لم تشتمني أنت، وإنما شتمني مكانك»[٢] .

إن كلمة الذئب كلمة حق ، فلولا ارتفاع مكان الجدي لما تجرأ على شتم الذئب ، عدوه اللدود .

وتـأتي القصـة على لسان الحيوان أحياناً لتفسير بعض الظواهر المبهمة حوله ، أو لتعليل بعض ما يبدو في تركيبه من غرائب . فمثلا يفسرون التاج الذي على رأس الهدهد بأنه ثواب من الله تعالى على ما كان من بره لأمه ؛ لأن أمه لما ماتت جعل قبرها رأسه ، وعلى حد تعبيرهم : فتلك القنزعة عن تلك الوهدة ![١] .

وبرّ الوالدين فضيلة لا ينافسها فضيلة ، ويأتي الحث عليها بشتى الصور الممكنة ، وشتى الوسائل المقنعة والمؤثرة ، ولا غرو أن تكون القصص التي على لسان الحيوان ، أو مرتبطة به ، من تلك الوسائل

---

(٢) الكشـــكول ٢ / ٢٩٤ .

(١) الحيـــوان ٣/ ٥١٠ .

المختارة. فهي تؤدي الغرض وتزيد في التأثير عما يوضع على لسان الناس.

ومثلما عللوا في القصة السابقة عن وجود القنزعة على رأس الهدهد، عللوا لتسمية النعامة بالظليم، فقالوا: «إن النعامة ذهبت تطلب قرنين، فرجعت مقطوعة الاذنين، فلذلك يسمونه (ذكر النعام) الظليم، ويصفونه بذلك»[1].

وهو تعليل خيالي بلاشك، أدى إليه أنه لو كان للنعامة قرنان لدافعت عن نفسها أكثر، ولم تكتف بضرب عدوها بقدميها المميتين، ولما احتاجت أن تدخل رأسها في الرمال، كما أدعي عليها بأنها تفعل.

وإذا كان في هذه القصة لم يبين من كانت النعامة ذهبت إليه لتأخذ منه قرنين، فإنهم في قصة أخرى بينوا الآخذ والمأخوذ منه، والقصة تجري حوادثها بين الضب والضفدع.

---

(١) الحيوان ٤/٣٢٣.

«خاصم الضب الضفدع في الظمأ، أيهما أصبر، وكان للضفدع ذنب، وكان الضب ممسوحاً، فلما غلبها الضب أخذ ذنبها، فخرجا في الكلأ، فصبرت الضفدع يوماً ويوماً، فنادت: «يا ضب ورداً، ورداً»، فقال الضب:

أصبح قلبي صردا      لا يشتهي أن يردا
إلا عراراً عردا      وصليانا بردا

(العرار نبت طيب الريح، والصليان شجر ينبت صعدا)»[1].

وهذه القصة وقصة الظليم قصتان من أيام الجاهلية، وفي هذه القصة خيال جامح، ونهج خليق بالعرب، فقد اتبعت القصة برجز ليضفي عليها رونقاً يثبتها، والقصة تري مناورة بين حيوانين وتكشف ما هما عليه من نظرة أحدهما للآخر في ضوء مدى ذكاء كل منهما.

والفأر والقط عدوان، ينسج حولهما من العداء

---

(١) الحيوان ٦/١٢٥.

ما يغري بتنويع القصص عنها، وإن كان ذلك لم يبلغ شأو «توم وجري» اللذين أصبحت قصصهما في التليفزيون عالمية، والقصة المشهورة لدى مجتمع الجزيرة هي قصة فأر الصحراء الذي اجتمع بفأر بيوت المدينة، وأخذ كل واحد منهما يشكو همه للآخر، وكان من جملة ما ذكره فأر المدينة ما يلاقيه من القط، من الخوف، ومن انعدام الأمن في البيت بسببه، فسأله فأر الصحراء أهو في حجم الجمل؟ فقال له: «لا» فقال له أهو في حجم الحصان؟ قال: «لا»، قال له: أهو في حجم الضبع أو الذئب؟ قال: «لا»، قال: أهو في حجم الكلب؟ قال: «لا»، قال إذاً لا يقلقك الأمر، فأنا سوف آتي معك، وأريحك منه. ودخل معه المدينة، وكل ما رأى متحركاً سأله أهو هو؟ قال: «لا» حتى إذا توغلا في البيت، ورأى القط وجها لوجه أبرق كالضياء هارباً مرتعباً من عينيه وشواربه، وترك فأر البيت أمام عدوه وحيداً.

وهي قصة تمثل الثقة بالنفس التي تدخل في نطاق

الادعاء، وهي رذيلة يستحق الأمر أن ينبه إليها، وينبه على المرء ألا يغتر بالوعود ممن لا يستطيع الوفاء بها، لوضوح نقص إمكاناته.

ولكن قصة الفأر مع العرب المتحضرين، في مجتمعاتهم بما فيها من نقائص وعيوب، تأخذ هذا اللون نفسه، وتأخذ مادتها مما هو موجود في تلك البيئة، ولا تخلو من لمز لما يجلبه فقدان العقل بوسائل غير طبيعية، وتري حالة السكران، وتدني تفكيره وقت السكر، وطغيان الخيال عليه حينئذ :

زعموا أن فأرة وقعت في دنّ خمر، فشربت فسكرت، فقالت : «أين القطط ؟» فلاح لها قط، فقالت : «لا تؤاخذ السكارى بما يقولون»[1] .

والقصة التي لا يكاد يجهلها أحد هي قصة الذئب مع الحمل، وتري أن القوة في المجتمع الذي لا يحكمه دين أو قانون، هي التي تحكمه، فالضعيف في ذلك المجتمع مأكول الحق، مهيض الجناح،

(١) معجم الأدباء ١٠٧/٨ .

وحجته مهما كانت قوية فهي لا تفيده، والقوة وحدها فقط هي التي تفيده:

وقف حمل يشرب من مجرى ماء، فجاء ذئب ليشرب من منبع ذلك المجرى، ومكان الذئب مرتفع، ومكان الحمل منْخفض، فقال الذئب للحمل: «لقد عكرت علي صفو الماء»، فقال الحمل: «أنا في أسفل مجراه وأنت في أعلاه فكيف أعكره؟» فقال الذئب: «لقد فعلت هذا في العام الماضي، وأنا كنت أبحث عنك». فقال الحمل: «أنا لم أولد إلا هذا العام». فقال الذئب: «إذاً كان أبوك هو الذي فعل ذلك، ولا بد من أكلك».

وهي قصة تعبر عن نفسها، وعن ما فيها من صورة لسيطرة القوة، وضعف المنطق والحق أمامها.

# الجواب المفاجئ (*)

عندما يطرح سؤال يكون في ذهن السائل فكرة مبدئية عن منهج الجواب، الذي عادة يأتي مسايراً لمنهج السؤال، ويكون التطلع إلى فحوى الجواب ومرماه، والفعل أحياناً يحتاج إلى أن يُرد أو يكمل، أو يصرف وجهة أخرى، ويعرف بالتقريب ما سيكون عليه الأمر في حدود المعتاد، وما تعارف عليه الناس، ولكن الأمور أحياناً تأخذ منحى آخر، فيأتي الجواب، أو الفعل المكمل، بعيداً عن التوقع، وعما اعتاد الناس عليه، ويأتي ذلك بمفاجأة يندهش لها السائل والسامع، لأنهما قد هيأ نفسيهما لغير هذا، ويكونان كمن ركب مصعداً، وتوقع أن يصعد، فإذا بالمصعد ينزل، أو خلاف هذا.

وهذا الشيء، جواباً أو فعلاً، يحدث من أناس غير عاديين في الغالب، فهم إما أصحاب ذكاء

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٣٤) في ١١/٨/١٤١٤هـ الموافق ٢٢/١/١٩٩٤م.

متميز، أو أصحاب غفلة وغباء. ويكثر الجواب المفاجئ من بعض الذين عرفوا بالسخرية من أمور الحياة، وهؤلاء غالباً يلجؤون إلى التلاعب بالألفاظ والأفكار، ويصبح هذا منهجاً ثابتاً لهم، حتى إنهم إذا أجابوا إجابة مستقيمة تعجب منهم الناس، لأنهم غيروا طريقتهم، وساروا في الطريق التي يسير فيها بقية الناس.

والإجابات هذه لا تستطيع أن تصفها، رغم خروجها عن الخط المألوف، إلا أنها معقولة ومنطقية، رغم أنها نابية وغريبة. والأمر المؤكد حيالها أنها طريفة وجذابة، وهذا ما جعلها تدون ويحلّى بها التراث، وتنال من الاهتمام ما جعلها تتناقل في القديم والحديث.

وهذا الأسلوب متوفر في كل زمان ومكان، وفي كل أمة من الأمم، إلا أن التفاوت يأتي في الاعتناء بالتدوين، أو عدمه، فهناك أمة تحرص على تسجيل مثل هذه الإجابة، وأمة تكتفي بتداولها حتى

تبهت، أو يزاحمها غيرها، فيخرجها من الميدان فتنسى. وهناك عصر أيضاً يهتم بهذه الأمور، ويعتبرها حلية فيه، ويحرص عليها، وهناك عصر لا يرى فيها ما يوجب بذل الجهد، وإضاعة الوقت.

ومن الأجوبة التي تحمل هذه الصفة، وتسير على هذا النهج، وتوجب الالتفات، وفيها ما يدعو إلى المرح والظرافة، ومع هذا فهي لا تخلو من منطق رغم خروجها عن المنهج، القصة الآتية:

مدح بعض الشعراء صاحب شرطة، فقال: «أما أني أعطيك شيئاً من مالي، فلا يكون أبدا، ولكن إجْن جناية حتى لا أعاقبك بها»[1].

كل يغرف مما في حوضه، ويعطي مما في جعبته، ويبدو أن صاحب الشرطة هذا ليس في حوضه ماء ينزح منه أو يغرف، وليس في جعبته مال يعطي منه ويجود، فلم يبق إلا ما يملكه، وهو عقاب المذنب، أو العفو عنه، والعقاب، في حال هذا الشاعر، لا

---

(١) الكشكول ٢/٣٠٣.

يجوز ، ولم يبق بعد ذلك إلا العفو عن ذنب ، ولأن المادح لم يذنب بعد ، فقد أقرضه صاحب الشرطة العفو، حتى يوسر بعد العسر ، فيذنب ، فيبرأ كل واحد منهما من الآخر . أليس في هذا منطق ، وأليس فيـه طرافة ، ويوجب المرح ، وأليس فيه مفاجأة ، وأمـر غير معتـاد ، وأليس يستحق أن يسجـل في التراث ، ويبقى فيه منذ ذلك الحين ؟!

بقي أمر لا يفتأ يلح على ذهن المتدبر ، ما نوع المجتمـع الـذي يحكم أمـرَه مثلُ صاحب الشرطة هذا ، وعقليته متميزة هكذا ! رحم الله ذلك المجتمع !

ونمـر برياض التراث ، ونتنسم عبير الطرائف فيهـا ، وننتقل من مهنة صاحب الشرطة إلى مهنة الشحاذة ، ونجد شيئاً مماثلا في عمومه ، مختلفاً في خصوصه ، فالمنطق فيه قوي ، والمفاجأة مثل ذلك ، إلا أن الطرافة أقل ، لطغيان المنطق والمفاجأة عليها :

«وقف أعـرابي على قوم يسـألهم ، فقالوا : من

أنت؟ فقال: إن سوء الاكتساب يمنعني من الانتساب»[1].

وليس هذا الرجل وحده من لا يريد أن يعرف، حتى لا تسيء سمعتهُ لأصله ونسبه، فإخفاء المتسول لما يعرف الناس عنه أمر يكاد يكون متفقاً عليه بين المتسولين في كل زمن، بعضهم يُخلف شكله وهندامه وحديثه، وبعضهم يغير مظهر صحته بمرض يختاره، يضمن التخفي خَلْفَه، وبعضهم ينتقل من الحي الذي يعرفه فيه سكانه إلى حي لا يعرفونه فيه، بل إلى بلد آخر، إمعاناً في التعمية، وزيادة في الاطمئنان، ولعل مقامات الحريري خير شاهد على هذا الاتجاه، فالشخصية الرئيسية في المقامات (أبو زيد السروجي) وما تقوم به من حيل للاستجداء، ما هي إلا صورة مجلوة لهذا النهج.

ويتغلب المنطق، والمفاجأة في الجواب، في

---

(١) الكشكول ٢/ ٣٢٩.

القصة الآتية ، ولا غرابة في ذلك ؛ لأن أحد طرفي الجدل العالم «الشعبي» ، وهو من عرف بنباهة الذهن ، وبراعة المنطق :

«دخل الشعبي الحمام ، فرأى رجلاً مكشوف العورة ، فغمض عينيه ، فقال له الرجل ، يهزأ به : متى كفّ بصرك ياشيخ؟ قال : منذ هتك الله سترك »[1] .

من المؤكد أن الرجل لم يكن يعرف «الشعبي» ، وإلا لم يكن يتعرض له ، فهو ليس في مستوى قدرة «الشعبي» في الأخذ والرد .

والطرافة والرد المفاجىء هما عنصرا الجاذبية في تدوين القصة ، وإلا فأمثالها يقع دائماً ، إلا إنه لا يلفت النظر ، أو يغري بالتسجيل ، رغم أن العقل واحد ، فمثلاً هناك رجل في زماننا كان يطوف بالكعبة ، وكان هذا قبل ستين عاماً ، فرأى امرأة أجنبية جاءت للحج ، وصادف أن كانت تمر به أثناء

---

(١) البصائر والذخائر ٢ / ١٨٤ ، الكشكول ٢ / ٤١٠ .

الطواف ، ولم يكن عليها حجاب ، وكان يقول لها : «غطِّ وجهك ، وإلا غطيت وجهي» ، ومن سوء الحظ أنها لم تكن تعرف ما يقول ، لاختلاف لهجتيهما كثيراً ، وأرجو ألا تكون أساءت به الظن ، وقد انتهى «السبع» فانتهى الأمر .

وترجح المفاجأة في الخبر الآتي ، ويأتي الجواب على غير ما توقع المعترض ، وتبقى الطرافة تطل من بعيد على مسرح القول هذا :

«خاصم أبو العيناء يوماً علويًّا ، فقال له العلوي : تخاصمني وقد أُمِرْتَ أن تقول : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ؟ فقال : لكني أقول : الطيبين الطاهرين ، فتخرج أنت»[1] .

وكان الأولى الابتعاد عن أبي العيناء لتجنب مثل هذا الرد المفاجئ ، الذي لم يكن يتوقعه السائل ، وظن أنه سوف يكسب اعتذاراً ، مقابل الخطأ الذي وقع فيه أبو العيناء ، ولكن أبا العيناء أبقى لأهل

---

(١) معجم الأدباء ١٨ / ٢٩٥ .

البيت حقهم ، وسل هذا الفرد منهم سل الشعرة من العجينة .

ويأتي الرد المفاجئ في مجال آخر ، ويعضده المنطق ، وفي القصة الآتية بالذات ، يظهر في الموقف لباقة ، وحسن أدب ، رغم عدم التكافؤ في هذا بين الرد وما أثاره ، فالرد حسن وما أثاره لا يخلو من خلاف ذلك ، وهذه القصة :

دخل أبو العميثل يوماً على عبدالله بن طاهر ، فلما قبل يده ، قال له عبدالله : «قد آذت خشونة شاربك يدي» ، فقال له : أيد الله الأمير : «إن شوك القنفذ لا يضر ببرثن الأسد»[1] .

وهذا يذكر بموقف للملك عبدالعزيز - رحمه الله - مع أحد من سلم عليه ، وصافحه ، فوجد أن يده أصبحت ناعمة ، خلافاً لما كانت عليه أيام الحروب ، فأبدى ملاحظته على ذلك ، وقال للملك : «إن يدك يا صاحب الجلالة قد أصبحت ناعمة» ، فرد عليه الملك بسرعة بديهة قائلاً :

(١) آداب الملوك ٨٠ .

«إن الأفاعي وإن لانت ملامسها
عند التقلب في أنيابها العطب»

وكان رداً موفقاً .

وكان الخلفاء العباسيون يحبون في أوقات خلوتهم مع حاشيتهم ، أن يوقعوا بين اثنين ، ليروا ما تنتهي إليه الملاسنة بينهم ، وكان لهم في هذا متعة ، لما يأتي من ذلك من طرائف ، تضيف إلى جلساتهم بهجة ، تنصب أحياناً على الأدب والشعر ، وأحياناً على المفاخرة بالأنساب . وقد تبلور هذا إلى أدب منفرد بسماته ، وصار له قواعد دقيقة ، يختلط فيها الامتاع بالفائدة ، وتقوم الملاحاة في حدود معينة ، ولا تخرج عن مقتضيات الأدب والحشمة ، ولا تزحف إلى ما يوجب العداء أو النفرة ، مع تحفظ متعنّى ، خاصة عند المفاخرة ، ألا يلمس الثَّلْب الخليفة وقبيلته ، من قريب أو بعيد ، وهذا يجعل الأمر لا يقترب منه إلا من يجيده ، أو من صقلته التجارب أيضاً ، فكم من جليس أَعْجَب ، فحشي فمه دراً ، وكم من جليس عَثَر ، فصُفع على قفاه ،

أو أخرج من المجلس، والأدب العربي، وما سجل فيه من هذا، مليء بالحوادث الممتعة التي تري نتائج هذه الجلسات، وما يجرى فيها، وما تنتهي إليه، وهي صور أحياناً لا تعطي فقط رسماً مبدعاً عن هذه المجالس، وإنما تعطي فكرة عن المجتمع العباسي، بفَترات زمنه المختلفة، وما طرأ عليه من تطور إلى الأحسن في بعض الجوانب، وإلى الأسوأ في بعض الجوانب الأخرى.

والقصة الآتية تكشف جانباً مما كان يحدث، وهي لا تخرج عن موضوعنا في أنها طريفة، والجواب فيها منطقي، وفيه ما فيه من المفاجأة:

«دخل كلثوم بن عمرو العتابي على المأمون، وعنده إسحاق الموصلي، فغمز المأمونُ إسحاق عليه، فجعل العتابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه فيه إسحاق، فقال له العتابي: «ما اسمك؟» فقال: «كُلْ بَصَل». قال: «هذا اسم منكر»، قال: «أتنكر أن يكون اسمي (كل بصل) واسمك (كُلْ ثُوم)، والبصل أطيب من الثوم!» فقال: أظنك

إسحاق؟ فقال: نعم، فتوادًّا»[1].

هذا النص جمع عناصر المجالسة، أو أغلبها، فقد جاءت الإشارة للممازحة من الخليفة نفسه، ولم يُظهر للفريق الثاني أن له دخلا في الأمر، وظهر كأن إسحاق ابتدأ من نفسه، وقد مهد إسحاق، بذكائه، لتنفيذ رغبة الخليفة، فأخذ يعارض العتابي، حتى حرك ساكنهُ، ولفت نظره، وقاده تدريجياً إلى فخ قد نصبه، وهيأه، وكان ذلك باللعب على اسمه، وكان اسحاق بارعاً بحق، ودل على ذكاء خارق، وظرف زائد، مما كشف للعتابي أنه اسحاق، وأن هذا المجرى لا يجري فيه إلا اسحاق وأمثاله.

والطب وحقله لا يخلو من مثل هذه الأجوبة المنطقية، التي تصاحبها المفاجأة، وتتخللها الطرافة والظرف:

«وصف ماسويه لإنسان دواء، ثم قال له: «كل

(١) أخبار الظراف ١٢٢.

الفرّوج وشيئاً من الفاكهة»، وقال: «أريد أن تخبرني بالذي لا آكل»، فقال: «لا تأكلني ولا حماري ولا غلامي، واجمع كثيراً من القراطيس، وبكّر إليّ، هذا يكثر إن وصفته لك»(١).

ولم يكن لمثل سؤال هذا المريض إلا هذا الرد.

ونلمح في هذا شيئاً مما يدور في مجتمعاتنا المعاصرة، عن أن مريضاً بديْناً، يشكو مما تجلبه البدانة من علل، استنصح الطبيب فيما يفعل، واستعلمه عن العلاج الناجع لهذا، فوصف له الطبيب طعاماً حدد كميته ونوعه، يكون لفطاره ولغدائه ولعشائه، فاستقل المريض المقادير، واحتقر الأنواع، وظن أن هذه رِفْدٌ يأخذه قبل «الوجبة» المعتادة، أو بعدها، ورغب أن يتأكد من الطبيب عن ذلك، فكان سؤاله مفاجأة. ولا بد أن الرد، إن كان هناك رد، جاء مفاجئاً، وهي تحكى لطرافتها، ولا يعلم هل حدثت فعلاً أو أنها «نكتة» ابتدعت.

---

(١) معجم الأدباء ٥/١٢٤.

هذه بعض ملامحٍ عن بعض الجوانب في حياة السابقين ، تبين جانباً مما كان يدور في مجتمعاتهم ، محدداً سير بعض الأمـور عندهم ، وهي جزء من كثير مما يزخر به الأدب العربي وتاريخه ، وما هذه إلا نماذج ، والبحر الزاخر هناك .

# المأمون والأمية(*)

الأمية عدو لدود يعرفه المتعلم، ويسعى إلى حربه، وكبح جماحه، والقضاء على جيوشه؛ وانعدام العلم ظلمة، ووجوده وانتشاره نور وضياء، ومن تولّى أمر الناس، وعرف ما فيه مصلحتهم، أدرك، في أول ما يدرك، أن العلم هدف اجتماعي يجب أن يُرعى، وأن يعطى حقهُ من العناية، وأن تُسهل سبله، وتُزال العوائق من طريقه، والحواجز أمام القاصد محرابه، والعقبات أمام طالبه وخاطبه. وبالعلم يرتفع المجتمع، وبارتفاع المجتمع يرتفع الحاكم، وتعلو رتبته، ويبزّ غيره من أقرانه، ويبرز على من سواه.

لهذا أدرك الإمام محمد بن سعود - رحمه الله - قيمة الدعوة السلفية التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - وعرف أن مع ظهورها

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٤١) في ١٨/٨/١٤١٤هـ الموافق ٢٩/١/١٩٩٤م.

انتشار ضياء الهداية ، وانبلاج نور الحق ، فيعمّ بها ربوع البلاد حاضرها وباديها ممن كان غافلاً عنها من أهلها ، أو خالطا معها ما ليس منها ، أو منتقصاً لما هو من كمالها . وعمت بركة ذلك العلم ، ولا يزال الإشعاع ينتقل من جيل إلى جيل صافياً مضيئاً .

ولم يتقدم العالم إلا لما مسكت الأصابع الأقلام ، وصافحت النظرات الحروف ، وامتلأت رفوف المكتبات بالكتب ، وامتلأت المدن بالمكتبات ، وشرّق الكتاب وغرّب ، وانتقل وانتشر ، ونُسِخَ وطبع ، وقرئ وحفظ وفهم ، وأصبح الأمر بالنسبة للعلم مثل حجر رمي في بركة ماء انداحت مع رميهِ دوائر على صفحة الماء الصافي الهادئ ، فابعدت عن المركز ، وتتابع بعدها غيرها ، وستبقى دوائر العلم تترى إلى ما لا يعلم زمنه إلا الله .

وتنبّه العالم لخطر الجهل والأمية ، وشن عليهما حملة ضارية ، يزيد أنصارها جيشاً ، ويتطور أسلوبها سلاحاً ، وأصبحت لها مناسبات تشتد فيها الحملات ، ويضاعف الجهد ، وأصبحت الأعين

ترقب ، والألوية تشرع وترفع ، والسلاح يسنّ ، وأصبح الفخر بين الأمم هو في ارتفاع نسبة المتعلمين ، وانخفاض نسبة الأميين الجاهلين .

وقُسِّمت الأمِّيّة أقساماً ، ووصف لكل قسم من الداء دواؤه ، ولا يزال السباق على أشده حامياً ، والمنافسة قوية ، ولا يوجد أمة في العالم ذاقت طعم العلم ، فشبعت منه ، ولا أمة عانت من الأمية وبدأت حربها معها فألقت السلاح . وكل أمة مهما بلغت من العلم ، ومهما انخفض عندها الجهل تبقى حذرة يقظة كأنها ترقب وباء اختفى ، ولا يؤمن ظهوره فقد تخرج من تحت الرماد فيه جمرة تشعله من جديد .

وقد يظن ظان أن التنبيه للأمية ، وامتشاق الحسام للقضاء عليها ، ومحاربتها ، أمر جديد جاء مع النهضة الحديثة ، وأن الغرب هو البادئ ، وأن له الفضل في حمل اللواء . أمّا الحقيقة فتؤكد أن الذهن العربي الصافي كان هو البادئ ، ولن نمثل بالمثل الواضح المعروف ، وهو ما كان عليه العرب

في زمن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، وما وصل إليه العلم في بلاد العرب وما جاورها بأنواعه وفروعه في وقت كان يخيم الجهل فيه على أوروبا بدرجة تظهر بعض بلدانها في أسفل درجات التأخر والبدائية، ورحلة ابن فضلان خير دليل وشاهد على ذلك. ولكننا نمثل بحديث معين، جرى بين الخليفة المأمون وعمه إبراهيم بن المهدي:

«دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون، وعنده جماعة يتكلمون في الفقه، فقال: ياعم ما عندك فيما يقول هؤلاء؟ فقال: ياأمير المؤمنين شغلنا في الصغر، واشتغلنا في الكبر، فقال المأمون: لم لا تتعلم اليوم؟ فقال: أو يحسن بمثلي طلب العلم؟ فقال: نعم، لأن تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل. قال: وإلى متى يحسن طلب العلم؟ قال: ما حسنت بك الحياة»[1].

---

(١) سراج الملوك ٢٠٤.

إن كثيرين في زماننا يعانون مما كان يعاني منه إبراهيم بن المهدي : إنشغالاً عن العلم في الصغر ، واشتغالاً بالحياة في الكبر ، وحصيلة هذا أُمِيَّة ، دواؤها فيما قاله المأمون ، لأَن يموت المرء وهو يلهث في طلب العلم خير له من أن يعيش مرتاحاً مولّياً ظهره له . وحسن الحياة وبهجتها ورونقها لا تكون إلا بمواكبة العلم . إنها محادثة تستحق أن تسجل ، وأن تتخلل سجف الزمن ، لتصل إلينا حية فتية ، وكأنها إبنة زمننا .

وإذا كانت هذه الملاحظة جاءت في زمن الخلافة العباسية فقد جاء قبلها في زمن الأمويين ما يدل على اهتمامهم بالعلم ومحو الأمية ، وإذا كان النص المروي عن المأمون وعمه إبراهيم يتحدث عن محو الأمية بين الكبار ، ويمثل الدواء لداء قد حدث فالنص الأموي يتحدث عن حماية الشباب من أن يقعوا في براثن الأمية ، أو يسقطوا في مستنقعها ، وهو أمر يفقد الأمة عنصراً يمكن أن يصبح بالعلم

مفيداً، وبدونه يضحي عبأً على مجتمعه، والعبء ضرر.

كتب معاوية إلى زياد: «إذا جاءك كتابي فأوفد إليّ ابنك عبيدالله» فأوفده عليه، فما سأله عن شيء إلا أنفذه، حتى سأله عن الشعر، فلم يعرف منه شيئاً، قال: ما منعك من روايته؟» قال: «كرهت أجمع كلام الله وكلام الشيطان في صدري» قال: «اغرب، والله لقد وضعت رجلي في الركاب يوم صفين مراراً، ما يمنعني من الانهزام إلا أبيات ابن الإطنابة، حيث يقول:

أبت لي عفتي وأبى بلائي
وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإعطائي على الإعدام مالي
وإقدامي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانك تعذري أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات
وأحمي بَعدُ عن أنف صحيح

وكتب إلى أبيه : أن روّه الشعر ، فروّاه فما كان يسقط عليه منه شيء»[1] .

ووالد عبيدالله عامل معاوية على العراق ، ويُتطلع إلى أن يكون لابنه شأن في المشاركة في حكم البلاد ، ومعاوية لا يكتفي بما بدا من عبيدالله من نجابة في الرد على الأسئلة العامة عن الحياة والناس في العراق ، وبما لا يفوته لنباهته وقربه من سدة الحكم ، ولهذا حثه على تكملة عقله بما في الشعر من حكم مفيدة ، ودلل على فائدتها بدليل قوي ، وبرهن بواقعة ساطعة الجوانب في قيمة الشعر وحفظه وتشرّبه .

ويبدو أن معاوية لاهتمامه بالعراق وحكمه ، وضمان الهدوء فيه ، واستمراره ليس فقط في أثناء حكمه وإنما يؤمل أن يستفيد خلفه من جهده ، حرص على أن يستدعي ابن زياد ليزن عقله ، وليسعى في تكملة ما نقص منه ، وقد فعل .

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ٦٧ .

وهذا يؤكد حرص معاوية على أن يكون عماله أبعد ما يكونون عن الجهل، حتى لا يستصغرهم أحد ممن يتصل بهم بطريق أو آخر، فالاستصغار مظهر من مظاهر الضعف، والضعف يقود إلى الاستهانة، والاستهانة ضعف في الطاعة، وهذا ما لا يمكن أن يتغاضى عنه معاوية.

وابن المسؤول إذا لم يكن في المستوى الذي يجعله يقوم بعبء مماثل لوالده يصاب من حوله بخيبة أمل، وهناك مثل يوضح مثل هذا الموقف في أحد الأزمنة التي نستقي منها بعض النصوص مما يمثل التراث وما فيه من ذخائر:

«كان بعض أولاد المتصرّفين قد قصد عبيدالله ابن سليمان الوزير، وواصل رقاعه إليه، يطلب منه الأعمال والأشغال والإقطاع، وكان فيه تخلف وجهل، فلما ألح عليه وأبرمه، وقّع في ظهر بعض رقاعه:

يا هذا، قد أكثرت فيما تلتمس، ولست أعرفك

بالكفاية فأقلدك الأعمال ؛ ورقاعك هذه تدلّ على قدر صناعتك ، وتمنع من الاستنامة إلى كفايتك ؛ فردك أسهل من تقليدك ، وقد رسمنا لك بكذا وكذا ، فاستعن به في بعض المصارف ، واشغل نفسك بالتدرب على المعارف»[1] .

هذا النص يظهر أن والد هذا الذي تنقصه المعارف - كما ذكر الوزير - كان رجلا مسؤولاً ، قد وكل إليه أمر من أمور الدولة لكفايته ، ولكن ابنه جاء من دالّة والده على الدولة يطلب عملاً وليس كفيّا - في نظر الوزير - لأي عمل ، فشرح على أحد طلباته المتكررة بما يعتقد فيه ، وأنه لا مكان له في وظائف الدولة ، وإلى أن يحسن وضعه الثقافي ، ويرفع من مستواه العلمي ، بالتدرب على المعارف التي تنفعه أعطاه مبلغاً من المال ، يفرج من عسرته ، ويساعده على تصريف أموره ، وهذا غاية ما يمكن أن يساعده به ، وعليه أن يساعد نفسه ، ويمحو أميته ، وهذا ما قصد إليه معاوية - قبل قرون -

---

(١) تحفة الوزراء ١٤٦ .

عندما نظر في شأن عبيدالله بن زياد قبل فوات الأوان، وقد تدارك عبيدالله نفسه فما كان يخفى عليه شيء من الشعر المفيد.

ومعاوية عندما قابله عبيدالله بحجته في أنه لا يريد أن يجمع كلام الله وكلام الشيطان في صدره نسي أنه يتحدث مع صحابي جليل، وكان كاتباً للوحي أيام الرسول ﷺ، ونسي أن معاوية يعرفه هو ووالده جيداً، فلم يقبل قوله، ورد عليه بكلمة قاسية هي «اغرب»، وهي تحمل رفض حجة عبيدالله رفضاً باتاً، وكأنها تتهمه بأنه كان يغطي بتقصيره بما قال.

وتشعر عند قراءة بعض النصوص المتصلة ببعض من لم يتعلموا بأنه ليس من السهل في بعض الأحيان تصور القضاء على الأمية قضاء مبرماً، لأنه قد يكون هناك من ليس لديه الأرض الخصبة التي تقبل غرس العلم فيها وإن صار شيء من هذا فهو يحتاج إلى جهد مضنٍ، والنص الآتي يوضح توضيحاً تامًّا ما نرمي إليه:

قال أبو زيد :

جاء صبي إلى كيسان بن المعرف الهجيمي يقرأ عليه شعراً ، حتى مر ببيت فيه ذكر العيس ، قال : الإبـل البيض التي يخلط بياضَها حمرةٌ . قال : وما الإبل؟ قال : الجمال . قال : وما الجمال؟ فقام على أربع ، ورغا في المسجد ، وقال : الذي تراه طويل الرقبة ، وهو يقول : «بوع»[1] .

وهكذا نجد الأمية عدواً قديماً حاربه السابقون بطرقهم وإمكاناتهم ، وحاربناه بطرقنا وإمكاناتنا ولا نزال .

---

(١) معجـم الأدبـاء ١٧/ ٣٢ .

# الجود وظلاله(*)

سبق أن تحدثت في مقالة سابقة عن الكرم وأبعاده، وأن القليل من المدخر يأتي بالكثير من الإنفاق، وأشرت إلى كثرة ما كتب من قصص عن الكرم والكرماء في تراثنا، وأن هذه الكثرة تغري بالعودة إلى موضوع الكرم مراراً وتكراراً.

فالجود والكرم من الصفات التي يبجلها العرب والمسلمون، وقد جاء الإسلام فأعلى مكانة الكرم والكرماء؛ والكرم من الصفات التي لا ترتفع حياة العربي والمسلم إلا بتوفره عنده، وعلى أوسع نطاق؛ فإذا ما ظهر في المجتمع شخص برزت فيه صفة الكرم تناقلت الرواة أخباره، وقد لا يكتفون بما هو واقع منه وفيه، وإنما يضيفون إلى ما جاء منه ما يتصورون أنه وقع، أو يمكن أن يقع؛ فيضعون أخباراً على أخبار، ويردفون قصصاً على قصص.

---

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٤٨) في ١٤١٤/٨/٢٥هـ الموافق ١٩٩٤/٢/٥م.

وتـاريخ العرب في الجاهلية وفي الإسلام مليء بقصص الكـرم المدهشة، والحوادث الغريبة، مما يأتي به أصحـابـه؛ ومـظاهـر الكرم تنحو مناحي شتى، يتقدمها بذل الجاه، وإنفاق المال، وإعطاء الأنعام، وتحمل الديات.

ولا يكاد يخلو كتاب من كتب التراث من قصص الكـرم والكـرماء، ومن الأحاديث التي تحث على الكرم. ورفع شأن الكرم يتبعه بالتلازم ذم البخل والبخـلاء؛ والبخل صفة من أقبح الصفات عند العرب، لأنها لا تتناسب مع مجتمعهم الصحراوي، ولا تتلاءم مع حياتهم وطبيعتها، ولا تتماشى مع ما جبلوا عليه، أو تعارفوا على إعلاء شأنه.

وعبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وقد عاش في أوائل زمن الدولة الأموية، كان من أبرز الكرماء في زمنه، يعطي الأموال الطائلة، ويتحمل الواجبات الثقيلة، ويهب الجواري والغلمان والضياع، وهذا لفت إليه الأنظار، وجعله مضرب المثل في الجود

والكرم، وجعل له مقاماً بارزاً في مجتمعه. فلقب بقطب السخاء[1].

وكانت نظرته إلى الكرم نظرة عميقة، مما يدل على أن جذور الكرم في نفسه قد تغلغلت، وأنه ينطلق من مبدأ متمكن ثابت، وله عنده دور غالٍ ثمين، فهو يقول عنه:

«الجود حارس الأعراض»[2].

وهذه النظرة تُري جانباً مما يشعر به تجاه الكرم، والنظرة الثانية تتبين من حديثه مع معاوية عندما عاتبه في إسرافه وجوده، وتبذير ماله، رد عليه عبدالله بن جعفر بقوله:

«يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى عودني عادات، وعودت عباده عادات، أخشى إن قطعت عادتي عن عباده أن يقطع عادته مني»[3].

أما نظرة عامة الناس إليه، وإلى درجات كرمه،

---

(١) ربيع الأبرار ٤/٣٢٢.
(٢) البصائر ٥/١٩٨.
(٣) المخلاة ٢١٥.

فتتمثل في الرواية الآتية :

صاح أعرابي لعبدالله بن جعفر : «يا أبا الفضل» ، فقيل له : «ليست بكنيته ؛ قال : إن لم تكن كنيته فإنها صفَته»[1] .

ومن مظاهر جوده أنّ يزيد بن معاوية أهداه هدية فيها در وجوهر ، وعطر وكسى ، فقال للرسول : اختر ما شئت منها ، فاختار فصاً من ياقوت أحمر وجد في خزائن ذي القرنين مما كان لدارا ؛ فقال : خذه وكل ما في السمط ، فقال : أخاف أن يبلغ أمير المؤمنين ؛ قال : ومن يبلغ ذاك إلا أنا أو أنت ، فأخذه[2] .

وقصة أخرى تقول :

«جاءت عبدَالله بن جعفر أعرابيةٌ بدجاجة فقالت : أصلحك الله ، إن هذه دجيجة ، دجنت في حجري ، كنت أطعمها من فتوتي ، وأنومها في

---

(١) البصائر ٣/ ١٨٥ ، عيون الأخبار ١/ ٣٥٩ .
(٢) ربيع الأبرار ٤/ ٤١ .

فراشي، وألمسها من آناء الليل، فكأنما ألمس بنتا على كبدي، وإني نذرت لله عز وجل أن أدفنها في أكرم بقعة، فلم أجد تلك البقعة إلا بطنك؛ فضحك من قولها، وأمر لها بعشرة أوقار من زبيب وبر؛ فقالت: أصلحك الله، إن الله لا يحب المسرفين»[1].

ومدح نصيب أبو الحجناء عبدالله بن جعفر، فأجزل له من كل صنف، فقيل له:

«أتصنع هذا بمثل هذا العبد الأسود؟ قال: أما والله لئن كان جلده أسود إن ثناءه لأبيض، وإن شعره لعربي، ولقد استحق بها قال أكثر مما نال، وإنما أخذ رواحل تنضى، وثياباً تبلى، وما لا يفنى، وأعطى مديحاً يُروى، وثناءً يبقى»[2].

وهذه نظرة ثالثة إلى ما يتعلق بالكرم في ذهن عبدالله بن جعفر، مما يجعله يقدم عليه إقدام من لا يخشى الفقر، ضارباً عرض الحائط - كما رأينا -

(١) ربيع الأبرار ٤/٤٥٨، نزهة الفضلاء ٢٩٧، البصائر ١/١٨٧.
(٢) البيان والتبيين ٢/٩٦.

برأي العاتبين له على تبذيره وإسرافه ؛ فإذا كان عتبهم عارضاً ، فما يدعوه إلى العطاء أصيل ، محفور في نفسه ثابت .

وفي عطائه ، في بعض الأحيان ، طرائف ، وأمور تلفت النظر ، وتكشف عن الجوانب الأصيلة في تصرفه ، وتمثل إحداها هذه القصة :

«قال محمد بن سلام : مدح عبيدالله بن قيس الرقيات عبدالله بن جعفر ، فأسنى له العطية ، وأجرى عليه وعلى بغلة له ؛ فقال لوكيل عبدالله : قد نفد علف البغلة ؛ فعرف عبدالله ذلك ، فدعا بكيس فيه دنانير ، فجعل يعدها ، فطرب ابن قيس على صوتها ، فأعطاه ألف دينار ، وقال ؛ أتراها تكفي لعلف بغلتك ؟ »[1] .

ومع هذا فتبذير عبدالله لا يُنَافي العقل ، ولقد رأى أناس تصرفه في أمر ، فظنوا - من قصر نظرهم - أنه ينافي الجود الذي عرف به ، وصارحوه

---

(١) البصائر ٣/١٨١ .

بما دار في أذهانهم، فأزال اللبس، وأبان المكنون خلف تصرفه:

«قيل لعبدالله بن جعفر، وهو يماكس في درهم: تجود بما تجود به، وتماكس في هذا؟ فقال: ذاك مالي أجود به، وهذا عقلي بَخِلت به»[1].

هذا عن عبدالله بن جعفر في جوده، وفي حيرة الناس فيما ظنوه مخالفاً لأصول الكرم. وهناك رجل آخر أدهش من رآه في مظهرٍ يتنافى عند النظرة الأولى مع الجود والكرم، مما أوجب إساءة الظن بالرجل، ولكنه فاجأ المندهش بجود رفع شأنه عنده إلى السماكين، وجاء خبر هذين الأمرين المتضادين في قصة واحدة، توجب التأمل والتبصر والإعجاب:

روى صاحب عيون الأخبار عن الأصمعي، قال: أخبرني شيخ من مشيختنا - وربما قال هارون الأعور - أن قتيبة بن مسلم قال:

أرسلني أبي إلى ضرار بن القعقاع بن معبد بن

(١) البصائر ٣/١٨٣، عيون الأخبار ١/٣٥٩.

زرارة، فقال: قل له: قد كان في قومك دماء وجراح، وقد أحبوا أن تحضر المسجد فيمن يحضر.

قال: فأتيته فأبلغته، فقال: يا جارية، غديني، فجاءت بأرغفة خشن، فثردتهن في مريس، ثم برقتهن، فأكل.

قال قتيبة: فجعل شأنه يصغر في عيني ونفسي، ثم مسح يده، وقال: الحمد لله، حنطة الأهواز، وتمر الفرات، وزيت الشام؛ ثم أخذ نعليه وارتدى، ثم انطلق معي، وأتى المسجد الجامع؛ فصلى ركعتين، ثم احتبى، فما رأته حلقة إلا تقوضت إليه، فاجتمع الطالبون والمطلوبون، فأكثروا الكلام؛ فقال: إلى ماذا صار أمرهم؟ قالوا: إلى كذا وكذا من إبل؛ قال: هي عليّ ثم قام»[1].

هذه القصة جمعت بين مظهر أوجب الاحتقار أولاً، ومظهر أوجب الاحترام والتقدير آخراً،

---

(١) عيون الأخبار ١/٤٥٥.

فالمظهر الأول أوحى بالبخل في إحدى صوره، والثاني دل على الكرم المتناهي.

والغريب في الأمر أن هناك قصة أخرى من رواية الأصمعي، تسير على الطريق نفسه، وتأخذ المنهج عينه، إلا أن الأصمعي فيها هو الرسول لا قتيبة بن مسلم، والمرسل إليه، بطل القصة، هو عبدالله بن عبدالرحمن القعقاعي، لا ضرار بن القعقاع، كما في القصة السابقة، فهل حدثت القصتان؟ أو أن إحداهما هي الأصل، والأخرى نبتت منها؛ الله أعلم:

قال الأصمعي:

اجتمع الناس في جامع البصرة للصلح بين الأحياء، فبُعِثْتُ، وأنا غلام، إلى عبدالله بن عبدالرحمن القعقاعي، فوجدته في شملة يخلط بزراً لعنز! فأخبرته، فأمهل حتى أكلت العنز، ثم غسل الصحفة، وأتى بتمر وزيت، فدعاني، فقذرته، فأكل وغسل يده بطين ملقى في الدار، ثم دعا بالماء، فشرب ومسح فضلهُ على وجهه؛ ثم قال:

الحمد لله، ماء الفرات بتمر البصرة بزيت الشام، متى نؤدي هذه النعم؟

ثم أتى المسجد، فصلى ركعتين، ومشى إلى القوم، فما بقيت حبوة إلا حلت، إعظاماً له، ثم جلس، فتحمل ما كان بين الأحياء، فلم أر رجلاً أحقر أولاً وأجمل آخراً منه»[1].

عَلى أي حال، هذه صورة من الصور التي تروى عن الكرم، وما يعرضه مما يوهم أنه بُخل، ولعل مما يفيد في وضع إطار لهذه الصورة ما قاله الأعمش:

«أدركت أقواماً لا يلقى الرجل أخاه الشهر والشهرين، فإذا لقيه لم يزده عن كيف أنت؟ وكيف حالك؟ ولو سأله شطر ماله أعطاه؛ ثم أدركت آخرين، إذا لم يلق الرجل أخاه يوماً، سأله عن الدجاجة في البيت، ولو سأله حبة من ماله منعه»[2].

أمور فيها تناقض يدهش، وتنافر يعجب، ولو لم يكن هذا لما دونت هذه القصص.

---

(١) ربيع الأبرار ٣/٦٨٦.
(٢) ربيع الأبرار ١/٤٥٤.

# وانطلقت السهام(*)

يجد المتتبع في تاريخنا القديم أن هناك فريقاً من الناس عندما يوجه سهام العداوة إلى أحد تنطلق تلك السهام متتابعة نحو الهدف وتأخذ في سبيل ذلك طرقاً شتى، وأساليب متنوعة؛ ومن تلك السهام المألوفة للقارئ، المديم قراءة كتب التراث، ما يجد أنه موجه في الغالب إلى خليفة أو عامل للخليفة، أو منصوب من مناصيب العامل؛ والسهم عادة يأتي ممن أُخذ على أيديهم لتثبيت الحكم، وتوطيد أركانه، وإقرار النظام، والمحافظة عليه؛ وتأتي أسهم الألسنة من هؤلاء الساخطين أحدَّ من الحديد، وأكثر لسعاً من النار.

وبعض حكام الأمويين في الأقطار المختلفة، وخاصة في العراق، كانوا هدفاً للقول والقيل، يأتي الثلب فيه شعراً أو قصة، واختلطت الحقيقية فيه

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٥٥) في ٢/٩/١٤١٤هـ الموافق ١٢/٢/١٩٩٤م.

بالمزيف ، حتى أصبح من الصعب التمييز بين ما هو حقيقي وما هو مختلق مكذوب ، وتركزت حرب اللسان على عُمّال أمثال زياد بن أبيه ، أو الحجاج بن يوسف ، أو قتيبة بن مسلم ، وعلى بعض الخلفاء مثل المنصور وهارون الرشيد والمأمون .

أما زياد والحجاج فدراسة ما كتب عنهما تحتاج إلى مجلدات ومجلدات ، لكثرة ما وضع عنهما من أقوال عن أعمال ارتكبوها أو لم يرتكبوها ، أو أعمال عملوها فشوه منها الحسن ، وزيد في قبح المنتقد منها ، فخرج الأمر بجملته عن المعقول .

وأما قتيبة فلعل النصال قد تكسرت على النصال تجاهه ، وهو من قبيلة باهلة ، وهي قبيلة مجيدة ، كما يعرفها دارس الأدب العربي المنصف ، وكما تبين من الدراسة المستفيضة التي قام بها بجدارة ومقدرة وإعجاب أستاذنا الكريم حمد الجاسر ، جزاه الله خيراً ، وأمده بالصحة والعافية ليكمل الرسالة التي أخذها على عاتقه في خدمة التراث الجغرافي وغيره .

وقـد بحث - حفـظه الله - عن حق باهلة المهضـوم فأبـانـه ، ونقب عن فضائلها فجلاها ، وتحرى عن مصدر السهام فتصدى لها .

وقتيبة قائد ناجح ، كان النصر يمشي في ركابه ، والحـزم ملأ جلبـابـه ، وطد الأمر لخليفته ، وكسب للإسلام أرضاً أو جزية ، ولم يجد من ناوأه في ثلبه إلا سلاح الضعيف : اللسان السالق ، والنحل المتجني ، والكـذب المتعمد ، إلا أن هذه المناخل الهزيلة لم تستطع أن تغطي الشمس الساطعة ، التي كانت تشع بفضائله ومزاياه .

وقـد جاء الجـرح له مرتكـزاً على قبيلته ، ودائراً حولها ، فقيل فيها في هذه الفترة ما ادعي أنه من قبل الإسلام ، زيادة في الايغال في الطعن ، وتفنن شانئو قتيبة في تلمس المعايب لإلصاقها به وبقبيلته . على أنه ليس كل من قال قولاً نابياً في هذا ، أو اخترع قصة جارحة لقتيبة وقبيلته ، هو عدواً له ، أو حاسداً ، أو ممن لمسـه حزمُهُ ، ولكن القُصَّاص في فترة لاحقة وجدوا أن هذا فيه مادة صالحة يصولون فيها ويجولون

بالوضع والاختلاق، ليبقوا مستمعيهم، ويكسبوا مستمعين جدداً. فأخذوا يضعون في الميدان ما لم يخطر على بال أول من وضع قصة عن قتيبة، وأخذت بعد ذلك الزبى تعلو، والقصص تتراكم، والميادين تمتلىء، حتى أصبح من ذلك ما حفل بالتنوع، وكثرة الألوان.

ويكاد أكثر هذه القصص يسير على نسق واحد في فكرته، وفي منهجه، فكل شخص يخير بين أمر مغرٍ بالتملك والاحتياز على أن يكون باهليا، أو لا يكون، ويتدرج هذا الإغراء مرتفعاً في درجته، حتى إذا بلغ مبلغه في العلو، وعدم المقاومة وافق المتلقي للعرض على أن يكون باهليا، مشترطاً شرطاً ينتهي بالابتسامة أحياناً، وبالقهقهة أحياناً أخرى.

من النماذج التي بين أيدينا من هذا النمط عن محاولة التقليل من شأن قبيلة باهلة المشهورة القصة الآتية:

يروى أن قتيبة بن مسلم مازح أعرابياً جافياً فقال

له : أيسرك أن تكـون مثلي باهلياً أميراً؟ فقال : لا والله . قال : فتكون باهلياً خليفة؟ فقال : لا والله ، ولو أن لي ما طلعت عليه الشمس ! قال : فيسرك أن تكـون باهلياً وتكون في الجنة؟ فأطرق ، ثم قال : بشرط ألا يعلم أهل الجنة أني باهلي ؛ فضحك قتيبة من قوله(١) .

يلاحظ هنا أن قتيبة هو الذي بدأ السؤال ، وجاء متـابعـاً بأسئلة أخـرى أخـذت في التـدرج ، حتى وصلت إلى آخر هدف ، لأن الأهداف متعددة : أولها وأساسها طعن باهلة ؛ وقوي هذا الطعن عندما جاء بأسبـابـه كبيرها ، وأظهرته القصة بأنه عارف بنظرة الناس المتدنية إلى قبيلته ، وأنه مسلم بها ، وارتفعت درجة هذا الإقرار عندما جاء الأمر على سبيل التسلية والفكـاهـة . ثم إن اختيـار أعـرابي جاف جاء عن قصـد ، فالأعـرابي هو من يعرف القبائل ، وما قيل فيها ، وقوله مستند قوي ، وقد وُصف بأنه جاف حتى

(١) سرح العيون : ١٨٧ ، نزهـة الفضـلاء : ٤١٢ . قارن هذا بما جاء في روضة العقلاء : ٢٦١ ، ذكر استحباب التفريج عن الناس بقضاء الحوائج» .

لا يُتـوقع منه أن يحابي قتيبة الأمير، أو ينافقه تقرباً إليه، أو يستحيي منه، لهذا فهو لم يداج، ولم يلحن بفكـره، ومما ساعـد على أن يصبـح الأمـر مرويـاً ومتـداولاً ختم الحـديث بالفكاهة، فجاءت القصة بهذا محتـوية على عناصر تضمن لها الرواية والبقاء عدة عصور دون أن تبهت.

وهنـاك قصة أخرى، روعي فيها النهج نفسه، والتـابع المتدرج، وتكاد الخطة أن تكون واحدة، فالتدرج في الوصول إلى الهدف في القصة الآتية مثله تماماً في القصة الأولى، ولم تخل القصة مثلها من شد السامع وتطلعه، وهذه المرة أختير شخص بارز من باهلة غير قتيبة، وأبهم الآخرون، والمسرح اختلف فإذا كان قتيبة وواقعته في العراق، فهذا في الحجاز، وكأنه أريد ألا تحرم بقعة من لذة التنديد بباهلة!

حكى بعضهم قال: «حججنا مع أبي جزء بن عمر بن سعيد بن سلم، فجلسنا في المسجد الحرام إلى قوم بني الحارث بن كعب، فرأوا هيئته وجماله، وإعظا منا له؛ فقـال بعضهم: من أهـل بيت الخلافة أنت؟

قال : لا ، ولكن رجل من العرب ؛ قال : ممن ؟ قال : من مضر ؛ قال : أعرض ثوب الملبس ، من أيها عافاك الله ؟ قال : من قيس ؛ قال : إلى فصيلتك التي تؤويك ؟ فقال : من بني سعد بن قيس ، قال : اللهم غفراً ! من أيها ؟ قال : من باهلة ؛ قال : قم عنا»[1] .

الذي روى القصة «بعضهم» ، والذي سأل الأسئلة «بعضهم» ، ولولا الخوف من رفض القصة وسقوطها لقال : «حججنا مع بعض باهلة» .

لقد أتقن واضع القصة الوضع ، وأقام أركانه ، ورفع بنيانه ، فأبو جزء صاحب مظهر يلفت النظر ، مما أوجب البحث عن أصله ، وأبو جزء لم يعط المعلومات كاملة دفعة واحدة ، وهذا أوجب متابعة البحث عن أصله «وفصله» ، وبقي أبو جزء يُعطي المعلومات شخباً من ضرع ، قطرة قطرة ، وأبدى السائل صبراً متناهياً ، ومتابعة حفية ، ولعل كلمة : «غفراً» ، التي جاءت في كلام السائل قرب نهاية الحديث ، جاءت عندما بدأ يحس السائل بما أخافه ،

(١) ربيع الأبرار ٣/٥٦٣ .

وهـو أنه بدأ يقترب من باهلة ، وكأن الأمر لم يكن مخططاً له منذ البدء .

والغريب أن مبتدع القصة لم يتنبه إلى الصورة التي أظهر بها أبو جزء ، وكأنه تلميذ مدرسة محكوم عليه أن يجيب عما يُسأل عنه ، وليس له حول ولا قوة ، وهو الـرجـل الـذي بدأ وكأنه من علية القوم ؛ وما هذه الجرْأة من السائل في الإلحاح ، ومتابعة الأسئلة ؟! ثم ختم الحـديث بأن طلب منه أن يقوم عنهم ، وكأنه قاعد في عقر دارهم !

ولم يكن ثلب باهلة ، والحط من قدرها ، والتنقص من مقامها ، والتقليل من شأنها ، يقتصر على تركيب القصص على البارزين من رجالها ، بل تعداهم إلى مواليـهـم ، ومن ينضم تحت لوائهم ، فهـذا باب إضـافي واسـع ، يتاح فيه من الصنعة ، والتركيب والانتحال ما قد لا يتاح في سواه :

قال المدائني : «رأيت فلاناً مولى باهلة يطوف بين الصفـا والمـروة ، على بغلة له ، ثم رأيتـه بعد ذلك

راجلا في سفر، فقلت له : أراجل في هذا الموضع ؟ قال : نعم، إني ركبت حيث يمشي النـاس، فكان حقًّا على الله أن يرجلني حيث يركب الناس»[(١)] .

وفي هذه القصة ثبتت النقيصة على الباهلي، وأقرّ بها، واختير للترفع والكبرياء أدنى باهلة، وتحقق ذنبه، وعقاب الله له .

وأَمـرُ موالي باهلة، وعقـاب الله لهم، وتكفـير ذنـوبهم بصـبرهم على الـولاء لباهلة يتضح أكثر في القصة الآتية :

«لقي أعرابي آخر، فقال : ممن أنت؟ قال : من باهلة؛ فرثى له؛ فقـال : أزيـدك، إني لست من أنفسهم، بل من مواليهم؛ فأخـذ الأعـرابي يقبـل يديه، ويقول : ما ابتلاك الله بهذه الرزية إلا وأنت من أهل الجنة»[(١)] .

فعنـاصر الـوضـع ظاهـرة : أعرابي مجهول قابل أعرابياً مجهولاً، وكالعادة بدأ السؤال والجواب؛ ولو

---

(١) عيون الأخبار ١/٣٨٦، البصائر ٣/٦٦ .
(١) نزهـة الفضـلاء ٤١٢ .

وقف القول عند الاجابة بأن المسؤول باهلي لما استحقت القصة أن تروى، ولكن زيد في موجب القبول لها أن الأعرابي مولى، ثم اختتمت بهذا الموقف العاطفي.

والفترة التي تولى فيها قتيبة بن مسلم الأمر في خراسان كانت فترة دقيقة، إذ كانت هناك عناصر مختلفة من القبائل، كل واحدة ترى أنها فوق غيرها؛ فإذا أقام القائد قتيبة شخصاً من قبيلة ما على عمل لم ترض القبائل الأخرى برئاسته، فإن اضطرت للخضوع لقوة الحكم فإنها تخضع على مضض، ولكنها تتنفس عن طريق اللسان بمثل تأليف هذه القصص، وما يتخللها أحياناً من أشعار.

وقتيبة كان حازماً، والحزم يوجب السخط في بعض الأحيان، فإذا قال قتيبة:

«من كان في يده شيء من مال عبدالله بن خازم فلينبذه، ومن كان في فيه فليلفظه، ومن كان في صدره فلينفثه»(١).

---

(١) ربيع الأبرار ٤/٢٦٧.

فإن من استجاب لهذا الأمر استجاب وهو حنق غاضب. ومظهر السخط على قتيبة في تصرفه في هذا الخضم المتلاطم الأمواج يتبين في الصورة الرقيقة الهادئة التي تحملها الملاحظة الآتية :

«كتب عمر بن يزيد بن عمير الأسدي إلى قتيبة ابن مسلم، حين عزل وكيع بن أبي سوده عن رئاسة بني تميم، وولاها ضرار بن حصين الأسدي :

«عزلت السباع، ووليت الضباع»[1].

وهكذا توجه السهام لقتيبة ولقبيلته من جهات متعددة، ولأسباب مختلفة، وبعض هذه السهام جاء نتيجة غضب، وبعضها نتيجة حسد، وبعضها جاء للتسلية، وتمرين الأقلام.

---

(١) ربيع الأبرار ٤/٤١٨.

# المسعى الحميد(*)

بعض القصص من التراث تشد القارئ، وتستولى على لبه، لما فيها من إضاءات متعددة، تكشف عن فضائل أو مزايا أو منازل متعة.

وفي قصة قرأتها منذ أيام في ترجمة أحد الفقهاء الذين تطرق لهم صاحب كتاب «تاريخ بغداد»، وجدت ما استوقفني في كل نقلة من نقلات الفكر فيها. ففي كل ركن منها إضاءة، إضاءة حب، وإضاءة تربية، وإضاءة عطف، وإضاءة وفاء، وإضاءة قوة ملاحظة، وإضاءة كرم، ويا له من كرم.

في كل أمر من هذه الأمور يبرز الإنسان، وتتجلى الإنسانية، يبرز الخلق الرفيع، والتواد والمحبة، وتبرز الصفات العليا التي يفخر بها الإنسان. سيد يحب مملكوته، ولا يفرط فيها إلا بعد أن عضه الزمن بنابه، وهصر الفقر أضلاعه، وضيق عليه

---

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٦٢) في ١٤١٤/٩/٩هـ الموافق ١٩٩٤/٢/١٩م.

الدائنون ؛ ومدرس يتفقد تلميذه ويسعى في رفع الثقل الذي جثم بكلكله على حياته ، ورجل دولة عظيم امتلأت نفسه بالكرم ، واكتنفت روحه المحبة ، فتعدى جوده حدود الجود ولم يقف عند ما أمل المؤملون بل تعدى إلى ما أدهشهم .

والقصة تكشف دون قصد صوراً من جوانب العصر العباسي في القرن الرابع الهجري ، وترسم بريشة بارعة مظهراً صادقاً من الحياة حينئذ ، بجوانبه المتعددة ، وتري مدى تغلغل الرقيق في وظائف المجتمع في تلك الحقبة ، وما لعبه في حياة الناس .

وإذا تساهلنا قلنا إنها تكشف عن دور المدرسة في حل مشاكل طلابها ، والمدى الذي تذهب إليه في هذا ، والنجاح الذي تصل إليه في مجهودها تجاه الوصول إلى الهدف . وتري اللحمة بين الأستاذ وتلميذه ، وما يمكن أن يأتي من أحدهما تجاه الآخر ، وعمل نبيل يُؤدَّى تجاه التلميذ هو زرع خيرٍ في أرض خصبة يَرُدُّه الطالب في يوم من الأيام عندما

يصبح مدرساً لتلميذ من تلاميذه ، لزّه الزمن إلى أن يكون في حاجة إلى العون والمساعدة ، ودَفْع عاديات الزمن ، وعوارض الحدثان .

وتكشف عن تقدير كبار القوم للعلماء ، ومباركة سعيهم في سبل الخير ، وصالح العمل للمجتمع ، وتُري أن هؤلاء الكبار في مجتمعهم أهل لأن يُقصدوا ، وأهل لأن يُطلبوا وأهل لأن يستجيبوا ، وأنه لا يرضيهم من أنفسهم أن يكونوا عند حسن الظن بهم ، بل أبعد من هذا ، أن يكونوا هم عند حسن ظن أنفسهم بهم .

والقصة التي تتجمع فيها كل هذه الاضاءات تجري حوادثها كالآتي :

كان أبو حامد المروروذي قليل الدخول على أبي حامد ، صاحب بيت المال ، وكان في مجلس المروروذي رجل من المتفقهة ، فغاب عنه أياماً ، فسأل عنه ، فأخبر أنه متشاغل بأمر قد قطعه عن حضور المجلس .

فأحضره وسـألـه عن حاله ، فذكر أنه كان قد اشـترى جاريـة لنفسه ، وأنه انقطعت به النفقة ، وضاقت يده في تلك السنة لانقطاع المادة عنه من بلده ، وكـان عليه دين لجماعة من السوقة ، لم يجد قضـاء لذلك دون أن باع الجارية ، فلما أن قبض الثمن تذكـرهـا ، وتشـوق إليها ، واستوحش من بعدها عنه ، حتى لم يمكنه التشاغل بفقه ولا بغيره من شدة تعلق قلبه بها .

وذكر أن ابن أبي حامد ، صاحب بيت المال ، قد اشتراها ، فأوجبت الحال مضي أبي حامد الفقيه إلى ابن أبي حامد يسأله الإقالة ، وأخذ المال من البائع .

فمضى ومعه الرجل ، فحين استأذن على ابن أبي حامـد أذن له في الحـال ؛ فلما دخـل عليـه قربـه واستقبله ، وقام إليه ، وأكرمه غاية الإكرام ، وسأله عن حالـه ، وعـما جاء له ، فأخبره أبو حامد بخبر الفقيـه ، وبيـع الجارية ، وسأله قبض المال ، ورد الجارية على صاحبها .

فلم يعرف ابن أبي حامد للجارية خبراً، ولا كان عنده علم من أمرها، وذاك أن امرأته كانت اشترتها ولم يعلم بذلك؛ فورد عليه من ذلك مورد تبين في وجهه.

ثم قام ودخل على امرأته فسألها عن جارية اشْتُرِيت من سوق النخاسين على الصفة والنعت؛ فصَادف ذلك أن امرأته كانت جالسة والجارية حاضرة، وهم يصلحون وجهها، وقد زينت بالثياب الحسان والحلي، وما جرى مجرى ذلك من الزينة، فقالت: ياسيدي هذه الجارية التي التمست، فسر بذلك سروراً تاماً إذ كانت عنده رغبة في قضاء حاجة أبي حامد وإنجاز ما قصد له.

فعاد إلى أبي حامد، وقال له: خفت ألا تكون الجارية في داري، والآن فهي بحمد الله عندنا، والأمر للشيخ - أعزه الله - في بابها، فأمر ابن أبي حامد بإخراج الجارية إلى الجماعة، فحين أخرجت تغير وجه الفتى تغيراً شديداً؛ فعلم بذلك أن الأمر كما ذكره الفقيه من حبه لها، وصبابته إليها.

فقال له ابن أبي حامد : هذه جاريتك ؟ فقال : نعم هذه جاريتي ؛ واضطرب كلامه من شدة ما نزل به عند رؤيتها .

فقال له : خذها ، بارك الله لك فيها . فجزاه أبو حامد خيراً ، وتشكر له ، وسأله قبض المال فإنه كان على حاله ؛ وقدره ثلاثة آلاف درهم ؛ فأبى أن يأخذه ، وطال الكلام في بابه .

وقال له أبو حامد : إنما قصدنا نسأل الإقالة ، ولم نقصد بأخذها على هذا الوجه . فقال له ابن أبي حامد : هذا الرجل فقيه ، وقد باعها لأجل حاجته ، وقلة ذات يده ، ومتى أخذ المال منه خيف عليه من أن يبيعها ثانية ممن لا يردها عليه ؛ والمال يكون في ذمته ، فإذا جاءه نفقة من بلده جاز أن يرد ذلك ؛ فوهب المال له .

وكان عليها من الحلي والثياب شيء له قدر كثير ؛ فقال له أبو حامد : إن رأى الشيخ - أيده الله - أن يتفضل وينفذ مع الجارية من يقبض هذه الثياب

والحلي الذي عليها، فما لهذا الفقيه أحد ينفذ به على يده. فقال له: يا سبحان الله! هذا شيء أسعفناها به، ووهبناه لها، سواء كانت في ملكنا، أو خرجت عن قبضتنا، ولسنا نرجع فيما وهبناها من ذلك، ولا يجوز.

فعرف أبو حامد أن الوجه ما قاله، فلم يلح عليه في ذلك، بل حسن موقعه في قلبه وقلب الجارية، حيث رجعت عليه بلا ثمن، ومعها ما معها من الحلي والثياب.

فلما أراد أن ينهض ويودعه قال ابن أبي حامد: أريد أن أسألها قبل انصرافها عن شيء؟ فقال لها: ياجارية، أيما أحب إليك، نحن أو مولاك هذا الذي باعك، وأنت الآن له؟

فقالت: ياسيدي أما أنتم فأحسن الله عونكم، وفعل بكم وفعل، فقد أحسنتم إليّ وأعنتموني؛ وأما مولاي هذا فلو ملكت منه ما ملك مني لما بعته بالرغائب العظيمة.

فاستحسن الجماعة منها ذلك ، وما هي عليه من العقل مع الصبا ، ثم انصرفوا وودعوه[1] .

لقد كشفت القصة عن مسرح مهيأ لمثل هذه المسرحية التي ليس هناك ما يشكك في أنها حقيقية حدثت في ذلك الزمن ، فهي تمثله خير تمثيل . وقد كان كل فرد في هذه القصة في الموقع المتوقع له ، وكان مجراها سلساً ، لا نُبو فيه ولا قلق .

ولعل ما جاء في ختامها يعتبر لفتة إنسانية من ابن أبي حامد لم يتنبه لها إلا هو ، وهو سؤاله إياها فيما إذا كانت تختار البقاء معهم ، أو أنها تفضل الذهاب مع مولاها ، ليتأكد من موقفها هي ، سواء في محبتها لسيدها ، أو لما قد يكون طرأ لها من رغبة نتيجة انتقالها إلى محيط فيه من الإغراء ما قد يجعلها تبدل في رغبتها . فكان يريد أن يتأكد من هذا حتى لا يظلمها ، وهذا موقف إنساني فريد ، ولعله كان على استعداد لأرضاء مولاها بمبلغ أكبر فيما لو كان حبها لم يكن كما بدا في أول الأمر .

(١) تاريخ بغداد ٥/٩١ .

ولكنها كانت محل ثقة مولاها وحبيبها ، فاختارته ، وقالت قولاً يمحو كل شك ، ويزيل كل شبهة ، مما طمأن ابن أبي حامد ، وجعله مرتاح الضمير ، ومؤملاً لما عند الله مقابل ما أعطى من عطف ، وما أسدى من إحسان .

هذه قصة من عدد من القصص التي تسير على هذا النمط وتنحو هذا النحو ، وتري مولى وجارية حدهما الزمن على الافتراق بسبب قلة المال ، وكثرة الديون ، مما أدى إلى بيع الجارية إلى من هزه الكرم عندما علم بأمرهما فأنعم عليهما بما أزال كربتهما وتسبب في أن يقضيا حياتهما في رفه عيش ، وسعادة زوجية هنيئة .

وما على أحدنا إلا أن يفتح بعض كتب التراث فيجد فيها من النماذج المضيئة ما يجعل المرء يعجب بهذه اللفتات الإنسانية العميقة في نفوس هؤلاء القوم الذين كان لهم مساهمة فعالة في إسعاد بعض أفراد مجتمعهم ممن مال بهم زمانهم .

# العين الخفية(*)

العين الخفية هي وسيلة من وسائل التجسس، أو لعلها الأولى والرئيسة فيها. والتجسس من أمور المجتمع التي حظِيت بالمعالجة والاهتمام، ووضعت في الإطار الصحيح، وتحدد مكانها في رفوف الخُلُق. وقد حدد القرآن الكريم رأي الإسلام في التجسس، وأبان تحت مجهر كشاف عمق النظرة إلى التجسس، وأثر ذلك على المجتمع، وحرّم الإسلام منه ما حرّم، وأحلّ ما أحلّ، خاصّة فيما يخص التجسس على عدو المسلمين في حالة الحرب.

ولست هنا بصدد بيان مدى تغلغله في الرذيلة في بعض جوانبه، وما قد يأتي منه من فوائد في جوانب أخرى، ولكن جذبني إليه ما يجذبني عادة في التراث العربي الإسلامي. فنحن ننبهر بما أنجزه الغرب في العصر الحديث، ونظنّهم مبتدعين فيه، ونعطيهم

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٦٩) في ١٦/٩/١٤١٤هـ الموافق ٢٦/٢/١٩٩٤م.

فضل السبق، ونسلم لهم فيه، ثم نجد بعد التعمق في تراثنا أن آباءنا قد سبقوهم فيه، وأن ما يدهشنا منهم اليوم ما هو إلا بضاعة نحن انتجناها وأتقناها في الماضي، وجلبناها في الأسواق قبل أن ينهضوا نهضتهم الحديثة. وأجد راحة ذهنية عند هذا الحد فلا أحاول أن استقصي إذا كان العرب والمسلمون قد أخذوا هذا من حضارة الهند أو الصين، أو وجدوه في تراث الفرس، فتركيزي في فخري هو أننا سبقنا الغرب فقط، لأنه هو الذي يفاخرنا، ونصغر أمام إنجازه.

لقد كنا منذ أن بدأنا نقرأ عن الغرب في العصر الحديث نعجب من أمور التجسس عندهم، والوسائل التي يتخذونها لإخفاء جاسوسهم، وتجسسهم، والطرق التي يسلكونها، والحيل التي يبتدعونها، ليصلوا إلى مرادهم، فتعود أجهزتهم بالحصيلة التي خططوا للحصول عليها، والنتيجة التي سعوا لها، وتحقيق الطموح الذي تعلقوا أسبابه.

فهنــاك جهــاز التجسس الــروسي، وهنـاك الإنجليزي، وهناك الفرنسي، وهناك الأمريكي، وهناك الألماني، وهناك أجهزة أخرى في العالم مما قد لا يحصيه العد؛ ويقال عن كل تلك الأجهزة ما لا يكاد يصدقه العقل، حتى قبل أن تتقدم الوسائل العلميـة الحـديثـة، وألفت على ضفاف التجسس روايـات وقصص، تفنن كتـابها وأبدعوا في رسم صور لعل بعض أجهزة الاستخبارات استفادت من بعض الخيال فيها.

والذين درسوا تاريخ الإسلام في العصور الوسطى، خاصـة عندما تلامس الإسلام مع المسيحية، أيام الحـروب الصليبية، وتجاورت القوتان في الشام، وأصبح هناك جو موائم لنشاط التجسس، يدركون مدى النجاح الذي حققته الأجهزة في تلك الفترة من الجانبين. ولم ينقطع الأمر بانتهاء الحروب الصليبية وإنما استمر في نطاق معين أبرزه تسلّل أفراد إلى الجـزيـرة أو إلى مكـة المكـرمـة والمـدينة المنورة،

متنكرين في أزياء مصطنعة، وعقائد يُظهر منها غير ما هو خفي.

وهذا أيضا ليس مرتكز حديثنا، ولكن مرتكزه عصور الإسلام الأولى، ولعل أوضح صورة لهذا أن أنقل هنا بعض النصوص التي تفصح عن طبيعة التجسس بما ورد بها، مما يُري أن قومنا كانوا متقدمين في هذه الوسيلة، وأن أدواتهم قد قطعت شوطاً في الإتقان مما كان يوصلهم إلى أهدافهم. والقصة الآتية تبين شيئاً مما كانوا يأتونه في هذا الصدد:

قال الوضاح بن حبيب:

كنا إذا خرجنا - يعني أصحابه - من عند المنصور صرنا إلى المهدي، وهو يومئذ ولي عهده، ففعلنا ذلك يوماً فأبرز [المنصور] إليّ يده، ولم يكن ذلك من عادته، فأكببتُ عليها فقبّلتها، وضرب بيدي إلى يده، ثم علمت أنه لم يفعل ذلك إلا لشيء في يده، فوضع في يدي كتاباً صغيراً تستره الكف،

فلما خرجت فتحته فإذا فيه : يا وضاح ، إذا قرأت كتابي فاستأذن إلى ضياعك بالرّيّ ، فرجعت فقلت للربيع : استأذن لي ، فدخل فاستأذن ، فأذن لي ، فدخلت ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ضياعي بالري قد اختلت وبي حاجة إلى مطالعتها ، فقال : لا ، ولا كرامة ، فخرجت ، ثم عدت إليه في اليوم الثاني والقوم معي ، فدخلنا فاستأذنته ، فرد إليّ مثل الجواب الأول . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما أريد إصلاحها إلا لأِقوى بها على خدمتك ، فَسُرِّي عنه ، ثم قال : إذا شئت فودّع ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ولي حاجة أذكرها ، قال : قل ؛ قلت احتاج إلى خلوة ، فنهض القوم ، وبقي الربيع ، قلت : أخلني . قال : ومن الربيع وبينكما ما بينكما ! قلت : نعم ، فتنحىّ الربيع ، فقال : قد خلوتَ فقل ، إن جدت لي بمالك ودمك ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، وهل أنا ومالي إلا من نعمتك ، حقنت دمي ، ودم أبي ، ورددت عليّ مالي ، وآثرتني بصحبتك .

قال : إنه يهجس في نفسي أن جهوراً على خلع ، وليس على غيرك لما أعرفه بينكما ، فأظهرْ إذا صرت إليه الوقيعة فيّ ، والتنقّص لي ، حتى تعرف ما عنده ، وإن رأيته يهمّ بخلع فاكتب إليّ ، ولا تكتبنّ على يد بريد ، ولا مع رسول ، ولا يفوتني خبرك في كل يوم ، فقد نصبت لك فلاناً القطّان في دار القطن ، فهو يوصل كتبك في كل يوم إليّ .

قال : فمضيت حتى أتيت الريّ ، فدخلت على جهور ، فقال : أفلتَّ؟ فقلت : نعم والحمد لله .

ثم أقبلت أؤانسه بالوقيعة فيه حتى أظهر ما ظنّ به المنصور ، فكتبت إليه(١) .

هذه القصة تبين أن للمنصور جواسيس غير صاحب البريد وأصحابه ، وهم الجهاز الرسمي لذلك ، ولعلهم أعلموا المنصور عن نية جهور ، فلم يكفه ما قالوا ، ولم يقنعه ما نقلوا ، فأراد أن يتأكد بطريقة لا تدع مجالاً للشك من نية هذا

---

(١) عيون الأخبار ١/٣٠٩ .

القائد، وعزمه على خلع طاعة الخليفة، وخروجه عليه، فزرع ابن وضاح، وأوصله بجاسوس منزوٍ مدسوسٍ في دار القطن، ولا بد أن هناك سلسلة من الأشخاص ستتناول الخبر من ورقة إلى ورقة، ومن يد إلى يد، ومن موقع إلى موقع، ومن على ظهر دابة إلى ظهر دابة، حتى تصل إلى المنصور. وهي الطريقة التي لا يزال يستعملها جواسيس اليوم في أرقى الدول.

وهناك قصة ثانية تكمل بعض الجوانب التي لم تظهر في القصة، وهي تجري هكذا:

«كان القاسم بن عبيدالله الوزير، وقد انفرد بالوزارة بعد موت أبيه، يحب الشرب واللعب، ويخاف أن يتصل ذلك بالمعتضد [الخليفة] فيستنقصه، وينسبه إلى الصبيانية، والتهوّك (الوقوع) في اللذات، والتشاغل عن الأعمال، وكان لا يشرب إلا في الأحايين، على أخفى وأستر ما يمكنه.

وأنه خلا يوماً مع جواريه، ولبس من ثيابهن

المصبغات ، وأحضر فواكه كثيرة ، وشرب ولعب ، من نصف النهار إلى نصف الليل ، ونام بقية ليلته ، وبكر إلى المعتضد على رسمه للخدمة ، [فما أنكر شيئاً] .

[وبكر في اليوم الثاني] ، فحين وقعت عين المعتضد عليه ، قال له : يا قاسم ، ما كان عليك لو دعوتنا إلى خلوتك ، وألبستنا معك من ثيابك المصبغات .

قال : فقبّل الأرض ، وورّى عن الصِّدق ، وأظهر الشكر عن هذا البسط ، وخرج وقد كاد أن يتلف غمًّا ، لوقوف المعتضد على هذا السرّ ، وكيف رَقى إليه ، وأنه إذا لم يخف عليه هذا القدر من أمره ، فكيف تخفى عليه مرافقةُ [المرفق الرشوة] ، فجاء إلى داره كئيباً .

وكان له في داره صاحب خبر جلد يرفع إليه الأمور ، فأحضره ، وعرّفه ما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : إبحث لي عمن أخرج هذا الخبر ، فإن فعلت ، زدت في رزقك ، وأجزتك بكذا

وكذا ، وإن لم تخرجه نفيتك إلى عمان ، وحلف له على الأمرين .

فخرج صاحب الخبر من حضرته متحيراً كئيباً ، لا يدري ما يعمل في يومه ذلك ، مفكراً كيف يجتهد ويحتال ، فما وقع له رأي يعمل عليه .

قال صاحب الخبر : فلما كان من الغد بكرت إلى دار القاسم ، زيادة بكورٍ على ما جرى به رسمي ، لفرط قلقي وسهري تلك الليلة ، ومحبتي للبحث .

فجئت ولم يفتح باب دار القاسم بعد ، فجلست ، فإذا برجل زمن يزحف في ثياب المكدين ، ومعه مخلاة ، كما تكون مع المكدين [الشحاذين] .

فلما جاء إلى الباب جلس إلى أن فتح ، فسابقني إلى الدخول ، فولع به البوابون ، وقالوا له : [أي شيء] خبرك يا فلان ؟ وصفعوه ومازحوه ومازحهم ، وطايبهم [مازحهم] وشتموه وشتمهم ، وجلس في الدهليز .

فقال : الوزير يركب اليوم ؟

قالوا : نعم، الساعة يركب .

قال : وأي وقت نام البارحة ؟

قالوا : وقت كذا وكذا .

فلما رأيته يسأل عن هذا، خمنت عليه أنه صاحب خبر، فأصغيت إليه، ولم أُرِهِ أني حافل بأمره وهو يسأل، إلى أن لم يُبْقِ شيئاً يجوز أن يعلمه البوابون، عمّن وصل إلى الوزير، ومن لم يصل، ومتى خرجوا، إلا سألهم عنه، وحدثوه هم أحاديث أُخر، على سبيل الفضول .

ثم زحف فدخل إلى حيث أصحاب الستور، فأخذ معهم في مثل ذلك، وأخذوا معه في مثله .

ثم زحف فدخل إلى دار العامة .

فقلت لأصحاب الستور : من هذا ؟

فقالوا رجل زمن فقير أبله طيب، يدخل الدار يتصدق ويتطايب، فيهب له الغلمان والمتصرفون .

فتبعته إلى أن دخل المطبخ، فسأل عما أكل

الوزير ، ومن كان معه على المائدة ، وكل واحد يخبره بشيء ، ثم خرج يزحف ، حتى دخل حجرة الشراب ، فلم يزل يبحث عن كل شيء ، فيُحدَّث به ، ثم خرج إلى خزانة الكسوة ، فكانت صورته كذلك ، ثم جاء إلى مجلس الكتّاب في الديوان ، فتصدّق ، وأقبل يسمع ما يجري ، ويسأل الصبيّ بعد الصبي ، والحدث بعد الحدث ، عن الشيء بعد الشيء ، ويستخبر الخبر في كل موضع من تلك المواضع ، ويستقيه ، ويخلط الجد بالمزح والتطايب بكلامه ، والأخبار تنجرّ إليه ، وتتساقط عليه ، والقطع والزلات تجيؤه ، وهو يملأ المخلاة ، فلما فرغ من هذا أقبل راجعاً يريد الباب .

فلما بلغ الباب تبعته ، فخرج حتى جاء إلى موضع من الخلد ، فدخل إليه ، فوقفت أنتظره ، فإذا هو بعد ساعة قد خرج شاباً بثياب حسان ، ماشياً بغير قلبة [عاهة] ، فتبعته حتى جاء إلى دار بقرب دار الخادم الموكّل بحفظ دار ابن طاهر ، فدخلها .

فسألت عنها، فقالوا: هذه دار فلان الهاشمي، رجل متجمل.

فرصدته إلى وقت المغرب، فجاء خادم من دار ابن طاهر، فدق الباب، فكلمه من خوخة له، ففتح له، ورمى إليه برقعة لطيفة، فأخذها الخادم وانصرف.

فجئت، فطلبت من الوزير غلماناً، فسلم إليّ ما طلبت، فبكرت في السحر إلى الدار التي في الخلد، فإذا الرجل قد جاء بزيّه الذي دخل به داره بقرب دار ابن طاهر، فكبسته في الموضع، فإذا هو قد نزع تلك الثياب، ولبس ثياب المكدين التي رأيتها عليه أولاً.

فحملته، وغطيت وجهه، وكتمت أمره، حتى أدخلته دار القاسم، ودخلت إليه، فقصصت عليه الخبر.

فلما فرغ القاسم من شغله استدعاه، فقال له: اصدقني عن أمرك، أو لا ترى ضوء الدنيا، ولا

تخرج من هذه الحجرة - والله - أبداً .

قال : وتؤمّنني ؟

قال : فنهض لا قلبة به .

فتحير القاسم ، وقال له : خبرك ؟

فقال : أنا فلان الهاشمي ، وأنا رجل متجّمل ، وأنا أتخبر عليك للمعتضد ، منذ كذا وكذا ، وأنزل في درب يعقوب ، بقرب دار ابن طاهر ، ويجري عليّ المعتضد في كل شهر خمسين ديناراً ، فأخرج كل يومٍ من بيتي بالزيّ الذي لا ينكره جيراني ، فأدخل داراً في الخلد ، بيدي منها بيت بأجرة ، فيظن أهلها أنّي منهم ، ولا ينكرون تغيير الزيّ .

فأخرج من هناك بهذه الثياب ، وأتزامن من الموضع ، وألبس لحية فوق لحيتي ، مخالفة للون لحيتي ، حتى إذا لقيني في الطريق - بالاتفاق - بعض من يعرفني ، أنكرني .

فأمشي زحفاً من الخلد إلى دارك ، فأعمل جميع ما حكاه صاحب خبرك ، وأستقي أخبارك من

غلمانك، وهم لا يعرفون غرضي، فيخرجون إليّ من الأسرار - بالاسترسال - ما لو بذل فيه الأموال ما خرجوا به.

ثم أخرج فأجيء إلى موضعي من الخلد، فأغير ثيابي، وأعطي ذلك الذي اجتمع لي في المخلاة للمكدين، وألبس ثيابي التي يعرفني بها جيراني، وأعود إلى منزلي، فآكل وأشرب وألعب بقية يومي.

فإذا كان المغرب جاءني خادم من خدم دار ابن طاهر، مندوب لهذا، فأرمي إليه، من روزنة لي، رقعة فيها خبر ذلك اليوم، ولا أفتح له بابي.

ولولا أني لم أر صاحب خبرك، ولا فطنت له، لما تم عليّ هذا، ولو كنت لَحَظْتُه لحظة واحدة، ما خفي علي أنه صاحب خبر، ولكنتُ أرجع من الموضع الذي أراه فيه، فلا يعرف خبري، وبعد ذلك، فإنما تم عليّ هذا، لأن أجلي قد حضر، فاللهَ اللهَ في دمي.

فقال له: أصدقني عما رفعته إلى المعتضد عنّي،

فحدّثه بأشياء رفعها، منها خبر الثياب المصبغة.

قال: فحبسه القاسم أياماً، وأخفى أمره، وأنفذني إلى منزله، وقال: راع أمرهم، وأنظر ما يجري.

فمضيت إلى داره التي وصفها بدرب يعقوب، فجلست إلى المغرب، فجاء الخادم، فصاح به.

فقالت له الجارية: ما رجع اليوم، وهذه لم تكن عادته قط، وقد - والله - أشفقنا أن يكون قد حدث عليه حادث لا نعرفه، وقامت قيامتنا، فانصرف الخادم، وانصرفت.

وعدت أيضاً المغرب من الغد، وجاء الخادم، فقالوا لَهُ: قد - والله - أيسنا منه، ولا نشك في أنه قد هلك، والمأتم قد أقيم عليه في منزل أبيه وعمومته.

فانصرف الخادم، وجئت إلى القاسم بالخبر.

فلما كان من الغد، ركب القاسم إلى المعتضد، فحين رآه استدناه، وسارّه، وقال له: يا قاسم؛

بالله أطلق الهاشمي المتزامن، وأحسن إليه، وأنت آمن بعدها أن أنصب عليك صاحب خبر، ووالله لئن حدثت به حادثة، لا عرفتُ في دمه غيرك .

فقبّل الأرض وتلجلج، وانصرف، فعاد إلى منزله، وحمد الله إذ لم يعجل إليه بسوء، وأخبرنا الخبر، وجاء بالهاشمي، فخلع عليه، ووصله بمال له قدر، وصرفه وانقطعت أخباره عن المعتضد(١) .

في هذه القصة التجسس كان من الخليفة على الوزير الذي كانت له السلطة المطلقة بعد الخليفة، وكان يهم الخليفة - المعتضد - وهو من عرف بحزمه وشدته، أن يعرف تصرفات وزيره، ويريد أن يعرف أدق تفاصيلها، حتى تصرفه في داخل بيته، فكانت الوسيلة زرع من يتزيا بغير زيّه، ويَظْهر، وهو الصحيح، بزي المعاق المكسح، فيعاني من هذا التنكر المضني ما يعاني، حتى يوصل الخبر الذي حصل عليه إلى من يتصل بالخليفة، يوماً

(١) كتاب الفرج بعد الشدة ٢ / ٨٥ .

بيوم ؛ ولم يكن من السهل أن يتم هذا إلا عن طريق فكرة مركبة معقدة متقنة مثل هذه .

وبعد :

فإنه حتى في أمر التجسس ، وبث العيون - كما رأينا - لم يكن الغرب سابقاً في وسائله لحماية كيان دُوَلِـه ، فقد عرف المسلمون والعرب هذا الفن ، وأتقنوه قبل أولئك الغربيين ، ولو تُعُمّق في دراسة هذا الجانب لجاء بنتائج ممتعة .

# رضى الناس(*)

جملة : «رضى الناس غاية لا تدرك» جملة تتردد على ألسنة النَاسِ كثيراً، لأنها تعبر تعبيراً صادقاً عما يمر بالناس يومياً مما تصدق عليه، وما تمثله؛ وهي جملة قصيرة موزونة، فصيحة معبرة، سهولتها على اللسان، واستحالتها على النسيان، تجعلها تأتي لنجدة من يعبر عن الحالة التي تصدق عليها، والأمثال هي أكثر التعبيرات إختصاراً لما يريد الإنسان أن يفصح عنه، وما يريد أن ينقله للناس على جسر المفاهمة أو الشكوى، أو الاعتذار.

ولو تنبه أحدنا أسبوعاً واحداً لهذا التعبير لرآه يتردد كثيراً دون أن يحس الناس بكثرة ترداده، ومرور مركبته على أذهانهم وألسنتهم، ولو دون هذه المرات التي يطل هذا التعبير برأسه منها لعجب من كثرتها، ولتمتع بالحالات المختلفة التي يقال عنها.

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٧٦) في ٢٣/٩/١٤١٤هـ الموافق ٥/٣/١٩٩٤م.

فإن كنت موظفاً، وراجعك من يريد قضاء حاجة لا يرى إلا قضاءها، وحاولت إقناعه بأن النظام لا يسمح باعطائه ما طلبه، وليس فيه رخصة يمكن أن يدخل منها للاستجابة لما أمّلَه، وجدت أنه لا يخرج راضياً ولسانك حينئذ يقول: رضى الناس غاية لا تدرك.

وإذا كلفك أحد أمراً لا تطيقه، وحاجته له ملحة، ولكن الأبواب أمام ما كلفك به موصدة بمزلاج من فولاذ، لا تستطيع أن تتخطاها لاستحالة الأمر، فإنه ينصرف ونفسه محملة باللوم والعتب، وتجد أنك تتنفس الصعداء لأن المثل القائل رضى الناس غاية لا تدرك، أعطاك نفثة صدر تنفس عنك ثقل ما قد حملك به، وراح وتركك تعاني مكابدته.

هذا نوع من موحيات هذا القول، وهناك نوع آخر، وأهميته فائقة، فأنت إذا مدحت شخصاً لم تعدم من يلومك على مدحه، لأن لديه من الأسباب ما يقتضي مخالفة رأيك كله أو بعضه.

وأنت لو لبست ثيابـاً رأيت فيها ما قد لا يراه الآخرون فقد تجد من ينتقدك ، وقد تجد من يعجب بما تبنيت للهدف الذي أردت ، وينقسم أصحابك إلى قسمين قسم يرى خروجك عن المألوف خرق ، حتى ولـو كان ذلـك لفائدة أرتأيتها ، وقسم يقدر فيك الشجاعة ، إذا راعيت الفائدة ، ولم تعبأ برأي الـذين ضحـوا بها للعـادة والتقليد ، ويقدر فيك مخالفـة القـاعدة التي سار عليها الناس وحمدوها ، وهي : كل ما يعجبك وألبس ما يعجب الناس .

وما دمنا دخلنا على مائدة الأكل ، فإنك لو أكلت كما اعتاد الناس أن يأكلوا فلن تعدم في يوم من الأيام أن ترى من شذّ عنهم ، ولسبب منطقي اختط لنفسه خطة مخالفة لهم ، وهو لن يرضى عنك ولا عنهم ، وسيدخل في إطار الجملة الذهبية : «رضى الناس غاية لا تدرك» .

عندما كان معالي الأخ الدكتور محمد عبده يماني وزيراً للإعلام خالف مرة القاعدة فقصد التجديد

والتغيير، فعرض مسلسلاً من غير البلد الذي اعتاد الناس أن يشهدوا مسلسلاته، وتغيرت الوجوه في المسلسل الجديد، واختلف الأسلوب، وحل الجد محل الهزل الذي كان في بعض المسلسلات قبله، ولم يكن في هذا من المدّ والإضافة التي لا داعي لها مثلما كان في المسلسلات السابقة، فاختلفت تجاه هذا نظرات الناس، وكنا في استقبال أحد رؤساء الدول في المطار القديم، فلما نهضنا من مقاعدنا في ردهة الاستقبال متجهين إلى الساحة قال أحد الأخوان الوزراء للدكتور محمد عبده: لقد أحسنتم باختيار هذا المسلسل الجديد، الذي اتسم بالجد، ومعالجة أمور اجتماعية مهمة، وأرجو أن يكون هذا فتحاً جديداً. وكنتُ بجانبه أسمع هذا المدح والاطراء.

ثم خطونا خطوات خارج المبنى، أمتاراً قليلة، فتصدى للدكتور محمد عبده شخص آخر، وأمطره وابلاً من النقد المر، والتجريح الدامي على هذا المسلسل المتدني في مستواه، الجاف في حوادثه المظلم في معالجة ما تطرق له، ووصفه بأنه لا

يختلف عن نصائح الأمهات للصغار، مع دمامة في الممثلين، وتقدم في أعمارهم، مع منكر اللغة، وغرابة اللهجة، وخلا من إضاءة الابتسامة، فلا طرفة ولا إشاعة ضحكة، إنه موكب حزن، ومسرح مأتم، والتليفزيون للترفيه وليس «للتَّحْزِين» !

عند ذلك التفت إليّ الدكتور محمد عبده، وقال : «هيّا أشهد»، رأيان متناطحان، وقولان متناقضان، في حدود خطوات، إن رضي هذا سخط هذا، ثم أردف : صدق من قال : رضى الناس غاية لا تدرك» .

لو درست تراجم العلماء، والمؤرخين والخلفاء والحكام والقادة لم تجد الاتفاق تجاههم، فهناك رأي المادح المبجل، وهناك رأي المنتقد الثالب، ولا يعدم هذا الدليل والتعليل، ولا يعدم هذا الحجة والسبب، ولو سمع من قيلت فيه هذه الآراء ما قيل فيه وعنه لدهش، وليس له مناص من أن يقول : رضى الناس غاية لا تدرك» .

والشعــراء وشعـرهم ، وقبـول النـاس له على أسـاس من الأسس يقـابله رفض أنـاس آخـرين للشـاعـر نفسـه وشعره على أساس آخر . ويكفى مطالعـة بعض نقـد الشعر ليجد المرء صحة ذلك وصدقه ، وما على الشاعر إلا أن يقول مثل غيره : «رضى الناس غاية لا تدرك» .

تجد أحياناً في مجتمعك أو في مجتمع زمن مضى شخصـاً يقال عنه إنه ثقة ثم يأتي من يطعن فيه ، ويـبرز من عيـوبه ما لم يلمسه من رآه ثقة ، وتجد أحيـانـاً من يقـوّي فلانـا ثم لا تلبث أن تجد من يضعفـه ، وبعض من يُقـوَّى تعرف أنت ضعفه ، وبعض من يُضعَّف تعرف جيداً قوته ، وما لك متكأ راحة أمام كل ذلك إلا أن تقول : «رضى الناس غاية لا تدرك» .

ولو انتقلنا إلى حيز أوسع ، ونظرنا إلى ما يتخذ عالمياً من قرارات ، سواء كانت هذه متخذة من قبل دولة واحدة ، أو من قبل عدد من الدول ، أو جاءت نتيجة دراسة مزمنة قامت بها هيئة عالمية ، أو أجرتها

منظمة دولية، فإن قبولها لا يكون بالإجماع، ولا بد من ساخط يقابل موقفه موقف الراضين، وسخطه رضى القابلين.

وبعض مواقف عدم الرضى التي تأتي مناقضة لمواقف الموافقة والقبول، متوقعة، لأن العقول البشرية غير متماثلة، ولكل إنسان نظرته نتيجة ما جبل عليه، أو ما اكتسبه بالتعليم، أو بنقش العادة، أو بتأثير المصلحة الخاصة، وحماية ميزات مكتسبة، قد تكون من الأهمية بحيث تهدد أساس المعيشة، أو رفاهية عيش لا يفرط فيها.

ورغم سعة المجال هذا، ورغم عالميته، إلا أن مثلنا الصادق المحكم: «رضى الناس غاية لا تدرك» يلبسه المرء ضافي الثوب، مسدل اللباس. فالمثل جملة مرنة تصلح وعاء لكل أمر مختلف عليه بين اثنين أو مليونين أو بليونين من الناس.

ولعل الله سبحانه وتعالى في ترتيبه للكون خلق الناس بهذه الصورة، وهيأ لهم الاختلاف في الأمور

التي يقررونها، ليتذكروا دائماً أنهم بشر، وأن الأعمال الكاملة المرضية ليست أعمالهم، والله وحده هو الكامل، والإنسان ينسى دائماً، لهذا يحتاج إلى تذكير مستمر، يجتث بذور عناده ومكابرته منذ أن يبرض غصنها، وتخضر ورقتها. أو قبل ذلك.

وما دام الأمر بهذه الصورة، وما دام الناس يختلفون بحسب تكوينهم ورغباتهم ومصالحهم، وما تعودوا عليه، وما ربوا عليه، فلا يطمع المرء برضائهم جميعاً، ولا يتطلع إلى إجماعهم في حكمهم إلى ما يعمل، وما عليه إلا أن يقصد رضى الله، وهذا يعطيه الطمأنينة إلى أنه على حق هو ومن وافقه، أما من خالفه فمن المؤكد أنه خارج نطاق الحق والصدق.

واطمئنان القلب حيال تصرف الإنسان في الحياة أمر مهم لإقامة أعمدة السعادة، ورفع سرادقها على أساس صحيح وقوي. والاطمئنان بهذه الصورة يدفع إلى مواكبة العمل الصحيح ودفعه، وفي هذا

مساهمة من المرء في بناء مجتمعه ، وما بناء العالم بأجمعه إلا من هذه الأجزاء المتفرقة في تكونها ، الصحيحة في بنائها ، القوية بتجمعها فيما بعد .

والقلب وما يجول فيه له أهمية على عمل المرء يدفعه أو يعوقه ، ولهذا كلما هيئت أسباب راحته واطمئنانه إلى ما جاء من صاحبه من تصرف ، ساعده على تهيئة أسباب إعطاء المدّ الخير ، ولا يتم هذا إلا بجعل الدين هو أساس المنطق للعمل ، لأن فيه الثقة سواء بانت أسباب التشريع أو حجبت عن عقله المحدود . هذا والله المستعان .

# التكلف والتظاهر(*)

التكلف صفة منبوذة، والتظاهر أمر مرفوض، لا يقبله العاقل، ولا يستسيغه من يمشي في ظل دوحة الدين الحنيف، لأن أساسه خطأ، ومظهره مرذول، لا يأتي بفائدة ويجلب الضرر، المتّصف به محاربٌ من أفراد المجتمع، ومبعد من حظيرته مثل البعير الأجرب، لا يقتصر أذاه على صاحبه وإنما يتعداه إلى الآخرين، وإن وَهِم صاحبه أنه يكسب من ورائه فهو يخدع نفسه ويغشها ويغرر بها، ومع الزمن إذا ثابر صاحبه على ذلك فإنه يوغل في لُجّة هذا البحر فلا يُرجى له منه مخرج، فيصبح التظاهر بخلاف الحقيقة، والتكلف بما ليس صحيحاً، عادة تتمكن منه، وتغرس جذورها في عمق نفسه، فلا يستطيع أن يتخلص منها، أو ينفك من قيودها، حتى إنّه لا يستطيع أن يعرف طريق المظهر الصحيح، أو فعل العمل الطبيعي.

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٨٥) في ١٤١٤/١٠/٧هـ الموافق ١٩٩٤/٣/١٩م.

وهـذا العمـل يأتي عن طريق مركب النقص، فصاحبه يرى أن عمله الطبيعي لا يكفي طموحه في المجتمـع، فيحـاول بالتصنـع أن يكمـل ما ظنـه نقصاً، ويسد ما حسبه خللاً، فيقع في المحذور، فلا هو كسب هذا وقد خسر ذاك.

ومـركب النقص مرض إذا تمكن من الإنسـان استعصى، وقد لا يكون لبرئه أمل، لأنه يستولي على خيـالـه، فيريه الحق باطلا والصحيح خطأ، فيـأتي من العمـل ما كان عليـه أن يأتي خلافـه، ويرتكب ما كان يجب أن يتخذ ضده.

وقـد يأتي مظهر التكلف بصيغة تنطع يترك فيه صاحبـه الـطريق السـوي المستقيم الـذي عليـه الناس، ويسلك طريقاً جانبياً لم يكن له أن يسلكه أو يفكـر فيـه، وقـد يدخله هذا أحيـاناً في دائرة الوسواس المقوتة.

وللتكلف والتـظاهر والتنطع في الأدب العربي أمثلة متعـددة اقتنصهـا الأدبـاء من حيـاة النـاس

ودونوها ليظهروا بشاعتها وشذوذها ، ولكل مثل منها طبيعته ومنْحَاه، وهي تبين طبائع الناس الذين أقدموا على مثل ذلك ؛ وفي المثل الآتي يتبين التنطع في عمل شخص يقدم على الكبيرة، ويتورع من شبهة في صغيرة، والعامة تقول في هذا : «يبلع المخيط ويغصّ بالإبرة» .

ومن أحسن من الجاحظ في اقتناص مثل هذه الطرائف ، وهو من له عين بصيرة تلتقط مثل هذه الأمور ، وهو من الذين حفلت كتبهم بتدوين ما يمر بهم مما يصور المجتمع : حسناته ونواقصه ، يقول الجاحظ :

«ذكر لي عن أبي بكر الهذلي ، قال :

كنا عند الحسن إذ أقبل وكيع بن أبي سودة ، فجلس . فقال : ياأبا سعيد : ما تقول في دم البراغيث يصيب الثوب ، أَيُصلَّى فيه ؟

فقال : يا عجباً ممن يلغ في دماء المسلمين كأنه كلب ، ثم يسأل عن دم البراغيث !

فقــام وكيع يتخلّع في مشيته كتخلع المجنون ، قال الحسن :

إن لله في كل عضو منه نعمة ، فيستعين بها على المعصية . اللهم لا تجعلنا ممن يتقوى بنعمتك على معصيتك »[1] .

ولعــل الجـاحظ لاحظ داء الغيبــة في مجتمعه ، فاقتنص هذا المثل لِيُري شناعة هذا الأمر ، ومدى ضرره لمجتمعه فابرز تعليق الحسن على فعل الرجل السيىء . وممــا يدل على اهتمام الجاحظ بهذا الأمر إيراده نصاً آخر عن الغيبة ، وهو أيضاً جواب على سؤال ألقي على رجل له وزنه في المجتمع ، فأجاب عليه بما أغرى الجاحظ بايراده :

« قال قائــل لإسمـاعيل بن حماد بن أبي حنيفة ، صاحب المذهب : أي اللحمان أطيب ؟

قال : لحم الناس ، هي والله أطيب من الدجاج ومن الفراخ ، والعنوز الحمر »[1] .

---

(١) الحيــوان ١ / ٢٢٥ .

(١) الحيــوان ٥ / ٢٧ .

لقد أجاب هذا العالم بتهكم إجابة أوضحت مدى حب الناس للغيبة، وأكل بعضهم لحم بعض، مما يجدون فيه لذة لا تعدلها لذةُ أكلِ أطيب اللحوم التي عددها، والتي أجابت ضمناً علىَ سؤال السائل.

وقول إسماعيل صادق حقاً، فلا أشهى عند الناس من الغيبة في مجالسهم، فلا يكادون يجتمعون حتى يبدأ تناول الناس بالحق والباطل، ولا تفتأ الكلمة عن شخص تدرج في المجلس، ومن مجلس إلى مجلس، حتى تفقد صورتها الأصيلة، وتتشوه في مسيرها حتى لا يكاد يعرفها المجلس الأول الذي ولدت فيه.

ويستوي في هذا الرجال والنساء، والصغار والكبار، والأغنياء والفقراء، والأصحاء والمرضى، والمتعلمون وغير المتعلمين، وتستوي في هذا الشعوب بأنواعها؛ ويبدو أن في الحديث عن الناس جاذبية مثل رائحة الشواء والأبازير، وهو ما يذكر

يقول الله تعالى : ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾(١) .

والنـاس والغيبة مثل السيل والمنحدر ، فهم لا يكادون يبدؤون حديثاً حتى يجدو الطريق سهلاً إلى من يريدون أن يضعوه على مائدة الشذب والتشريح ، هذا إن لم يبدؤا الحديث رأساً به . وأخبار الصحف ومـا يرد فيهـا عن أشخاص معروفين تكون رافداً يسعفهم بما يحتاجون .

وقـد يأتي التكلف في الحديث ، وتصيد كلمات غريبـة ، وجمل صعبة ، وعبارات مقتسرة ، فيضيع الهدف من الحديث ، فلا يفهم السامع ما قيل ، ولا يصبح للقول معنى ، لأنه في الأصل جسر تعبر عليه الأفكار من المتكلم إلى السامع ، فإذا أغلق طَرَفَا الجسر ، أو اهتزت بعض أخشابه ، فإن الكلام لا ينتقل ، أو يسقط من ثغرات الأخشاب ، فلا يصل إلى غايته .

(١) سـورة الحجـرات ، آيـة : ١٢ .

والمتنطعون في الحديث يضيع عليهم كثير مما قصدوه، وأحياناً يصبحون محل تندر وهزء ممن حولهم، ومن أشهر الأمثلة في هذا ما ورد في بعض كتب التراث مثل النص الآتي:

حدث بشر بن حجر قال: انقطع إلى أبي علقمة النحوي غلام يخدمه، فأراد أبو علقمة الدخول في بعض حوائجه فقال له:

يا غلام، أصَقَعَت العتاريف؟

فقال له الغلام: «زَقْفَيْلَم».

قال أبو علقمة: وما زقفيلم؟

قال له: وما معنى: صقعت العتاريف؟

قال: قلت لك: أصاحت الديوك؟

قال: وأنا قلت لك: لم يصح منها شيء[1].

أبو علقمة لا بد أنه كان مغرماً بتكلف الغريب من اللغة، يتحدث به، وقد بلغ من الخطأ مبلغه إذ تحدث به مع غلام لا يفهم ما خاطبه به، فلجأ

(١) معجم الأدباء ١٢/٢٠٧، أخبار الظراف ١٤٥.

الغلام إلى التكلف ، ونحت كلمة لم يسمعها أبو علقمة من قبل ، فنالته السخرية بهذا من غلامه ، وهو أهل لهذه السخرية لأنه تقعر وتكلف ، ومن تشدد شدد الله عليه ، وسلط عليه أول ما سلط غلامه .

ويبدو أن أبا علقمة قد وقع تحت سحر جاذبية الكلمات الغريبة في اللغة ، حتى أصبحت عادة له ، لازمته حتى في أوقات الشدة التي يذهل فيها الإنسان عن التكلف والتصنع ، ففي قصة أخرى أصر في أحلك المواقف على التمسك بكلمات غريبة على محيطه وأهله ، أما لنا فلم تصبح غريبة اليوم لكثرة ما قرأنا قصته عنها ، والقصة كما يلي :

حدث جعفر بن نصير قال : «بينما أبو علقمة النحوي في طريق من طرق البصرة إذ ثار به مرار ، وظن من رآه أنه مجنون . وأقبل رجل يَعُضُّ أصل أذنه ، ويؤذن فيها . فأفاق ، فنظر إلى الجماعة حوله ، فقال :

ما لكم تكأكأتم علي كما تتكأكؤون على ذي

جِنّة، إفرنقعوا عني، قال بعضهم لبعض: دعوه، فإن شيطانه يتكلم بالهندية»[1].

وتَكَلُّفُ أبي علقمة جعل الأمر عنده عادة متمكنة، وإلا لم يكن ليتمسك بالتمحك، وهو في حال الشدة هذه.

وتمّحك أبي علقمة يوقعه أحياناً في مأزق أقل ما يمكن أن يوصف به أن يضيع عليه غرضه، ويبعده عن الهدف إن لم يحرمه منه كلية. وخطأ أبي علقمة يأتي من أنه يساوي في تعقيد ألفاظه بين الخاصة والعامة، وفي النص التالي يتبين كيف فرّ منه طائر الانتفاع:

أتى أبو علقمة النميري الأعرابيّ أبا زلال الحذّاء، فقال: يا حذّاء، أحذُ لي هذا النّعل.

قال: كيف تريد أن أحذوها؟

فقال: خصِّر نطاقها، وغضِّف «إثن» معقّبها، وأَقِبّ مقدمها «أي أدقها وأضمرها»، وعرِّج ونيّة

(١) معجم الأدباء ١٢/ ٢٠٨.

الذؤابة «ما يصيب الأرض» بحزم دون بلوغ الرصاف، وانحل مخازم خزامها، وأوشك في العمل.

فقام أبو زلال، فتأبط متاعه.

فقال أبو علقمة: إلى أين؟

قال: إلى ابن القرِّية، ليُفسِّر لي ما خفي عليّ من كلامك»[1].

وتتبع السخرية أبا علقمة ما لازم منهجه المتكلف مع العامة، وتأتيه هذه المرة من غلامه الذي لا بد أنه اتخذ منهجاً يقابل به منهج سيده:

قال أبو علقمة لغلامٍ له: خذ من غريمنا هذا كفيلاً، ومن الكفيل أميناً، ومن الأمين زعيماً، ومن الزعيم غريماً.

فقال الغلام للغريم: مولاي كثير الكلام، فمعك شيء؟ فأرضاه وخلاه.

فلما انصرف قال: يا غلام: ما فعل غريمنا؟

قال: سُقَع. قال: ويلك، ما سقع؟ قال:

(١) معجم الأدباء ١٢/٢٠٦.

بُقَع . قال : ويلك وما بقع ؟ قال : استقلع . قال : ويلك ما استقلع . قال : انقلع . قال : ويلك لم طوّلت عليّ ؟ قال : منك تعلمت »[1] .

ويُدخِل أبو علقمة بتكلفه في اللغة خطراً على صحته ، ويفتح باباً على استمرار علته ، بعدم الإبانة في شرحه للطبيب علته ، بسبب إيغاله في غريب اللغة :

« قال عبدالله بن مسلم بن قتيبة :

دخل أبو علقمة النحوي على أعين الطبيب ، فقال له : أمتع الله بك ، إني أكلت من لحوم هذه الجوازل « فرخ الحمام » ، فطسأت : « أتخمت » ، فأصابني وجع من الوالبة « طرف رأس العضد والفخذ أو طرف الكتف » ، إلى ذات العنق ، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الخلب « لحيمة تصل بين الأضلاع » والشراسيف « طرف الضلع المشرف على البطن » ، فهل عندك دواء ؟

---

(١) معجم الأدباء ١٢/٢٠٦ .

فقال أعين : خذ حرقفاً وسلقفا ، فرهرقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه .

فقال أبو علقمة : لم أفهم عنك ، فقال أعين : أفهمتك كما أفهمتني »[1] .

هذا هو أبو علقمة وطرائفه ، وما قابله من صعوبات بسبب غريب لغته ، وقد اعتنى بها الكتاب وسجلوها وتناقلوها وهي بجوانبها المختلفة خير مثال للتنطع والتكلف وما يأتي منهما .

[*]ونكتفي بما أوردناه عن أبي علقمة ، فهو رغم أنه واحد إلا أن ما أتى منه لمس جوانب عديدة من جوانب التكلف في الحديث واللغة في المخاطبة .

وقد يأتي التمحك بالضرر على صاحبه ، وهو ضرر ملازم إذا ألصق به بسبب التمحك اسم غير اسمه ، وهو بلا شك الملوم على ذلك . والقصة التي تصور هذا تجري في هذا المجرى :

---

(١) أخبار الظراف : ١٤٥ .

(*) من هذا تبدأ إضافة على ما نشر في عكاظ .

«كان أبو الفرج الثلاج يتعسف في كلامه . تجاروا يوماً عند أبي جعفر ، فذكر الطبخ ، فقال أبو الفرج : لكنّي أكلت «طَبَاهِقَةً» ، قال أبو جعفر : وما الطباهقة؟ قال : «الطباهجة» ، ألا ترى أن العرب تعمل الجيم قافاً؟

قال أبو جعفر : فأنت إذن «أبو الفرق الثّلّاق» ! فصار يعرف بأبي الفرق الثلاق، ويمزح معه بذلك»[1] .

وقد لا يكون الكلام بطبيعته موغلاً في الغرابة ، أو متكلفاً ، ولكنه كذلك إذا خوطب به العامة ، فتكون النتيجة واحدة ، لأن هدف التخاطب يعدم فائدته ، فلا السامع يفهم ما يقال ، ولا القائل يوصل المعنى المراد إلى المخاطب ، وبهذا يقع المحذور .

قال الكسائي : «حلفت ألا أكلم عاميّا إلا بما يوافقه ، ويشبه كلامه . وقفت على نجار ، فقلت :

---

(١) معجم البلدان : ١٨/ ٩٣ .

بكم هذا البـابان؟ فقال: بسلحتان يا مصفعان. فحلفت ألا أكلم عاميًا إلا بما يصلح»[1].

لقد احتاج الكسائي إلى تجربة ليدرك أن مخاطبة العامة تختلف عن مخاطبة الخاصة، وأن لكل مقام مقال، وأن عليه أن ينسى علمه عندما يخاطب من ليس في درجته من العلم، وأن عليه أن ينزل إلى مستوى من يخاطبه إذا أراد له أن يفهم، وإذا أراد لنفسه أن يبعد عما قد يدخله في موقف تهكم كما حدث.

وقد لا يكـون التكلف والتعمـل والتظاهر في القول آت من غرابة الكلمات، ووحشي الكلام، ولكنـه في زيادته عن السداد، وإيغاله في الإفراط والعنـايـة؛ والتكلف لا تكـون النية معه حسنة، ولهذا يحبط العمل.

كتب زياد بن عبدالله الحارثي إلى المنصور يسأله الزيادة في عطائه وأرزاقه، وأبلغ في كتابه، فوقع

(١) أخبار الظراف: ١٤٥.

المنصور في القصة : «إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجل أبطراه، وأمير المؤمنين يشفق عليك من ذلك، فاكتف بالبلاغة»[1].

لقد اتخذ المنصور إعتناء زياد في كتابه حجة عليه ليحرمه مما طلبه، ولعل المنصور يجد حجة أخرى يحرمه بها لو لم يبالغ في الكتابة، لأنه يبدو أن المنصور يتلمس الأعذار لعدم الاستجابة لطلبه، فوجد في هذا بغيته، ولعل زياداً لو اختصر كتابه، واقتصر فيه على المطلوب، بعبارات وجيزة لاتخذ المنصور هذا الاختصار سبباً للحرمان.

والنص التالي فيه من طبيعة النصوص السابقة في أنه يجعل من الصعب على السامع فهمه، إلا أنه قد لا يكون متكلفاً إذا كان مما هو متداول في بيئة المتكلم، خاصة وأن بعض مناطق الجزيرة المنعزلة المنقطعة فيها من اللهجات ما يصعب فهم مفرداته، وقد يكون النص مفتعلاً :

---

(١) البخلاء للبغدادي : ٦٦ .

«قال الخطابي في غريب الحديث:

قالت جارية لأبيها: «يا أبت اشترِ لي لُوطاً أغذِّي به فَرْعَلِي، فإني قد عَتَقْتُ».

قال: اللوط الرداء، والفرعل الشعر، وقولها: عتقت تريد قد أدركت»[1].

---

(١) تحفة العروس ١٨٧.

# غزو القلوب(*)

طبيعة القلوب الرقة إلا ما نَبا منها وشذّ، وهي محط العطف، وهي سريعة التأثر من اللمسة الحانية، تنفتح على مصراعيها عند نسمة الحنان، يعول عليها في دَمْل الجروح، وبرء الآلام النفسية.

حياة الناس ملأى بأمثلة التأثر من جراء عمل خير لمستهم شآبيب سحابه، وبل جفاف ظروفهم عذب مياهه، هذا كان نصيب لمسة قلبه في حزن أصابه، وهذا في مال احتاجه، وهذا في كربة عرضت له، وهذا في مصيبة ألّمت به، وهذا في عسرة مرت به. وهذا في كلمة عابرة سمعها فيها ذخر لمستقبل، وأمل فيما سيأتي من الزمان.

قد يتأثر القلب من عطف حاكم، أو إنصافه، وقد يكون ذلك من مد كريم يده بما أزاح كلكل ضائقة مالية وقد يكون وراء التأثر اعتبارٌ أعطي لما

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٩٢) في ١٤/١٠/١٤١٤هـ الموافق ٢٦/٣/١٩٩٤م.

يحتاج إلى اعتبار ، أو التفاتة يحتاج الظرف فيها إلى إلتفاته .

وقد تأتي ملامسة القلب من منْظر سام جميل اتخذ قدوة ، لدين إلتُفِت له ، أو خلق تُنُبِّه له ، وللقدوة السامية تأثير سحري على من لينّ الله قلبه ، وأنارَ بصيرته ، فترجم ما يرى إلى ما يقنع .

والكلمة في مكانها ، والحجة في موقعها ، تلمس شغاف القلب ، وتتعمق فيه ، فيأتي من القلب مردود في مستواها ، فيتشابه النّبل بين المعطي والمتلقي ، وتكون النتيجة حميدة .

سوف أقتبس من التراث بعض الأمثلة التي تلمس بعض الأمور التي لامست القلوب من جانب آخر ، فجاء منها تقدير وتأثير .

روى ابن عباس : ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة والياً ، وكأن وجهه ورقة من ورق المصاحف ، فوالله ما ترك فينا عانِياً إلا فكّه ، ولا غريباً إلا أدّى عنه ، ينظر إلينا بعين أرق من الماء ،

ويكلمنا بكلام أحلى من الجني .

ولقد شهدت منه مشهداً لو كان من معاوية لذكرته به : تغدينا عنده يوماً ، فأقبل الخباز بالصحفة فعثر بالوسادة ، فندرت الصحفة من يده ، فوالله ما ردّها إلا ذقنه ، وصار ما فيها في حجره ، ومثل الغلام قائماً ما معه من روحه إلا ما يقيم رجله .

فقام (الوليد) فدخل فغيّر ثيابه ، وأقبل إلينا تبرق أسارير وجهه ، فأقبل على الخباز فقال :

«يا بائس ، ما أرانا إلا قد روعناك ؛ أنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى !»[1] .

لقد نصب الوليد شباكاً لصيد القلوب متقنة ، لم يفلت قلب واحد من تلك القلوب القابلة للمسة الحنان ، صاد بعض القلوب بشباك فك العاني ، والأداء عن الغريم ، واعترض طريق القلوب بقول أرق من الماء ، واستولى على الأفئدة بكلام أحلى من

(١) ربيع الأبرار ٢/١٣ .

العسل . وطبق هذا بالمنظر الذي وصفه الراوي ، وفيه سيطر على قلوب الحاضرين على مائدته ، ناهيك بالغلام وعائلته .

وليس كل إنسان يملك مثل هذه الشباك المتقنة .

ويسبق الرسول ﷺ صائدي القلوب بما يأتي منه من مظاهر الشفقة والرحمة ، ووقائعها التي لا تكاد تحصى ، وسوف نكتفي بواحدة :

عن قيس بن حازم قال :

جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فأصابته رعدة فقال النبي ﷺ : «هوّن عليك ، فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[1] .

إنه ﷺ أكبر عالم نفسي ، لقد أوقف وجيف هذا القلب ، الذي خفقت أجنحة طائرِهِ ، بكلمات منتقاة ، ذكّر بها الرجل بما كان غافلاً عنه ، ورسم له صورة أدخلت الطمأنينة إلى هذا القلب الخائف ، إنه ﷺ ابن امرأة عاشت مثل ما عاشت

---

(١) عيون الأخبار ١ / ٣٨٦ .

أمهُ ، فلم تكن من غير البشر فيفزع من ابنها . إن هذه الكلمة لمست شغاف قلب الرجل ، فقد كانت كلمة حنان دافئة أزالت البرودة التي ركبت الرجل عندما جاء إلى الرسول ﷺ ، وتجمع في ذهنه في تلك اللحظة كل ما كان يسمعه عن الرسول ﷺ وهيبته ، وتقدير من حوله له .

والقدوة الحسنة يضع الله فيها بركة من عنده ، تأتي لمن يريد له الخير بنِعمٍ فضلى ، وتكون سبباً لخير لم يكن متوقعاً :

«اجتمع ببغداد عشرة فتية على لهو ، فبعثوا أحدهم في حاجة ، فرجع وفي يده بطيخة يشمها ويقبلها ، فقال : جئتكم بفائدة : وضع بشر الحافي يده على هذه البطيخة ، فاشتريتها بعشرين درهما ، تبركاً بموضع يده ، فأخذها كل واحد منهم يقبلها ، ويضعها على عينه .

فقال بعضهم : ما الذي بلغ بشراً ؟ قالوا : تقوى الله ، والعمل الصالح . قال : فإني أشهدكم

أني تائب إلى الله، وإني داخـل في طريقـة بشر، فوافقوه على ذلك، وخرجوا إلى طرسوس، واستشهدوا»[1].

القـدوة الحسنـة كانت وراء هذه التـوبـة، وكـانت هدايـة الله لهؤلاء الفتيـة الذين دأبوا على الاجتـماع على المعصية مهيأة فتداركتهم، ونقلتهم من حضيض المعصية إلى قمة الطاعة، وانتهى بهم الأمر مجاهدين في سبيل الله، وقتلوا فيه.

والعمل الطيب يعلن عن نفسه، ويلحظه حتى غير المسلم ويقدره، ويكون فيه مفخرة للمسلمين أجمـع، رغم أنـه من فرد بين مجموعة عملت على خلاف عمله، فإذا كان عمله حميـداً فعملهـا غير حميد، ولهذا سطع نور العمل الحميد، وقدر حق قدره، ونور الحق لا تغلبهُ ظلمة الباطل:

«خرج محمد بن واسع إلى خراسان مع قتيبة، فرعـوا الزرع، وأخذ هو بعنان فرسه، يتخلل به

---

(١) ربيـع الأبـرار ١/٢٧٣.

الأوديـة ، فقـال له دهقـان القـريـة : أنت الـذي أهلكتني ، فقال : كيف؟ قال : لولاك لهلك هؤلاء»[1] .

محمـد بن واسـع يجاهـد نفسـه قبل أن يجاهد الأعداء ، أجبر نفسه على أن تركب الصعب لرضاء الله ؛ أخذ يتخلل بها الأودية الصعاب ، والشعاب المتعبة ، حتى لا يخالف الشرع باختصار الطريق ، وسلوك السهـل منـه ، باختراق مزارع الذمّيّين ، وإتـلاف مزروعاتهم ، مثلما فعل بقية جند قتيبة ، وهو أمر لا يستغرب من جند في طريقه إلى المعركة .

والـدهقان قدر أن «الراحمون يرحمهم الرحمن» وأن هؤلاء الجند لم يرحموه هو وأمثاله ، وكان يتوقع لهم عدم النصر ، لكن الله أكرمهم بقبول عمل محمد ابن واسع .

وتعرف مدى عمق عقل محمد بن واسع عندما تزن رده على قتيبـة بن مسلم لما دخـل محمد عليه

---

(١) ربيع الأبـرار ١/ ٦٩٢ .

وعليه جبة صوف ، فقال له قتيبة : لم لبستها ؟ قال : «أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي ، أو أن أقول فقراً فأشكو ربي»[1] .

إنها كلمات نبع الإيمان .

ويلمس حاكم شغاف قلب رعيته بحنانه ، ورعايته لهم ، بتلمس السبل لراحتهم ، بنشر العدل بينهم ، وعندما حرم من الوسيلة الطبيعية لذلك عمد إلى حيلة يصل بها إلى هدفه ، حتى لا تنقطع عادته ، ولا يستسلم لهذا العيب الذي حل به ، هذا الحاكم هو أحد حكام الهند يقول عنه الأستاذ علي الطنطاوي :

«حيث إن لباس عامة أهل الهند البياض ، فجعل لباس الثوب الملوّن علامة التظلم والشكوى ، فمن ظلمه أحد كائنا من كان لبسه ، وعرض له في أي مكان فأنصفه من ظالمه ، ثم خاف ألا يرى المظلوم فجعل على باب قصره جرساً كبيراً يقرعه المتظلم في أي ساعة من ليل أو نهار»[2] .

---

(١) ربيع الأبرار ١/٦٩٢ .
(٢) رجال من التاريخ ٢٤٠ ، تسهيل النظر ٢٨٦ .
(قارن هذا بما ذكره صاحب سراج الملوك ١٧٤) .

ويطل غضب برأسه، فتقابله لمسة عقل يكون لها تأثيرها على قلب الخليفة، وهذه اللمسة لا تعدو أن تكون كلمة منطق، والعقل السوي يغلبه المنطق، وقد حدث شيء من هذا بين هارون الرشيد وأحد رجاله:

«قال الرشيد ليزيد بن مزيد في لعب الصوالج: كن مع عيسى بن جعفر، فأبى، فغضب الرشيد، وقال: أتأنف أن تكون معه؟ فقال: حلفت على ألا أكون على أمير المؤمنين في جدّ ولا هزل، فسكن»[1].

ظن الرشيد في أول الأمر أن يزيد يترفع عن اللعب مع عيسى، فاستشاط غضباً، وحق له ذلك، ولكن ما إن أبان له يزيد الأمر حتى هدأ، لقد كان السبب أقوى بكثير من غضب هارون الرشيد، لقد أكد عمق الولاء، مما لا يوحي بالتصنع أو المحاباة. إنها لحجة لبيب أريب، لمس بها قلب هارون الرشيد فهز فيه خصلة التسامح

(١) محاضرات الأدباء ٢٨.

والرضى.

وتنفذ كلمات رقيقة موزونة إلى قلب خليفة يقدر مثل هذه الكلمات، ويعرف مدى مراميها، وتأتي في وقت قلب الخليفة متعطش إلى مثل هذه الكلمات، خاصة وأن مجيئه إلى الملك كان في ظل ظرف لم يكن محمود الجوانب:

حدث أبو الوداع قال:

أول كتاب ورد على المأمون بالخلافة كتاب الحارث بن سباع الخراساني، فإنه كتب إليه:

«قد أظلّنا أمير المؤمنين بخلافته، تحت جناح الطمأنينة، وبلغنا بها مدى الأمنية، فأدام الله له من كرامته ما يتطمأن له أقاصي وأداني رعيته، وجعله أعز خليفة، وجعلنا أسمع وأطوع رعيته.

فقال المأمون للفضل بن سهل: أتعرف ما قيمة هذا الكلام؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قال: تلقيك له بالسرور. فأعجبه قوله واستحسنه»[1].

---

(١) المحاسن ٤٤٤.

## من لا سفيه له(*)

السفه خدين الجهل، والسفه والجهل أمران مكروهان في المجتمع، والمتصف بهما منبوذ، لأنه يتصف بصفة نهى عنها الدين، فالحلم وسعة الصدر، والعفو والتسامح هي الصفات التي يحث عليها الدين، وتتماشى مع الخلق الإسلامي، لأن سعادة المجتمع في المدى الطويل في تلك الصفات الحميدة، وليست فيما هو ضدها؛ فالتسامح والتغاضي عن الخطأ يطفىء ناراً أريد لها أن تتأجج في ساعة غضب، وسعة الصدر تعطي مدى واسعاً لأضعاف الخطأ تدريجياً حتى يخبو أواره، والعفو يملأ نفس صاحبه بالرضى والطمأنينة، ويبرم طوق منّة في عنق المعفو عنه، لا يرجى منه بعد ذلك إلا الخير.

هذا هو الأمر المتعارف عليه في الخلق الإسلامي، وماجربته مجتمعاته فحمدته، وما تبعه الصالح من

---

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠٠٩٩) في ٢١/١٠/١٤١٤هـ الموافق ٢/٤/١٩٩٤م.

أفراده فجنوا ثماره، وحمدوا أوائله وأواخره، ورأوا أنه يعود عليهم بالخير العميم، والكسب الصافي.

ولكن للأمر جانب آخر عالجه من تعرض له، وسجله من علمه، فجاءنا في التراث يشهد بنظرتهم إليه، ومعالجتهم له، إذ أنه داء يضعف البناء الذي ذكرنا قوته، والصرح الذي أبنّا شموخه. لأن بعض السفهاء لا يصلحه إلا سفيه مثله، ومن يجهل لا يقف أمامه إلا جاهل مثله، وقد أكدت التجربة هذا مع بعض الناس، والنصوص الآتية تشرح هذا، وتَعَدُّدُها وتواترها يؤكد أنها كانت تقلق المجتمع، وأنها ظاهرة استحقت أن تدرس، وأن تُعطَى من التفكير والتدبر ما تستحقه، وهذه النصوص تبين الأقوال والأفعال في هذا، فمن الأقوال ما يأتي:

قال الأحنف بن قيس:

«لا حلم لمن لا سفيه له». [1]

---

(١) العقد الفريد: ٢/٢٨٠، ١/٩٥.

فالأحنف هنا يعتقد أن الحلم واجب مع كثير من الناس ، إلا أن الحلم يجب أن يكون بجانبه حارس فظ يدفع عن حوضه الأذى ، وهذا يسير مع قول استشهد به الإمام زين العابدين ، وهو :

تعدو الأعادي على من لا خفير له

وتتقي مربض المستأسد الحامي(١)

وبهذا يصبح السفيه بجانب الحليم حامياً له من السفهاء الآخرين ، لأن الطبيعة واحدة ، وسفيه يعرف جيداً كيف يتعامل مع سفيه آخر ، وهذا يوفر على الحليم كرامته ، فلا يخدش جوهرها ، ولا يلمس عزتها ، ولا يزهِّد صاحب الحلم في حلمه ، أو يخرجه عن وضعه المعتاد المحمود :

والبيت السابق يرويه وكيع هكذا :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له

وتتقي سورة المستنصر الحامي(٢)

---

(١) رحلة الشتاء والصيف : ٨ .

(٢) أخبار القضاة : ٢ / ٢٩ .

ويأتي به في صيغة أخرى مختلفة رواية عن شريك :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقي سورة المستدفئ الحامي[1]

وفي مكان آخر من كتابه يأتي به بصيغة رابعة :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقي حوزة المستدفئ الحامي[2]

ولعل كلمة «المستدفئ» هذه محرفة عن كلمة «المستأسد» التي جاءت في البيت الأول .

وأمر السفه والسفيه يبدو أنه يشغل ذهن الأحنف ابن قيس ، ويقلقه ، ويأخذ من تفكيره ما جعل له فيه أكثر من قول ، أولها القول السابق ، وثانيها قول قوي أيضاً في أمر السفيه تناقلته الألسن ، وسجله الأدباء ، يقول الأحنف :

«ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا» .[3]

---

(١) أخبار القضاة : ٣/١٥٤ .
(٢) أخبار القضاة : ٣/٢٤٧ .
(٣) العقد الفريد : ٢/٢٨٠ ، ١/٩٥ ، المستطرف : ١/٣٤١ .

والأحنف هنا يعطي لوفرة السفهاء في مجتمع مظهر العزة، ودليل القوة، ولعل منطلقه هنا أن سفه السفيه، يأتي بفائدة للقبيلة وقت الحروب، لأن فعل هؤلاء فيه وقاح تعودوا عليه، ولم ينقطعوا عنه سلماً ولا حرباً. وكانت العربُ تمتدح عرامة الطفل، وكثرة أذاه في صغره، وتحرُّشَه بالآخرين، وتنظر إليها أنها بوادر خير، سوف تنمو معه، وفي المستقبل يكون له شأن، وسوف يطمئنون أنه سوف يذود عن القبيلة، ويحمي نفسه، فلا يكون عالة على الآخرين يذبون عنه، ويحرسونه.

ويقول الأحنف منشداً أو مستشهداً:

وذي ضغن أبيت القول عنه
بحلم فاستمرّ على المقال
ومن يحلم وليس له سفيه
يلاق المعضلات من الرجال[1]

وهنا تتبين الصورة أكثر بما باح به الأحنف،

(١) المستطرف: ١/٣٤٢، ربيع الأبرار: ٤/٣٥٥.

فخلقه وحلمه اللذين اشتهر بهما يمنعانه من مجاراة السفيه، والرد عليه، والنزول إلى مستواه، وإهفاء مركزه الاجتماعي في السير في الجادة التي اختارها.
ولكن الأحنف ينبه إلى إن الحلم لا بد له من حارس، فإن لم يكن هناك حارس فإن الحليم سوف يعاني بسبب حلمه مع السفهاء. وهو يرسم هنا فضيلة، ويحث على الإلتزام بها، ولكنّ لها تابعاً لا بد أن يراعى، وبدونه فالحلم في خطر.

ويبدو أن هذه القاعدة معروفة، ومراعاة في ذلك الزمن، وما ترددها بصيغ مختلفة إلا تذكير بها، وحث على التمسك بها، وعدم التفريط فيها، لأنها قاعدة ذهبية، وتستحق ما تُعطَى من اعتبار.

والدليل على الإعتراف بها، وانتشارها ما ورد فيها من شعر سبق ذكره، وتضيف الأبيات الآتية التي جاءت على لسان الأحنف بن قيس صورة أخرى:

لا بد للسؤدد من رماح
ومن رجال مصلتي السلاح

يدافعون دونه بالراح

ومن سفيه دائم النباح[1]

ولم يجد الشاعر أن الرماح المشرعة ، والسلاح المصلت ، بأيدي الأبطال تكفي لحماية السؤدد ، الذي من بعض مستلزماته الحلم ، ولا بدّ للأمر من سفيه نِبَاحُهُ دائم في وقت السلم الذي لا يكون فيه للرمح والسيف دور ، والدوام في إعمال عمل السفيه مهم ، حتى لا يطمع الطامع ، ويكون الموقف موقف هجوم لا دفاع .

قال الشاعر :

ولا يلبث الجهال أن يتهضّموا

أخا الحلم ما لم يستعن بجهول[2]

والصورة تري تكالب الجهال السفهاء على الحليم ، والإنقاذ يأتيه من سفيه يستعين به عليهم ، يكون له درعاً يتقي به جهلهم ، وسلاحاً يصد به

(١) انظر أيضاً ربيع الأبرار : ٤/٣٥٥ ، العقد الفريد : ٢/٢٨٠ .
(٢) المستطرف : ١/٣٤٢ .

هجمتهم ، وقلعةً يحتمي بها من صولتهم .

ولشاعر آخر نظرتُه إلى هذا الأمر ، يدلي فيها مع الآخرين بدلوه فيقول :

فإن لم تجد بدّاً من الجهل فاستعن
عليه بجهال فذاك من العزم[1]

وهذا الشاعر لم يرد أن يجزم بأن المرء يجب أن يستعد من أول الأمر للسفيه ، ولكن يكون مستعداً بالأداة ليعملها إذا رأى ضرورة لذلك ، وَوَصَفَ هذا الاحتياط ، لما قد يحدث ، أنه من العزم .

ويحتار عبدالله بن المقفع في السفيه ، ولكنه لا يرى مجاراته ، ولعله يأخذ بالحكمة التي وجدها غيره في القول السليم : «إذا عضك كلب فهل تعضه ؟» ، ويقف عند هذا الشطر من الموقف ويحمد عدم مجاراة السفيه ، ولكنه لم يتطرق إلى الطريق الذي اهتدى إليه الأحنف وغيرُه من إعداد العدة للسفيه المهاجم بسفيه يكون ترسا أمام هجومه ، وسيفا أمام

(١) المجتنى : ١٠٢ .

ٱندفاعه ، وقول ابن المقفع في قوله هذا يعلل ويبين أسباب فضيلة عدم الرد على السفيه بقوله :

«واعلم أنك ستبلى من أقوام بسفه ، وأن سفه السفيه سيُطِعُ لك منه حقداً ، فإن عارضته أو كافأته بالسفه فكأنك قد رضيت ما أتى به ، فأحببت أن تحتـذي على مثاله ، فإن كان ذلك عندك مذموماً ، فحقِّق ذمّك إياه بترك معارضته ، فأما أن تذمه وتمثله فليس في ذلك لك سداداً» .[1]

ويأتي بيتان لأبي البراء عامر بن مالك نفثةً حارقة من صدر ممتلئ بالجور ، وقلة الرعاية للمقام والسن . فأبو البراء لما أسن ضعفه بنو أخيه وخرّفوه ، ولم يكن له ولد يحميه ، فأنشأ يقول :

دفعتكم عـني وما دفـع راحـة
بشيء إذا لـم تسـتعن بالأنامل
يُضعِّفني حلمي وكثرة جهلكم
عليّ وإني لا أصـول بجاهل[2]

(١) الأدب الكبير : ١٠٨ .
(٢) العقد الفريد : ١/١١٨ .

دفاع أبي البراء وحده ليس من القوة بمكان، وأعطى صورة معبرة عن انعدام الأعوان من أولاده عنه براحة الكف التي ليس لها أنامل، فرسم صورة للمحاولة اليائسة يصاحبها الضعف، ثم عانق في آخر شطر البيت الثاني بقية الحكماء من متكلمين ومن شعراء، فذكر حقيقة أنه لا يقدم على أعدائه بصولة جاهل غِرٍّ لم تقيده ميزة الحلم وسعة الصدور، وإنما يقوده لجام صغر السن، وقلة التجربة، والغفلة عن التحرز، والنظر للفوائد البعيدة.

ويبدو أن بني هلال قد قدروا أهمية السفيه، وعرفوا فضله، فأطلقوا له العنان على آخرين آذتهم سفاهته، فعادوا باللوم على بني هلال في ذلك، وقد يكون بنو هلال أبدوا اعتذاراً بأنهم غير مسؤولين عن سفاهته، إلا أن عذرهم لم يقبل من أولئك الذين رزحوا تحت عبء سفاهة سفيه بني هلال، فقال لهم شاعرهم:

بني هـلال ألا تنهـوا سـفيهكمُ
إن السفيه إذا لـم ينـه مأمور[1]

ولعل هذا السفيه لم يكن مأموراً فقط بل مأجوراً ، إذا كان بهذه المقدرة في إقلاق الفريق الثاني ، وشغله إلى هذا الحد الذي أوجب الشكوى ، وأجبر الشاكين على بث همهم إلى بني هلال .

أما ما يخص الأفعال في هذا الجانب فيمثله موقفان مع عبدالله بن عمر : فلابن عمر موقف مع سفيه ، لم يتعادل فيه أدب ابن عمر مع سفه هذا المتعدي السفيه ، ولم يتكافأ فيه حلمه مع جهل هذا ، فقيض الله لابن عمـر من عَدَل الموقف ، ورجَّح الكفة ، وأخـذ لابن عمـر حقه . ولا ندري ما هو موجب الاعتـداء من قبل هذا السفيه ، ولا ما الذي أثاره على ابن عمر حتى أقدم على هذا التصرف الأحمق ، والخطأ والجهل الذي جاء من أعرابي على ما يذكر فيه من جفوة الأعراب ما قد يوحي بخطأ في الفهم

(١) بهجة المجالس : ٢/ ٦١٩ .

قاد الأعرابي إلى فعل ما فعل، وارتكاب هذا الحمق الفاحش، مع هذا الرجل المحترم في مجتمعه، العالي في نسبه، الفائض في علمه، والوافر في شرفه ونبله:

«بينما ابن عمر جالس، إذ أقبل أعرابي فلطمه، فقام إليه رجل، فجلد به الأرض، فقال ابن عمر: ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه»[1].

ولعل ابن عمر - رضي الله عنه - قد أخذ من هذا الموقف درساً، فأخذ يحتاط للأمر، فلا يعرض نفسه لموقف ذلة دون أن يكون قد أعد العدة للدفاع عن نفسه بسفيه يكون جاهزاً للتصدي للموقف عند اللزوم:

«كان عبدالله بن عمر إذا سافر معه بِسَفيه، فقيل له في ذلك، فقال: إن جاءنا سفيه ردّ عنا سفهه، لأنا لا ندري ما نقابل به السفهاء»[2].

---

(١) محاضرات الأدباء: ٩٦، ربيع الأبرار: ١/٦٦١.
(٢) بهجة المجالس: ٢/٦٢١.

إن عبـدالله بن عمر يعطي هنا القوس باريها، ويراها مهنة لا يجيدها إلا ممتهنها، والعارف بأصولها، والمتدرب على حسن الإتيان بها، وإتقانها.

إن المتمعن في هذا الأمـر يجد أن بعض أنـواع الحراسة تدخل في هذا الباب من طريق أو آخر، أليست مهنة، تحتاج إلى استعداد وقابلية، وتدريب وتمرين وتجربة؟ ومن هنا راج سوق «الأبضايات» و «المشكل» و «الزعرور» و «النزغة» كما تعبّر عنهم المجتمعات العامية.

# نضج مبكر (*)

العقـل في الجسم السوي ينضج مع تقدم سن صاحبه ، ولنمو العقل مع نمو الجسم مقياس يتراوح بين درجة ودرجة علوّاً وانخفاضاً في حدود المعدل ودفتيه ، ولكن يشذ أناس عن هذه القاعدة ، فيظهر النضج العقلي عندهم قبل الوقت المتوقع ، فيأتون قولاً وعملاً بما يدهش من حولهم ، فيتناقل الناس هذا النضـج المبكـر باستغـراب أو اعتـزاز ، وقد يغبطون على ذلك أو يحسدون .

وقد يكون للوراثة دخل في هذا كما هو ثابت من بعض الأمثلة ، مما يجعـل المشـاهـد يقول : «هذا الغصن من تلك الدوحة» ، أو «الذهب من معدنه لا يستغـرب» ويقول العامة : «ابن الوزّ عوّام» ، ويقول الأقدمون : «من شابه أباه فما ظلم» .

---

(*) نشرت في صحيفة عكاظ في السبت ٢٨/١٠/١٤١٤هـ الموافق ٩/٤/١٩٩٤م بالعـدد (١٠١٠٤) تاريخ الصحيفة خطأ في هذا اليوم جاء (الخميس ٢٦/١٠/١٤١٤هـ / ٧/٤/١٩٩٤م).

وقد يكون مع الوراثة قدوة تحتذى في محيط ينمي الملكات عند الناشئين ، فغلام يعيش في محيط علماء غير من يعيش في بؤرة جهل . وقد يكون هناك ممن حول الغلام من اعتنى به ، وأرضعه لبان المعرفة ، وفتّق ذهنه بالوسائل العلمية التي ترتقي بمستوى تفكيره، وتنمّي عنده ملكة الاستنباط الصائب ، وتدربه على صواب المشاهدة، واستخراج النتائج الصادقة منها، وتُعلّمه صحة القياس ، وتدلّه على طريقة حسن الأداء، وسرعة البديهة ، وحسن الخروج من المآزق، وهذه فنون يمكن تدريب الناشيء عليها . وكان الخلفاء يحرصون على اختيار المعلم الذي يمكنه أن يقوم بعمل هذا ، وهو يربي أبناءهم ، حتى يكونوا خلفاء ناجحين ، أو حكاما متقنين لعملهم .

وتقول العامة : «الحر يصوصي في البيضة» ، أي أن الطفل يعلن عن نضجه بقوله وفعله ، فهو لا يخفى في مجتمعه ، ويتبين ما يمتاز به للناس في وقت مبكر ، وقد يكون في هذا الاكتشاف ما يجعل مجتمعه

يستفيد منه في عمل قد لا يتقنه أحد مثله، ويكون ذلك سبباً في اكتسابه لتجارب تضيف إلى ما حباه الله به من نضج مبكر.

وفي التاريخ أمثلة كثيرة لأناس بدت بوادر النضج عندهم في وقت مبكر، وكان بعض ما ظهر منهم سبباً في ملاحظة المبكر فيهم. وقد حرص الكتاب والمؤرخون على تدوين ما تواتر عن هؤلاء من أخبار، وأبرزوها على أنها مكاسب لمجتمعهم، وفي بعضها، إذا صح، ما يدهش حقاً، وليس هناك مجال فخر للفرد أو المجتمع أشرف من العقل وما يتصل به لأن منه النور الذي يشع بما يوفر السعادة إذا أذن الله بذلك.

ومن أبرز من عرف بالذكاء منذ الصغر إياس بن معاوية القاضي، وقد استمر ارتقاء فكره، حتى كان منه جانب اختص بالفراسة، وعرف إياس به، ويروى عنه في هذا المجال أشياء مدهشة، فإذا صحت كلها فالرجل بلا شك نادرة في زمانه، ووحيد بين أقرانه، والفراسة من نعم الله على

القاضي ، لأنها تساعده في عمله ، خاصة ما يحرص الخصوم على إبهامه ، ويسعون على الإيهام فيه .

وقد استفاد إياس في أمثلة معينة رويت عنه ، من هذه الفراسة ، وجاء منها نتائج مذهلة ، وأصبح بعضها يحتذى ، أو يقاس عليه في اكتشاف ما يكمن خلف المخبأ في القضايا التي تقوم بين الناس ، مما يحتاج إلى الذكاء ، ودقة الملاحظة ، وإلى دراسة نفسيات الناس ، وما يبدو على وجوههم ، أو يتبين من تصرفاتهم ، أو من اهتزاز في أقوالهم .

وسوف نقتصر في الأمثلة عنه على ما يخص مرحلة الصغر ، وهي التي بدا فيها نضجه مبكراً ، مما جعله يختلف عن أقرانه ، بل حتى عن أخيه في إحداها .

قال أبو الحسن :

كان إياس بن معاوية وهو صغير ، ضعيفاً دقيقاً دميماً ، وكان له أخ أشد حركة منه وأقوى ، فكان معاوية (أبوه) يقدمه على إياس ، فقال إياس يوما .

«يا أبت ، إنك تقدم أخي علي ، وسأضرب لك

مثـــلي ومثله : هو مثـل الفـروج حين تنفلق عنـه البيضـــة، يخرج كاسيـــاً كافيـــا نفســه، يلتقط، ويستخفّه الناس، وكلما كبر انتقص، حتى إذا تم فصار دجاجة لم يصلح إلا للذبح . وأنا مثل فرخ الحمام حين تنفلق عنه البيضة عن ساقط لا يقدر على حركة، فأبواه يغذوانه حتى يقوى، ويثبت ريشه، ثم يحسن بعـد ذلـك ويـطير، فيجـد به الناس، ويكرمونه، ويرسل من المواضع البعيدة، فيجيء، فيصان لذلك ويكرم، ويشترى بالأثمان الغالية» .

فقـال أبوه : «لقد أحسنت المثل»، فقدمه على أخيه، فوجد عنده أكثر مما كان يظن فيه» .[1]

وإذا كانت دمامة إياس، وضعف بنيته، ودقة جسمه، قد حالت دون ملاحظة والده لما فيه من نباهة ونضج مبكر، فإن نباهة إياس ونضجه هدته إلى وسيلة فعـالـة يقنـع بها والده بما ميزه الله به، واختيـاره لوضـع قضيته في مثل يدل بلا شك على

---

(١) الحيوان : ٢ / ٢٨٧، سراج الملوك : ٢١٤ .

مدى نضجه ، وسداد رأيه ، فليس هناك تعبير يعدل التعبير بالمثل ، لأنه يرسم صورة حية ، وناطقة بلسان فصيح ، وكأنها تمثل على مسرح ، يعيش المرء حوادثها ، ويحس بكل أجزائها ، ويلمس جميع تفاصيلها ؛ ولهذا فبمجرد ما انتهى من طرح قضيته على والده بهذا الأسلوب البديع ، اقتنع والده بما قال ، وانتهى الأمر على ما أحب إياس ، واستفاد والده مما حدث .

وقصة أخرى تروى عن إياس بن معاوية في صغره ، تري نضج براعمه اليانعة التي ما فتئت أن أصبحت دوحة ذات أغصان وارفة ، وظل ظليل .

«قدم إياس بن معاوية الشام وهو غلام ، فقدّم خصماً له إلى قاضٍ لعبدالملك بن مروان ، وكان خصمه شيخا كبيراً ؛ فقال له القاضي :

أَتقدّم شيخا كبيراً ؟

فقال إياس : ألحق أكبر منه .

قال : أسكت .

قال : فمن ينطق بحجتي ؟

قال : ما أظنك تقول حقّا حتى تقوم .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله .

فقام القاضي فدخل على عبدالملك فأخبره بالخبر، فقال : أقْض حاجته ، وأخرجه من الشام لا يفسد عليّ الناس» .[1]

إن موقفا مثل هذا من إياس على صغر سنه عند سن القاضي وخبرته ، لدليل على تفوق في العقلية ، لدرجة تخرج عن المعتاد . وكل ردّ من إياس كان من القوة بحيث إن القاضي وعبدالملك يحق لهما أن يرتعدا مما سمعا .

وفي سنٍّ يبدو أن إياس كان أصغر منه فيها مما كان حينما جلس أمام قاضي الشام يجادله ، وفي هذه المرة جادل شيخا من شيوخ النصارى جلس في مكتب يعلم أبناءهم في الغالب ، فحشر إياس نفسه ليقول ما أقلق صاحب المكتب قلقا عظيما ، هذا إذا

---

(١) عيون الأخبار : ١/١٣٩ ، ربيع الأبرار : ١/٧٠٨ .

لم يكن إيـاس قد ألحق بالمكتب ليتعلم آلة القراءة والكتابة لا العقيدة والدين ، لأن هذا مستبعد :

قال أياس بن معاوية :

«كنت في مكتب في الشام ، وكنت صبيا ، فاجتمع النصارى يضحكون من المسلمين ، وقالوا : إنهم يزعمون أنه لا يكون ثفل للطعام في الجنّة ؛ قال : قلت : يا معلم ، أليس تزعم أن أكثر الطعام يذهب في البدن؟ فقال : بلى ؛ قال : فقلت : فما تنكر أن يكون الباقي يذهبه الله في البدن كله . فقال : أنت شيطان» . [1]

وما دام الأمر عن الطعام وهضمه والاستفادة منه ، فهل كان هذا المعلم النصراني يعلم تلاميذه مبادئ الطب عندما عنّ له هذا التعليق الساخر من المسلمين ؟

أما إياس فعرف من أين تؤكل الكتف ، وعرف كيف يلجم غريمه بما يبدي لنا الأمر أمراً بديهيا ، ولكنه لم يكن كذلك حينئذ ، ولم يخطر ببال المعلم

---

(١) مجالس ثعلب : ١ / ١٠ .

الذي فوجئ بصخرة الرد تلقى إليه، وجاءته من صبي لا يتوقع منه إلا أن يستفيد لا أن يفيد!

ويبدو أن هؤلاء الذين يبدو نضجهم في الحياة مبكراً يبرزون في الحياة، ولا غرو فالذكاء عادة يفيد صاحبه، ويجعله يدرك أسباب التقدم، ودرج الارتقاء، وسلم الارتفاع؛ والقضاء وقيادة الجيوش من الرتب التي تحتاج إلى الفطنة والذكاء، ولهذا نجد أن أغلب التنويه بالنضج المبكر جاء عن القضاة والقادة.

وإذا كان ما أوردناه عن إياس في الأمثلة السابقة وإياس قاض، فهناك قاضٍ آخر روي عنه النضج المبكر، وأسند إليه القضاء في سن لفت نظر الناس، فكان مسقط تعليقهم، ومحل ملاحظتهم، ومجال رده عليهم عن هذا التعليق، وهذه الملاحظات، والرد نفسه هو الذي أبان نضجه واستحقاقه لهذا المنصب:

لما ولّى المأمون يحيى بن أكثم قضاء البصرة،

وكان من أبناء نيف وعشرين سنة ، أراد بعض أهل البصرة أن يعيره بذلك ، ويضع منه .

فقال : كم سن القاضي ؟

فقال : «سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله ﷺ مكة» .

«فجعل جوابه احتجاجاً» .[1]

لقد جاء الجواب دامغاً ، وكال لصاعهم صاعين ، وألجموا بجواب جاءهم من رجل تحرشوا به دون أن يعرفوا قوة عارضته ، وحدة سلاحه ، فجاء ذكاؤه خارقا عند غبائهم المتناهي ، وإلا فكيف لم يخطر ببالهم أن الخليفة لا يمكن ، في فترة قوة الخلافة تلك ، أن يعيّن إلا قاضيا مختاراً لكفايته ، ولفطنته ، ولكن سوء الحظ كان قرينا لهم ، وكان حسن الحظ خدنَ يحيى بن أكثم القاضي .

وهناك قصة قاض ثالث جرى له مثل ما جرى ليحيى بن أكثم عند توليته بصورة فيها بعض

(١) محاضرات الأدباء : ٦٤ ، البصائر : ١/٨١ ، تاريخ بغداد : ١٤/١٩٨ .

الاختلاف ، وتكشف هذه القصة عن قصة أخرى تبدي الأمر وكأنه كثير الحدوث :

يروى أبو الحسين بن عياش القاضي :

«لما قلد المقتدرُ عمرَ بن محمد القاضي الرئاسة (وهو صغير السن . . . ) فسرتُ معه مع من سار ، فكنا لا نجتاز بموضع إلا سمعنا ثلب الناس لأبي الحسين ، وتعجبهم من تقلده رياسة .

فقال عمي للشيخ (ممن كان في الموكب) : يا أبا فلان ، أما ترى كثرة تعجب الناس من تقلد هذا الصبي ، مع فضله ونفاسته وعلمه وجلالة سلفه ؟

فقال : يا أبا محمد ، لا تعجب من هذا ، فلعهدي وقد ركبت مع أبي عمر يوم خُلع عليه بالحضرة ، وقد اجتزنا بالناس ، وهم معجبون من تقلده أضعاف هذا العجب ، حتى خفنا أن يثبوا علينا ، وهذا عمر الآن وقدره في الفضل والنّبل ، ولكن الناس يسرعون إلى العجب مما لم يألفوه» . [1]

---

(١) معجم الأدباء : ١٦/ ٦٩ .

فعمر بدا فيه النضج مبكراً ، ولعل مع استعداده الفطري لذلك تربية والده له ، ورعايته إياه في تعليمه ، وتفتيق مداركه ، ورفع مستواه العلمي ، والارتفاع بخلقه ، ودفعه في أدبه وحسن تصرفه إلى ما جعله أهلا لما اختير له ، ولا يلام الناس على غيرتهم على رئاسة القضاء ، وحرصهم على ألا يليها إلا الكفيّ المكتمل لشروطها ، والسِّنّ عادة في مقدمة ما يتطلع إلى أنه متوافر ، والعامة عادة لا يحسبون حساباً لما يشذ عن القاعدة .

وليس القضاة وحدهم من بين رؤساء الدوائر في العصر العباسي الذين يلفت النظر تعيينهم في مناصب عليا وهم صغار ، فهناك أيضاً الوزراء ، وهم أهمية في حياة الناس حينئذ أكثر من القضاة ، فهذا الفضل بن سهل عين وزيراً وهو صغير لنجابته ، وتفتح زهر ذكائه وهو في سن مبكرة ، وتَوَقَّع أن يكون للناس على هذا التعيين ملاحظة ، فبث الجواسيس في البلدان ليأتوه بما يقول الناس ، وهذا من ذكائه حتى يكون تصرفه على بصيرة ، لأنه سوف

يستفيد مما يعود به إليه رجاله من نقد :

فرّق الفضل بن سهل عيوناً له من نصحائه في البلدان ، وأمرهم أن يسألوا عن عيوبه ، فعاد إليه واحد منهم ، فأخبره أن وفداً وفدوا على المأمون ، فلما وصلوا قالوا :

ما رأينا مثل هذا الملك جلالة وعقلا ، ولا مثل وزيره كفاية وفضلا ، لولا أنه شاب ، ومن شأن الملوك أن يستوزروا المشايخ ، الذين اجتمعت لهم إلى العلم تجربة ، وإلى الرئاسة حنكة .

فاحتجب الفضل ثلاثة أيام يعالج لحيته ، ثم ظهر للناس وهي بيضاء» .[1]

لا شك أن ذكاء الفضل بن سهل هو الذي قاده إلى ما أقدم عليه ، فلقد أعطى أهمية لما قد يراه الناس فيه عيبا ، لأن هذا يقلل من شأنه عندهم ، فإذا قلّ شأنه قلت هيبته ، وإذا قلت هيبته تجرأ عليه الناس بالحق وبالباطل ، وإذا كثر الكلام الجارح ، الذي

(١) آداب الملوك : ١٢٩ .

ربـما يذكي ناره الأعداء، وما أكثرهم تجاه الوزير الذي يأتي بعد الخليفة في تلك الأيام، فإنه يصل إلى الخليفـة، فإذا كثر القول والقيل شعر الخليفة أن وزيره الذي جاء به ليعينه أصبح عبئاً ثقيلا يرْزح فوق كتفيه، ولم يكن الأمر في تلك الأيام يقف عند العزل فقط، ولكنه يتعدى إلى المحاسبة الشديدة، والتغـريم الفـادح، وربما أدى ذلك إلى التعذيب والإِيـذاء الجسـدي، فيصبـح الـوزير العزيز بين عشية وضحاها ذليلا فقيراً يستجدي الناس، أو في قعر مظلمة يعاني الأمرين حتى يموت.[1]

(*)وخيـر من يلحظ النباهة في رجاله، ويعرف نُبوغ الصغير من بينهم سيد البشر ﷺ فقد نضج مولاه أسـامة بن زيد في وقت مبكر مما جعله ﷺ يبعثـه على رأس بعث إلى الشام، يطأ بخيله تخوم الشـام، ويقصـد البلقـاء والـداروم من أرض فلسـطين، ومثلما رأينا أن الناس تكلموا في صغر

(١) راجع مثلا نكبة المهدي لوزيره يعقوب بن داود: تاريخ بغداد: ١٤/١٤٨.
(*) من هنا يبدأ ما زيد مؤخراً على ما نشر في عكاظ.

سن الفضل بن سهل، فقد تكلم المنافقون في المدينة في سن أسامة بن زيد، وهم الذين يقفون بالمرصاد لأعمال الرسول ﷺ يشككون فيها، ويقللون من شأنها، ويسعون في أذاه - صلوات الله عليه وسلامه - فوجدوا في تعيينه مدخلا يدفقون عن طريقه سمهم، فصالوا في هذا وجالوا، وقالوا: (أمّر غلاما على جلة المهاجرين والأنصار)؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن تطعنوا في أمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وإنه لخليق للإمارة، وكان أبوه خَليقا لها».

وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون منهم أبو بكر وعمر، فبينما الناس على ذلك ابتدأ برسول الله ﷺ المرض». [1]

وأخر مرض الرسول ﷺ مسير أسامة، وعندما أصبح أبو بكر - رضي الله عنه - خليفة للمسلمين أصرّ على إنفاذ جيش أسامة، ولم يأبه بالآراء التي أبديت لغير ذلك، وقال قولة تدل على إيمان متناه،

(١) الكامل في التاريخ: ٢/ ٢١٥.

وقوة نفس لا يحطمها الفولاذ :

« والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي ﷺ » .[(١)]

ثم خرج أبو بكر حتى أتى أسامة في معسكره خارج المدينة ، وأشخص الجيش وشيعه ، وهو ماش وأسامة راكب ، ولما قال له أسامة : « يا خليفة رسول الله لتركبنّ أو لأنزلنّ .

فقال : والله لا نزلتَ ولا أركب ، وما عليّ أن أغبّر قدمّي ساعة في سبيل الله » .

فلما أراد أن يرجع قال لأسامة : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فأذن له » .[(٢)]

وكان الفتح المبين بعد ذلك بالجيوش التي توالى إرسال الخلفاء لها ، والسرايا التي توالى بعثها .

وكان فيما فعله رسول الله ﷺ قدوة وفتح باب لتقدير الرجال الذين يبدو نبوغهم منذ صغرهم ،

---

(١) الكامل في التاريخ : ٢/٢٢٦ .
(٢) الكامل في التاريخ : ٢/٢٢٦-٢٢٧ .

وكان لِمَا أنفذه أبو بكر - رضي الله عنه - مما أبرم عقده رسول الله ﷺ تأكيد لهذا الاتجاه، الذي لا بد أنه استمر يحيا مع مرور الزمن بسلوك الخلفاء سبيل من سبقهم في هذا، فهذا الحجاج يبعث محمد بن القاسم لقتال الأكراد، ثم ليحكم السند والهند وسنه عندما قاد الجيوش سبعة عشر سنة:

قال أبو اليقظان:

«ولّى الحجاج محمد بن القاسم بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي قتال الأكراد، فأبادهم، ثم ولاه السند والهند؛ وقاد الجيوش وهو ابن سبع عشرة سنة فقال فيه الشاعر مسجلا ذلك:

إن السماحة والمروءة والندى
لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة
ياقرب سَوْرة من سؤدد»[1]

إنهم يغذون فيهم الميزة التي تطل برأسها في

---

(١) بهجة المجالس: ٢/٥١٧.

الصغر ، وينمونها بالتجربة والممارسة ، فكان يأتي من هؤلاء قادة وحكام مبدعون ، وهم الذين فتحوا الأمصار ، ودفعوا رقعة البلاد الإسلامية ، وحموا ثغورها ؛ وكان لهؤلاء القادة أولاد أظهروا من النجابة والنبوغ في وقت مبكر ، ما جعلهم يخلفون آباءهم في أعمالهم وهم في سنٍّ مبكرة .

ومدينَة مهمة مثل دمشق عرفت موقفا فريداً في الفطنة والذكاء عندما عيّن حاكما فيها شاب أموي صغير السن أدهش من حوله بنضجه :

«ولما وُلِّي عبدالعزيز بن عبدالملك دمشق ، ولم يكن في بني أميّة ألبّ منه في حداثة سنّه ، قال أهل دمشق :

هذا غلام شاب ولا علم له بالأمور ، وسيسمع منا ؛ فقام إليه رجل فقال :

أصلح الله الأمير ، عندي نصيحة .

فقال : ليت شعري ، ما هذه النصيحة التي ابتدأتني بها من غير يد سبقت منّي إليك .

قال : جارٌّ عاصٍ ، مختلف فيه .

فقال : ما اتقيت الله ، ولا أكرمت أميرك ، ولا حفظت جارك ، إن شئت نظرنا فيما تقول ، فإن كنت صادقا فيما قلت لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت أقلناك .

قال : أقلني .

قال : إذهب حيث شئت ، لا صحبك الله ! إني أراك شرّ رجل .

ثم قال : يا أهل دمشق ، لولا أنه لا ينبغي للوالي أن يعاقب قبل أن يعاتب ، وكان[1] لي في ذلك رأي ، فلا يأتني أحد منكم بسعاية على أحد بشيء ، فإن الصادق فيها فاسق ، والكاذب فيها بهّات» .[2]

لقد أثبت عبدالعزيز أن في برديه رجلا ناضجا ، لقد أتى بثلاثة أمور رسمت سياسته متكاملة ، بل إنها رسمت سياسة أي حاكم ناجح ، لقد وضع مبدأ ثابتاً عليه يسار ، وبه يقتدى ، فقد بكّت

(١) لعلها «لكان» .

(٢) تمام المتون : ٢٣٢ .

الـواشي المستعـدي، المنافق بالتقرب على حساب الآخرين، واللئيم في محاولة استغلال سن الحاكم ليختله، والتصرف حيال هذا الرجل جاء حازماً، وشهبه جاءت حارقة، مع رعد مجلجل مدو، جعل الرجل يختار الانسحاب، راضيا من الغنيمة بالإياب.

والأمر الثاني أنه أظهر للحاضرين أنه يسير في أمـوره على قواعد ثابتة، وعادات حكم راسخة، تحكم تصرفه، وتهدي طريقه، وليس عمله عشوائيا كما قد يكونون ظنوا، وطمعوا فيه على هذا الأساس، ففاجأهم بما لم يكن بحسبان أحد منهم، فعرفوا منه مبدأ أَلَّا عقاب إلا بعد عتاب، وهذا يؤكد أنه حازم وليس قاسياً ظالماً.

والأمر الثالث أنهى به حديثه، بعد أن أعلمهم مبـدأه، فأفهمهم أنـه لن يقبل مستقبلا منهم هذا النهج وأمثاله، وأبان لهم العلة، فهم إذا فعلوا فهم بين أحـد رجـلين: فاسق أو بهّات. لقـد رسم

للواشي صورة بشعة تجعل كل من فكّر في الوشاية ترتعد فرائصه من أن تكون صورته عند حاكمه بهذه البشاعة. لقد أقفل بهذا الباب، وسدّ عن نفسه ثغرة شرّ واسعة، وأحبط مسعى شيطانيا كانت ستأتي منه ريح خبيثة.

ويبدي بعض صغار السن نضجا مبكراً في عهد الطلب، وفترة الدراسة، فيبهرون من حولهم بهذه النجابة، ويعرف ذلك عنهم، وينتشر لطرافته وإعجاب الناس به:

«يروى عن السّري بن المغلّس أنه قرأ على مؤدبه ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرْدَاً﴾[1]، فقال: يا أستاذ، ما الورد؟

فقال المؤدب: لا أدري.

وقرأ: ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾[2]، فقال: يا أستاذ، ما العهد؟

---

(١) سورة مريم، آية: ٨٦.

(٢) سورة مريم، آية: ٨٧.

فقال المؤدب : لا أدري .

فقطع السريّ القراءة ، وقال : إذا كنت لا تدري فَلِمَ غَرَّرْت الناس ؟

فضربه المؤدب .

فقال السريّ : يا أستاذ ، ألم يكفك الجهل والغرور حتى أضفت إليهما الظلم والأذى ؟

فاتّعظ المؤدب ، وثاب إلى الله من التأديب ، وأقبل على طلب العلم ، وكان يقول : إنما أعتنقى من رق الجهل السريّ» .[1]

لقد تفتحت أزاهير ذهن السريّ قبل أوانها ، وكان يريد أن يعرف أكثر مما كانت تسمح له به سنه ، التي جعلت أهله يضعونه عند هذا المؤدب المحدود العلم ، ولكنه بذكائه قلب الأمر فأصبح هو المعلم ، وكان سبباً لاهتداء معلمه إلى الطريق السليم ، فواصل طلب العلم ، وأقر بالفضل لصاحب الفضل بعد الله سبحانه وتعالى .

(١) أنْباء نجباء الأبناء : ١٩٢ .

وتكون النجابة في سرعة الحفظ لدى الصغير، فيأتي في هذا بما يذهل، وما لا يكاد يصدق، وقد برز في هذا الميدان أناس كثيرون نقتصر على ما رواه ابن دريد نفسه في موقف من المواقف:

«حدث أبو علي التنوخي قال: حدثني جماعة أن ابن دريد قال: كان أبو عثمان الإشناني مُعلمي، وكان عمي الحسين ابن دريد يتولى تربيتي، فكان إذا أراد الأكل استدعى أبا عثمان ليأكل معه، فدخل يوما عمّي وأبو عثمان يُرَوِّيني قصيدة الحارث بن حلزة التي أولها:

«آذنتنا ببينها أسماء».

فقال عمي: إذا حفظت هذه القصيدة لك كذا وكذا.

ثم دعا المعلِّم ليأكل معه، فدخل إليه، فأكلا وتحدثا بعد الأكل ساعة، فإلى أن رجع المعلم حفظت ديوان الحارث بن حلّزة بأسره، فخرج المعلم فعرفته ذلك، فاستعظمه، وأخذ يعتبره علي

(أي يراجعه علي) فوجدني قد حفظته، فدخل إلى عمِّي، فأخبره، فأعطاني ما كان وعدني به» . [1]

وهذا حقل واسع فيه كثيرون ممن اشتهروا بالحفظ حتى أنه روي أن بعضهم يحفظ القصيدة بعد أن يسمعها مرة واحدة، وبعضهم من مرتين، وبعضهم من ثلاث .

وبعض الصغار تأخذ نباهتهم مجرى غير ما ذكرنا مع مؤدبيهم، ولكنها لا تخرج عما نحن بصدده من بزوغ نجم الذكاء عندهم صغاراً، وإذا كان السريّ في القصة السابقة قد أعطى مؤدبه درساً استفاد منه فالمكتفي أعطى مؤدبه ابن أبي الدنيا درساً أيضاً :

قال ابن أبي الدنيا :

«كنت أؤدب المكتفي، فأقرأته يوماً كتاب (الفصيح)، فأخطأ، فقرصت خده قرصة شديدة، وانصرفت .

(١) معجم الأدباء : ١٨/ ١٢٩ .

فلحقني رفيق الخادم فقال : «يقال لك : ليس من التأديب سماع المكروه» .

قال : فقلت : «سبحان الله أنا لا أُسْمع المكروه غلامي ولا أَمَتِي» .

قال : فخرج إليّ ومعه كاغد ، وقال يقال لك : صدقت يا أبا بكر ، وإذا كان يوم السبت تجيء على عادتك .

فلما كان يوم السبت جئته ، فقلت : أيها الأمير ، تقول عني ما لم أقل؟ قال : نعم مودبي ، من فعل ما لم يجب ، قيل عنه ما لم يكن» .(١)

كانوا يجازون الصغير على عدم الفهم ، ولا حيلة له في ذلك ، فقد يكون الأمر فوق طاقته ، وقد يكون الخطأ خطأ المدرس وطريقته ، ونضج المكتفي المبكر جعله يدرك خطأ مدرسه ، وأراد أن يصلح حاله ، فلجأ إلى حيلة ، وهي أنه لم يكتف بنقل فعله إلى أهله ، وإنما أضاف فِرية قولٍ لبّسه لمدربه ،

(١) العقل وفضله : ٢٣ .

فأذاقه لدقائق طعم الظلم . ثم أقرّ له بذلك ، وابن أبي الدنيا أعجبه هذا بدليل أنه أخذ يروي الحادثة ، رغم أن جانباً منها عليه .

وإذا خرجنا من محيط الكتاب نجد قصة تروى عن المعتصم وابن خاقان ، وهي - إن صحت - تدل على ذكاء مفرط ، والكتاب معجبون بها ، فلا يخلو كتاب أدب منها :

«مرض خاقان فعاده المعتصم بالله ، والفتح إذ ذاك صبي صغير .

فقال له المعتصم : داري خير أم دار أبيك ؟

فقال : ما دام أمير المؤمنين في دار أبي فهي أحسن .

وقيل له وعلى يده خاتم ياقوت أحمر في نهاية الحسن :

أرأيت أحسن من هذا ؟

قال : نعم ، اليد التي هو فيها» .[1]

---

(١) ربيع الأبرار : ١/ ٦٧٩ ، لطائف اللطف : ٤٣-٤٤ ، البصائر : ٤/ ٧١ .

ومدى نضجه يحدده سنه الذي لم يذكر، هذا إذا صح أن هذه القصة صحيحة.

ولعل أشهر قصة في هذا المجال ما يروى عن نجابة عبدالله بن الزبير في صغره، وقد رددتها المصادر، ويكاد لا يتركها مصدر أدبي واحد يبحث في هذا المجال:

«اجتاز عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بصبيان يلعبون، وفيهم عبدالله بن الزبير، فتهاربوا إلا عبدالله فإنه وقف.

فقال له عمر: لِمَ لَمْ تفرّ مع أصحابك؟

قال: لم يكن لي جرم فأفرّ منك، ولا كان الطريق ضيقاً فأوسعه عليك» [1].

إن الفكرة التي برقت في ذهن عبدالله بن الزبير المتميز غابت عن ذهن أصدقائه، الذين كانت أذهانهم ذات مستوى عادي، إن ذهن عبدالله حوى آلة عاملة صالحة لإنتاج الصواب، وقد دارت هذه

---

(٢) البصائر: ٤/ ٧١.

الآلـة فأعـطته المنطق الذي لا بد أنه أعجب عمر رضي الله عنه .

ولعل من المناسب بعد أن أعطينا أمثلة للنضج المبكر ، والعقل المتميز ، أن نأتي بمثل عما هو مخالف لهذا ، حتى تتضح الفكرة على قاعدة : «وبضدها تتميز الأشياء» :

«قال شيخ من الملوك لعبدالله بن المقفع : إن ابني فلانـا يتكلم بكلام لا نعرفه ، فأُحب أن تُجَالِسَه ، فإن كان كلامه هذا من غريب كلام العرب فهو على حالٍ لم تخرج من هذه اللغة ، وإن كان شيئاً يبتدعه عالجناه بالتقويم .

فأتاه ابن المقفع فسمعه يقول : «يا غلامي أسرج لي برذوني الأسود .

فقال : قل - أصلحك الله - : البرذون الأدهم ، وإياك أن تقول : الأسود .

قال : لا أقول الأسود لِمَ ، لأنه ليس بأسود ؟

قال : بلى ، هو أسود ، ولكن لا يقال له أسود .

قال : فمكث ساعة ، ثم قال : يا غلام أسرج لي حماري الأدهم .

قال : قلت : لا تقل للحمار : أدهم ، إنّما يقال له أسود .

قلت : لم يقال له أسود؟

قلت : لأنه أسود .

قال : قد نهيتني أن أقول : «برذون أسود» وهو أسود .

قال : قلت له : هكذا تقول العرب .

قال : إما أن تكون العرب أمْوَق الخلق ، وإما أن تكونوا أنتم أكذب الخلق .

قال : فرجعت إلى أبيــه ، فقلت له : إن كان عنـدك علاج فداركه ، وما أظن ، والله ، أن ذلك عند الجالينوس» .[1]

مسكين هذا الابن ، لقد كان الإختبار صعبا ، ولم تكن عنده أصغر أدواته .

---

(١) كتاب البغال : ٩٧ .

وقد كان للنضج المبكر علامات، ومن بينها عرامة الصبي، وهي الشراسة والأذى، فكان يقال: «عرامة الصبي في صغره زيادة في عقله في كبره»[1].

وقال وهب بن منبه معطيا علامة أخرى تختلف تمام الاختلاف عن الأولى، وتكاد تكون ضدها: «خصلتان إذا كانتا في الغلام رجيت نجابته: الرهبة والحياء»[2].

ولعل الأمر في الحكم في النصين يعود إلى نتيجة وصل إليها كل من الاثنين المتخالفين، ويجمع بينهما صحة الإدراك للمصلحة، فهذا وجد أن الشراسة تكسبه مطلبه، وهذا أدرك أن حبه للآخرين يمنعه من أن يفرس طريقه، فالهيبة جاءت من إدراك جانب، والحياء جاء من إدراك جانب آخر، وكأن صاحبها وضع ثقته فيمن حوله أن يعرفوا حقه دون أن يطالبهم به، والله أعلم.

---

(١) تاريخ بغداد: ١١/٧٣.

(٢) بهجة المجالس: ١/٤٢٣.

# مدارج الهم (*)

الهمّ عبء يحمله الإنسان فوق سنام روحه، ينوء به كاهله، وينشغل به ذهنه، ويعكر عليه صفو حياته، يأتيه أحياناً من حيث لا يحتسب، وأحيانا يكون هو نفسه سببا فيه، أو يتوقعه بعد أن تلوح علاماته. والهمّ متسلط لا يستطيع المرء عادة تفادي هجومه، ولا تبديد جيوشه إلا بصرف الوقت في المقاومة، والجهد في الصمود، لإزالة أسباب وجوده أو تخفيف وقعها؛ والوقت أحياناً يساعد في هذا، فيجعل لون الهم يبهت، ووقعه يضعف، ويأخذ في الانزواء تدريجياً؛ وقد يكون للتعود عليه، ومعايشة بلواه، دخل في ابتعاده عن دائرة التفكير؛ وأحياناً يصغر لأن الذهن شغل بما هو أكبر منه، وغطت سحابة همّ جديد على نجم الهم الأول الساطع، وأكسفت شمسُهُ شمسَه، وأصبح المرء في شغل شاغل، وهم أكبر طاغ.

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١١٣) في ١٤١٤/١١/٥هـ الموافق ١٩٩٤/٤/١٦م.

ويبدو من استقراء الهموم عند الناس، ووزن حجمها وشدتها أنها بقدر أذهانهم، وهُمومُهم أيضاً بقدر أعمالهم، وبقدر ما التزموا به من مصدر رزق يعيشون منه، ومحيط يعيشون فيه، وأمور تمر بهم، يكابدونها ويعالجون صدورها وورودها. فالحاكم الكبير همه أكبر من هم الحاكم الفرعي الصغير، والقاضي في محكمة عليا مكابدة الهموم عنده أكبر منها في محكمة صغيرة فرعية، وهكذا الأمر في كل مهنة، وكل مجال في الحياة يسير فيه الإنسان إلى غاية، ويتجه فيه إلى هدف.

والعالم في همه أكبر من الجاهل، والذكي عبؤه أكبر من الغبي، والعاقل همه مثل الجبال إذا ما قورن بالمجنون، والسبب أن هؤلاء المتميّزين بعقولهم النيّرة، وتفكيرهم السليم، واستفادتهم من التجارب التي مرت بهم، يدركون مكامن الخطر في الأمر الذي همهم، ويعرفون مراميه، فيتعمق الهم في أنفسهم نتيجة هذا الإدراك، ويذهب بعيداً، فتقوى عروقه بما تتشبث به داخليا، وتزدهر فروعه

على دوحة الهم وتتفرع .

وبعض النـاس همه يقفـز على صفحة وجهه ، فتكون مرآة صادقة المحتوى ، فاضحة للسر ، معبرة تعبيراً وافياً عما يدور خلفها ؛ وبعض الناس همه في بئر عميق القاع ، مقفل الأعلى ، لا يوصل إليه ، ولا يعـرف كنهـه ؛ وقد يكون لأخفاء الشعور بالهموم أسباب تتوفر في هذا دون ذاك ، وقد يكون الشباب مسـاعداً على التحمل والجلد ، وكتم الهمّ ، وعدم الشكـوى ، وقد تكون الشيخوخة أقدر على ذلك لكثرة مخزون التجربة ، وتراكم مظاهر التأسي والعبرة .

وسوف أسوق هنا أمثلة من التراث في عصوره المختلفة ، تصور هموم الناس كبيرهم وصغيرهم ، ذكرهم وأنثاهم ، شبابهم وشيوخهم ؛ ليكون إلمامة بجـوانب المـوضـوع ، تعطي فكرة ، ولا تعمد إلى الحصر والاستقصاء ، فهذا مجاله ليس هذه المقالة ، وإن كان يسـتحق الحصر والمتـابعـة لما فيـه من الـطرافـة ، ولمـا سوف تظهرهُ الدراسة من مظاهر

اجتماعية ونفسية، ولما سوف يكون فيه من عِظَة وعبرة بجانب التسلية والمتعة.

ولنبدأ بهمّ رجم على قلب قائد مشهود له بالكفاية والمقدرة، وعرف عنه العقل، وحسن التصرف، مما جعله ينجح في محاربة أعداء الخلافة، ودفع حدود الدولة الإسلامية، والقضاء على الخارجين عليها؛ ولكنه ابتلي برئيس طموح في نظرته، حسن في نيته، يرى وهو بعيد عن الميدان غير ما يراه من هو فيه، يكابد العدو عن فكر ومعرفة وتجربة؛ إن همّ هذا القائد كبير جداً، لأنه إذا تصرف تصرفاً خاطئاً فإنه يعرض جنده للهلاك، وثغور المسلمين للاجتياح؛ وأما الخارجون على الدولة فإنهم يتقوّون بالانتصار، ويكسبون مع الأعوان أرضاً ومؤونة وعدة، ويسهل الأمر أمامهم بضعف عدوهم، ولكنه أزال الهم عن قلبه بتصرف حازم، يتفق مع عقله ومقامه:

كتب الحجاج إلى المهلب يستبطؤه في مناجزة الأزارقة، ويستعجزه، فحبس المهلب رسول

الحجاج أياماً حتى رأى صنيع الخوارج وجلدهم وثباتهم ، وكتب إلى الحجاج يقول :

«إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن أمكنني فرصة انتهزتها ، وإن لم تمكّني توقفت ، فأنا أدير ذلك بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أعمله ، وأنا حاضر برأيك وأنت غائب ، فإن كان صواباً فلك ، وإن كان خطأً فعليّ ، فابعث من رأيت مكاني ، والسلام» .[1]

ونرتفع إلى هموم أحد الخلفاء ، وقد كثرت مطالبات الناس له بما لا يرى معه أن باستطاعته أن يستجيب لهم ، فبين لهم الأسباب التي منعته ، وحملهم الجزء الأساسي من عدم استطاعته ، وألقاه إليهم علنا في خطبة له ، لتصبح ناموساً لهم ، وقاعدة يأخذونها بعين الاعتبار ، ولم يكن الخليفة في قوله الذي توصل إليه ، بعد تفكير عميق ، بدون إقناع ، فهو مقنع لأن فيه منطقاً :

---

(١) سرح العيون : ٢٠٠ ، سراج الملوك : ٢٤ ، ٢٤٦ .

قال عبد الملك بن مروان :

«إنكم لتسومون منا فعل أبي بكر وعمر ، ولستم تعملون بعمل رعيتهما ، فأعان الله كلا على كل» .[1]

ولقد همّ عثمان بن عفان أمرٌ ، وأخذ عليه تفكيره ، واستولى على لبه ، وبرك بكلكله على صدره ، فهو المسؤول الأول في دولته ، ويؤمل لكل فرد الخير ، فإذا هبت ريح شر من فرد أو على فرد ، أزعجه هذا ، وأقلقه وأهمّه ، وأخذ يقلب حكم الدِّين فيه ، وأقربه إلى حله ، وأصوبه في معالجته ؛ حتى إذا نفذ الأمر على غاية الاجتهاد منه يبقى في نفسهِ : هل ما أقدم عليه هو عين الصواب ، أو أن هناك ما هو أصوب منه ، وأقرب إلى أن تبرأ به الذمة . ولكن رجلاً مثله هذه نيته فتوفيق الله معه ، يكفيه شر الهمّ ، ويعفيه من مجالدة الغم ومعاناته :

«روي أن عثمان بن عفان دعي إلى قوم ليأخذهم على ريبة ، فافترقوا قبل أن يبلغهم ، فأعتق عثمان

(١) محاضرات الأدباء : ٦٧ ، سراج الملوك : ٣٤٨ .

رقبـة شكـراً لله تعـالى أن يكـون جرى على يديه فضيحة رجل مسلم» .[1]

والهم همّ من حيث هو صغر أو كبر، للحاكم والمحكوم؛ إذا وجد فراغاً في الذهن احتله، وإذا وجد غفلة تمكن، وشغل صاحبه، وأخذ حيزاً يماثل الهم الكبير، وهـذا خليفة من الخلفاء، يقلقه أمر أسنانه، فيحمل همّاً كبيراً، لتأثير هذا الأمر الصغير على أمرين كبيرين في ذهنه :

قال أبو الحسن المدائني :

«لما شد عبـدالملك أسنـانه بالذهب قال : لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت» .[2]

إن حسن الصوت في الخطب، وتأثيره في المستعمين، أمـر يهم الخليفـة، وإن اللثغـة، وعـدم وضـوح الصـوت لا يضيع الهدف من الخطبة، فحسب، ولكنـه قد يدعـو إلى الهـزء، والنيل من الخطيب. وخطبة الجمعة والأعياد في تلك الأزمان هي المنبر

(١) سراج الملوك : ٣٢٢ .
(٢) البيان والتبيين : ١/ ٦٠ .

الـذي عن طريقـه يرسم الخليفة أو عامله سياسة الحكم، ومـا يراد من النـاس؛ ووضـوح ذلـك، وانصيـاع الناس له، لابد له من العبارة القوية، والمعنى الوافي، من صوت رخيم، ونطق سليم، ولهذا أضحى الاهتمام بالأسنان، وشدها بالذهب حتى لا تسقط همّ أمير المؤمنين، رغم ما يحرص عليه من تجنب الذهب.

واجتـذاب النسـاء، وعدم نفورهن، أمر يهم الرجال، فليس هناك من بينهم من لا يريد أن تملأ زوجته عينها منه، ولا أحرص من الرجال من أن يكـون منـظرهم غير منفـر، وهم حريصون على مظهـر الشبـاب بالطبيعة أو التصنع، فليس أشد عليهم من زهد النساء فيهم، والانصراف عنهم، وإقبالهن يدغدغ كبرياء الرجال، وابتعادهن يرعب ويفزع.

وعبدالله بن الزبير في فترة حكمه لمكه حاكم له همومـه، ومـا أكثـرها في تلك الفترة، وهو يسعى

للخلافة وعبدالملك بن مروان ينازعه إياها، وما كان أشد حرصه على أن يؤثر على سامعيه وهو يخطب فيهم، ويحاول أن يؤكد حقه، وينفي الحق عن منافسه، ويظهر الأدلة التي ترجح مطالبته، وينقض حجج خصمه وأعوانه. وفي إحدى الخطب وهو في شدة الحماس والاندفاع يرمى مستمعٌ صخرةً في طريقه توجب عليه أن يوقف سيل القول الجارف، واندفاع الحجج المتتابعة، فيضطر إلى الاهتمام بهذا العارض، مما جلب له همّاً، فخرج من هدوئه، وهدر هدير الجمل الصائل.

قال أبو عمرو بن العلاء:

«خطب ابن الزبير، فاعترض له رجل، فآذاه بكلمة، ثم طأطأ الرجل رأسه، فقال ابن الزبير: أين المتكلم؟

فلم يجبه، فقال:

قاتله الله، ضبح ضبحة الثعلب، وقبع قبعة القنفذ»[1].

(١) الحيوان: ٧/٥٩.

إن هم عبدالله بن الزبير طارئ وعابر ، ولكنه حاد وقاس ، دعاه إلى أن يدعو على الرجل الذي قاطعه أثناء إلقائه خطبته ، ووصفه هذا الوصف الدقيق المؤلم .

والخطبة لها أهميتها ولها مكانها ، ولكنه يحصل فيها أحياناً ما يخرجها عن طبيعتها قليلاً أو كثيراً ، فيلفت هذا النظر ، ويوجب الالتفات ، ويقنع الأدباء والمؤرخين على اقتناص البادِرة وتسجيلها :

فهناك خطيب تسببت صلعة رجل أمامه بهمٍّ شغله عن خطبته ومعانيها وأهدافها ، فصرفه لمعان الصلعة عن الخطبة ، والقصة كما يلي :

صعد رجل المنبر ، فلما استوى قائماً ، وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صلعة رجل فقال :

« اللهم العن هذه الصلعة ! » . (١)

---

(١) البيان والتبيين : ٢/ ٢٥١ .

ولنا أن نتصور موقف الخطيب وموقف المستمعين ، وصاحب الصلعة ، وما انتقل إليه جو الخطبة .

وهـذا يهون عنـد جهل الخطيب ، وخلطه بين القرآن والشعر أمام جم غفير من المستعمين الذين أملوا فيه غير ما وجدوا ؛ والخطيب ليس من عامة الناس :

خطب يوماً عتاب بن ورقاء فقال :

هذا كما قال الله تبارك وتعالى :

«إنما يتفاضل الناس بأعمالهم ، وكل ما هو آت قريب» .

قالوا له : «إن هذا ليس في كتاب الله» .

قال : ما ظننت إلا أنه في كتاب الله» .[1]

لعل الحكمة التي في الجملة التي ساقها ، وكثرة تداول هذا المعنى بين الناس هو الذي أوهم عتاب بما أوهمه به .

والقول الرصين للجاهل بالقرآن يوهم ، والشعر

---

(١) البيان والتبيين : ٢/٢٤٤ .

أحد أسباب الوهم لدى بعض الناس ، ومن الحالات التي أوهم الشعر الخطيب فيها بأنه قرآن ، البيت الآتي وهو لعمر بن أبي ربيعة :

كُتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جَرُّ الذيول[1]

فعتاب بن ورقاء في حماسه في الحث على الجهاد ساقه على أنه قرآن إذ قدم له بقوله : «هذا كما قال الله تبارك وتعالى» ، وإذا كانت المعاني في قصته السابقة هي السبب في وهمه ، فليس في بيت عمر بن أبي ربيعة ما يوجب الوهم ، ولكنه الجهل المفرط .

والاستفادة من جهل بعض الناس بالقرآن الكريم قد يستغل ، وقد استغل بعض الصحابة هذا ، فاستفاد منه مخرجا من مأزق وضع نفسه فيه ، فتفادى بذلك عراكاً عائليا كان سوف يقع ؛ وأنشد أبياتا على أنها من القرآن ، معتمداً على المعاني الخيرة التي فيها ، والموعظة الحسنة التي احتوت عليها ؛

(١) البيان والتبيين : ٢ / ٢٣٥ .

والقصة طريفة، ويقال إن الرسول ﷺ لما بلغته ابتسم لها:

وعن عبدالله بن رواحة أنه كان له جارية فاتهمته امرأته أن يكون أصابها، فقالت:

«إنك الآن جنب منها».

فأنكر ذلك.

فقالت: فإن كنت صادقاً فاقرأ القرآن؛ وقد عهدته لا يقرأ القرآن وهو جنب.

فقال:

شهدت بأن وعد الله حق
وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طافٍ
وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ثمانية شداد
ملائكة الإله مسومينا[1]

والتاريخ لا يعيد نفسه، ولكن الحوادث تتماثل

---

(١) المراح في المزاح: ٣٣٥، تحفة العروس: ٢٥٨، ٢٥٩.

وتتشـابه ، فإذا قامت أسباب في وقت متأخر تماثل أسباباً في وقت متقدم فإن الحوادث قد تأتي متشابهة في كل مظاهـرها ، أو في بعضها ، وكذلك النتائج التي تأتي منها ؛ فإذا توفر الجهل عند بعض الناس في وقت متأخر ، وجاءت موعظة بصيغة رصينة ، أو في بيت شعر قوي ، يؤكد قاعدة دينية ، تأخذ بالألباب ، وتنسي المرء التأكد من أنها في القرآن أوْ لاَ ، تكررت حادثة اليوم مع حادثة أمس ، وتماثلت في جوانبها الرئيسة .

كان هناك عدد من بيوت البادية ضربت قرب مدينة الأحساء ، وكان هناك شيخ فاضل من أهل الأحساء يخرج كل عصر ، ويبقى معهم إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة المغرب ، فيؤمهم ، وكان هذا دأبه كل يوم .

وفي يوم من الأيـام غاب لعـذر منعـه ، فطلبوا أحـدهم ممن ظنوا أنه كان أكثرهم ملازمة للصلاة وراء هذا الأمام، ورأوا أحقيته في أن يؤمهم، ففعل

وقرأ الفاتحة، قراءة لا يقبلها إلا أمثاله ممن لم يتقنها، ثم احتار في السورة التي بعدها، ووجد أن سورة قريش أسهلها عليه، فجاء بمعنى ظنه نصها، وهو أبعد ما يكون عن ذلك.

وفي الركعة الثانية، وبعد قراءة الفاتحة احتار، ثم قرأ شعراً لحمْيدان الشويعر:

إلى جَا لَنَّفْسْ محاسبها
أَلدِّين أطيبْ مكاسبْها
والدِّنيا روضةْ نوارْ
صيّورْ الرِّيحْ تْطِيرْ آبْها

ولما فيها من موعظة ظنها قرآنا: فبعد الممات، وعند المحاسبة لا يبقى للإنسان إلا حصيلة الدين؛ أما الدنيا فروضة زاهٍ نوّار الزهر فيها، ولكن مآله للتصويح والجفاف، ثم تذروه الرياح.

ويذكر حاكِمُ هَمَّه، ويحصره في أمرين ملازمين للأمارة، لا يفتآن ينخران في جدار سعادة الحاكم،

ويُقضّان مضجعه، ولا يدري متى يأتيان له بالمكروه:

قال عبيدالله بن زياد، وكان خطيباً، على لكنة كانت فيه:

«نعم الشي الأمارة، لولا قعقعة البُرُد، والتشزّن للخطب» .[1]

الأمارة في نظر عبيد الله بن زياد، عامل الخليفة في العراق، مبهجة فهو سعيد بالأمارة، متمتع بما فيها من ميزات، وبما يقوم به نحوها، وما تعطيه إياه، ولا ينغص عليه حياته فيها إلا صوت لجم خيل البريد التي تقف ببابه، ووقع حوافرها وجلبتها، وقد أتت بأخبار أطراف الولاية، والحال في الثغور، وما هي عليه؛ وهي قد تأتي بأخبار متمرد، أو خارج على الدولة، أو تُنْبئ بكارثة حدثت، أو نازلة نزلت، أو نصر في الثغور أفلت، أو هزيمة وقعت، أو حيلة اكتشفت، أو تنظيم فشل.

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٣٥.

والرديف في الهمّ للأخبار التي قد تأتي بها خيل البريد هو التهيؤ للخطب، والاستعداد لألقائها، واختيار المعاني وترتيبها، واختيار ما يؤثر على السامع، فيجلب المبعد عن الولاء، ويقوي ولاء الموالي؛ والخطب في ذلك الزمن هي الصحف وهي الإذاعة، وعليها يتوقف كثير من أمور الدولة، وهدوء الأحوال فيها، ففيها التوجيه بعمل الشيء، وفيها التحذير من عمله، فالمنطلق في الحكم منها.

وللخلفاء هموم تأتيهم من عمالهم في الأقطار، وولاتهم في الأمصار، ومندوبيهم في المهمات، فهم قد يُقَصِّرون في تمثيل الخليفة، أو يخرجون عما رسم لهم من سياسة، ولهذا فعليهم رقباء سرّيّون، يوافون الخليفة بما يأتي منهم من نقص في الولاء، أو خروج عن الطاعة، أو ظلم للرعية، ولن نأتي بأمثلة عنهم إلا فيما فيه مضايقة عابرة، تري مدى همّ الخليفة منها، ومدى تنغيْصها لسعادته؛ ومن الأمثلة على بعض ذلك:

استعمل معاوية رجلاً من كلب، فذكر يوما

المجوس ، وعنده ناس ، فقال :

«لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم ، والله لو أعطيت مئة ألف درهم ما نكحت أمي» .

فبلغ ذلك معاوية فقال :

«قاتله الله ! أترونه لو زادوه على مئة ألف فعل» فعزله .[1]

لا بد أن صاحب البريد أسرع بهذا الخبر إلى معاوية ، فصعق معاوية أن يكون أحد عماله بهذا القدر من السوء ، وأصبح همّ معاوية بهذه الحادثة هَمَّين : همّ ما تركه هذا العامل من فكرة غير حميدة عن الحكم ، وهم العثور على من يخلف هذا العامل ، ويزيل ما علق بأذهان الناس .

وإذا كان هذا أحد هموم رأس الدولة الأموية ، فلأحد رؤوس الدولة العباسية هَمٌّ مع أحد مندوبيه وممثليه ، يمثل نوعاً آخر من الهَمِّ :

«كتب أبو جعفر إلى سلم [ بن قتيبة ] يأمره بهدم

(١) البيان والتبيين : ٢/ ٢٦٠ .

دور من خرج مع إبراهيم، وعَقْر نخلهم؛ فكتب إليه سلم:

«بأي ذلك نبدأ، بالدور أم بالنخل؟»

قال: فكتب إليه أبو جعفر:

«أما بعد، فإني لو كتبت إليك بإفساد تمرهم لكتبت إليّ تستأذنني بأيةٍ تبدأ؟ بالبرني أم بالشهريز؟!

وعزله، وولى محمد بن سليمان» .(١)

هذا مندوب ليس له رأي، ولا عقل ولا تدبير، وعلى نهج بني إسرائيل في اختيار البقرة التي أُمِروا بذبحها، فأخذوا يستوصفون، فذبحوها بعد لأي، وما كادوا يفعلون؛ وقد كشفت هذه المهمة السهلة سلماً، فأطاحت به، وانتهى مع ذلك هَمُّ الخليفة أبي جعفر المنصور.

ولمعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - هم خاص، إذ ابتلي برجل غبي، ابتلاه بنفسه، ولم

(١) البيان والتبيين: ٢/٢٨٣، لعمر بن عبدالعزيز همّ مماثل مع عبدالحميد الخطابي. راجع: عيون الأخبار: ١/١٠٣.

يكن في مستوى الخلفاء ، ومع هذا فقد وسّع معاوية معه الصدر ، وأطال الحبل ، وأنزله تدريجيا من عليائه إلى الأرض :

«من النوكى ربيعة بن عِسْل ، أحد بني عمرو بن يربوع ، وأخوه صبيغ بن عِسْل :

وفد ربيعة على معاوية ، فقال له معاوية :

ما حاجتك ؟

قال : زوجني ابنتك .

قال : اسقوا ابن عِسْل عسلاً .

فأعاد عليه ، فأعاد العَسَلَ ثلاثاً ، فتركه ، وقد كاد ينقدّ بطنه .

قال : فاستعملني على خراسان .

قال : زياد أعلم بثغوره .

قال : فاستعملني على شرطة البصرة .

قال : زياد أعلم بشرطته .

قال : فاكسني قطيفة ، أو هب لي مئة ألف جذع لداري .

قال : فدارك في البصرة، أو البصرة في دارك؟»[1]

(*) ولم يكن معاوية وحده من تعرض لمثل هذا الموقف، فهناك الوليد بن عبدالملك قابل أمراً مماثلا، وعالجه بطريق آخر، ولعل همّه كان أقلّ من همّ معاوية، إذ كان الأمر المعوج فيه قابلاً للتعديل، والملتوي ممكن التقويم :

«دخل على الوليد فتى من بني مخزوم، فقال له :

زوجني ابنتك .

فقال له : هل قرأت القرآن؟

قال : لا .

قال : إدنوه مني، فأدنوه، فضرب عمامته بقضيب كان في يده، وقرع رأسه به قرعات، ثم قال لرجل :

ضمه إليك، فإذا قرأ القرآن زوجناه» .[2]

الخاطب في القصة الثانية يختلف عن الخاطب في

---

(١) البيان والتبيين : ٢/٢٥٩ .

(*) بدء الجزء المزاد هنا على ما نشر في عكاظ .

(٢) البيان والتبيين : ٢/٢٠٣ .

القصة الأولى ، فربيعة بن عِسْل أحمق من مشهوري النّوكَى والمغفلين ، ويؤكد ذلك تصرفه مع معاوية ، والمخزومي لا يبدو أنه كذلك ، فالمهمّ أنه من بني مخزوم، وهم أقرب للخليفة من بني عمرو بن يربوع ، وقد قبله الخليفة مبدءاً ، ولكنه أحب أن يكمل تأهيله لابنته ، ولا تحتاج ابنة الخليفة إلى المال ، ولكنها تحتاج أن يكون زوجها متعلماً ، فهو سيدخل مجتمعا ولا يغطي ما قد يكون فيه من نقص إلا العلم .

والوليد بما فعله أظهر حكمة وعقلاً ، إذ هيأ اختباراً جيداً ليتبين له مدى تقدير الشاب لما تقدم له ، فإن نجح دلّ هذا على رغبة أكيدة منه للزواج ، وإن تقاعس دلّ هذا على أنه طامع مستغلّ .

وعائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - لها همومها ، وما هموم الزوجة إلا زوجة أخرى تلوح في الأفق ، وقد تعرضت عائشة لهذا الموقف ، وتصدت له بقوة ، لابد أنها أخرجتها عن طبيعتها ، لأن فعلها

جعل الرسول ﷺ يبتسم، من أجل غضبها، ومن ردها القوي في إحدى القصتين الآتيتين.

«عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري كان من المؤلفة قلوبهم، أسلم قبل الفتح، وشهده، وشهد حنيناً والطائف، ثم ارتد في عهد أبي بكر، ومال إلى طلحة وبايعه، ثم عاد إلى الإسلام. وكان فيه جفاء أهل البادية. جاء إلى الرسول ﷺ وعنده عائشة فقال: من هذه؟ وذلك قبل أن ينزل الحجاب.

فقال: هذه عائشة.

فقال: ألا أنزل لك عن خير منها؟

فغضبت عائشة، فقالت:

من هذا؟

فقال ﷺ: هذا الأحمق المطاع، أي في قومه». [1]

والموقف الذي انتصرت فيه عائشة لنفسها، وأخذت حقها مضاعفاً، مع إعجاب الرسول ﷺ

---

(١) البيان والتبيين: ٢/٢٥٣، ٢/٢٥٤.

بما حدث هو في القصة الآتية :

أتى الضَّحَّاك بن سفيان الكلابي إلى رسول الله ﷺ قبل بيعته ، ثم قال :

عندي امرأتان أحسن من هذه الحميراء ، أفلا أنزل لك عن إحداهما ، فتتزوجها ؟

وعائشة جالسة تسمع قبل أن يضرب الحجاب ، فقالت : أهي أحسن أم أنت ؟

قال : بل أنا أحسن منها وأكرم ؛ وكان امرءاً دميماً قبيحاً .

فضحك رسول الله ﷺ من مسألة عائشة إياه » .[1]

والهم كبير على بعض الناس الذين لم يتعودوا على مكابدة الأمور ، ويأتيهم الهمّ الكبير من أمر صغير وبسببه ، فيأخذ كلَّ حيِّز في تفكيرهم ، ويقلقهم أشد القلق ، خاصة إذا رافق هذا سوءُ فهم ، وقصورُ علم ؛ ولعبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قصة مع جاريته تؤكد هذا :

(١) المراح في المزاح : ٣٣٤ .

«قال نافع ، مولى عبدالله بن عمر :

كان عبدالله بن عمر يمازح مولاة له ، فيقول لها :

«خلقني خالق الكرام ، وخلقك خالق اللئام» .

فتغضب وتصيح وتبكي ؛ ويضحك عبدالله بن عمر» .[1]

أين همّ هذه الجارية من الخليفة المأمون ، وهو يفكر في ملء الأماكن الشاغرة بالكفايات التي تبرأ بها الذمة ، ويستقيم الحكم :

قال المأمون : «إن أهم الأمور كلها أمور القضاة والحكّام ؛ إذ كنا قد ألزمناهم النظر في الدماء والأموال والفروج والأحكام ؛ فوددت أني أجد مئة حاكم ، وأني أجوع يوماً ، وأشبع يوماً» .[2]

وللأطفال همومهم ، وقد يعربون عنها ، فيساعَدون على التغلب عليها ، وإزالة الهمّ الذي تراكم في صدورهم ، وقد لا يخبرون بما يجيش في صدورهم ، فيعقِد الهمّ فيها ، ويتراكم ، ويؤثر على حياتهم تأثيراً

(١) المراح في المزاح : ٣٣١ .

(٢) المحاسن والمساوىء : ١٥٢ .

قد يكـون بالغـاً ، بحيث يوجهها الوجهة التي قد تقضي عليهم ، أو تنغِّصها ؛ والقصـة الآتيـة عن إياس بن معاوية ، المعروف بذكائه وفراسته ؛ ولهذا لا عجب أن يسارع ، وهو صبي ، بإزالة الهمِّ الذي ساوره ، ويختـار الكلمات المـلائمـة للمـوقف ، والأسلوب المقنع في الوصول إلى غايته ، وبلوغ هدفه :

قال أبو الحسن :

«كان إيـاس بن معاوية ، وهو صغير ، ضعيفاً دقيقـاً دميماً ، وكان له أخ أشدّ حركة منه وأقوى ، فكـان معـاويـة (أبوهما) يقدِّمه على إياس ، فقال إياس يوماً :

يا أبت ، إنـك تقدِّم أخي عليّ ، وسأضرب لك مثـلي ومثله ، هو مثـل الفـروج حين تنفلق عنـه البيضـة ، يخرج كاسيـا كافيـا نفسـه ، يلتقط ، ويستخفّه الناس ، وكلما كبر انتقص ، حتى إذا تمّ ، فصار دجاجة لم يصلح إلا للذبح ؛ وأنا مثل فرخ

الحمام حين تنفلق عنه البيضة عن ساقط لا يقدر على حركة، فأبواه يغذوانه حتى يقوى، ويثبت ريشه، ثم يحسن بعد ذلك ويطير، فَيَجذُبِه الناس ويكرمونه، ويرسل من المواضع البعيدة فيجيء، فيُصان لذلك ويكرم، ويُشترى بالأثمان الغالية؛ فقال أبوه: «لقد أحسنت المثل»؛ فقدّمه على أخيه، فوجد عنده أكثر مما كان يظن فيه» .(١)

ويأتي التخلص من الهمّ، والبعد عن أسبابه وجوالبه، أحياناً بصفة لا يتوقعها أحد، لأنها تأتي على غير ما أَلِفه الناس، ويقصد صاحبها أن يجتث السّبب من جذوره، فيريح ذهنه؛ والحالة التي سوف نسوقها مثلا فيها احتساب، وقُصد بها وجه الله، وما قُصد به وجه الله، ونُوي من ورائه خير، فإن الله ينزل برحمته فيه البركة على صاحبه:

قال سعيد بن عبدالرحمن الزبيري:

سُرقت نعل عامر بن عبدالله الزبيري، فلم

---

(١) الحيوان: ٢/ ٢٧٨، سراج الملوك: ٢١٤.

يتّخذ نعلا حتى مات .

وقال : « أكره أن أتخذ نعلا ، فلعل رجلا يسرقها فيأثم » .[1]

إن الخير الذي يملأ صدر عامر ، وحبه لأخيه المسلم ، أعطاه الإرادة القوية التي بها يستطيع أن يعيش بقية حياته حافياً ، يعاني البرد في الشتاء ، والحرَّ في الصيف ، وما قد يأتيه من أذى الطريق : من نواتئه وترابه وأحجاره وحديده وقزازه وفخاره وأعواده وأخشابه وشوكه . لو درى السارق الآثم ، الذي سرق نعله ما كبّده لعامر لَعَرفَ مقدار الجريمة التي ارتكبها ، والفعل الشنيع المزري الذي أقدم عليه ، فإن كان عامر قد سامح ، لاعتقاده بأنه لم يسرق النعل إلا عن حاجة ، فلعل موازينه تثقل بالحسنات مع كل خطوة يخطوها حافياً ، ومع كل خطوة يخطوها السارق ناعلاً ، والله أكرم الأكرمين ، ولا يخيب من أتخذ جانبه - سبحانه وتعالى - في

(١) البيان والتبيين : ٢/ ٣٣٩ .

عمل يعمله، ولا في أمل يؤمله، ولا في رجاء يرجوه.

والحاكم همه كبير، ولا ينقطع سببه، لأن أمور الأمّة كلها معلقة به، صغيرها وكبيرها، فذهنه في شغل دائم؛ وعمر بن الخطاب خير من يؤخذ مثلا في هذا، لما عرف عنه من انقطاع لمصلحة أمته، فهي في ذهنه لا تغيب عنه.

ومن أهم ما كان يشغل ذهنه أمر اختيار الولاة، ومتابعة عملهم، بعد أن بدأت رقعة الخلافة تتسع، وابتعدت الأطراف عن المركز، وبدأت حياة الناس تتغير وتتعقّد بعد أن التقت الحضارات، وتصادمت العادات والتقاليد، ونشأ جيل جديد في هذه البيئة الجديدة المتغيرة، بدلا من البيئة السابقة المقفلة، الثابتة في مظهرها، وما هي عليه.

فهمّ عمر - رضي الله عنه - متنوّع: منه ما يخصّ الغزاة وتجهيزهم، واختيار قادتهم؛ ومنه ما يخص

أهلهم الذين خلفوهم وراءهم ، ومنه ما يخص وضع الأسس لحكم البلاد المفتوحة ، ومنه ما يتعلق بالمشاكل التي تنشأ فيها ، سواء كان ذلك في الأراضي أو الزراعة أوعلاقة الناس بعضهم ببعض. حتى اللغة العربية وسلامتها كان في ذهن عمر بن الخطاب حيِّز لها يهمه ويقلقه ، فاللحن يقيمه ويقعده ، لأنه ظاهرة خطيرة ، ويعرف مدى قوة هجومها على هذا المجتمع .[1]

ومن بين الأمور التي كانت تقلق عمر - رضي الله عنه - ، وباح بما يحمله نحوها من همّ ، أمر المدن الناشئة حديثا بما تجمع فيها من عناصر مختلفة من الأعراب :

قال عمر :

«أعضل بي أهل الكوفة ، إذا وليت عليهم الفاجر القويّ فجروه ، وإذا وليت المؤمن الضعيف هجنوه .

(١) «مر عمر على رماة غرض ، فسمع أحدهم يقول لصاحبه : أخطيت وأسأيت !! فقال عمر : مَه ! فسوء اللحن أشد من سوء الرماية» البصائر : ٨/ ٩٠ .

فقال المغيرة : المؤمن الضعيف له إيمانه ، وعليك ضعفه ، والفاجر القوي لك قوته ، وعليه فجوره .

قال : «صدقت» ، وولاه الكوفة» . [1]

لقد كان أمر الكوفة وحكمها همّا يشغل ذهن عمر ، وقد امتلأ به صدره ، ففاض ما فيه على جلسائه ، وتصيد الحل ، ووضع يده عليه حين رآه .

ويمكن أن نتلمس أسباب اهتمام عمر - رضي الله عنه - بالكوفة ، مجتمع الغزاة ، والمرجل المختبط بالغليان ، فنجد بعض هذه الأسباب تفصح بها أقواله ، التي هي نفث صدره ، فمثلا هناك قوله إذا كتب إلى أهل الكوفة :

«يكتب لهم : رأس العرب ، ورمح الله الأطول» . [2]

إن هذا القول صادق ، وإنه لتعبير دقيق ، ورسم متقن ، ففي الكوفة تجمعت صفوة القبائل ، ورجالها الأشِدَّاء ، وإنها ، وهي مركز التجمع

(١) محاضرات الأدباء : ٦٨ ، البصائر : ٣/ ٩٤ .
(٢) البصائر : ١/ ١٨٩ .

للغزو الذي منه ينطلقون شرقاً، مثل الرمح الذي يحرك في الكوفة فيطعن في الثغور.

وله تعبير آخر يحلو له ترداده:

«كان عمر - رضي الله عنه - إذا ذكر الكوفة قال: كنز الإيمان، وجمجمة العرب، ورمح الله الأطول»[1].

هذه جملة أخرى فائقة، لخصت الصورة التي في ذهن عمر، وأجملت نظرته إلى الكوفة، وقد زادت هذه الجملة على الجملة السابقة في أنها أبانت عنصر العلماء الذين انتقلوا إلى الكوفة، وأن الرمح الذي تتجه شباته إلى الثغور إنما هو رمح الإسلام، تحت راية الدين الحنيف.

وأهل الكوفة إذا لم يرع الخليفة أمرهم رعاية خاصة، ويتقن اختيار حكامهم، فإنهم ينقلون همهم إليه، وهذا ما حدث بعد سنين من وفاة عمر وانتهاء دولة الأمويين، ومجيء العباسيين، ورغم

(١) ربيع الأبرار: ١/٣٠٨.

تغيّر أحوال الكوفة ، واختلاف المجتمع بها ، فإنّ سكانها يأتون إلى الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد ، ويحاولون نقل عبء همّ حملوه من والي الخليفة إليه ، ويحاول الخليفة أن لا يكابد العبء ، ولكن حرقة الألم عند الكوفيين ، وما يبدو أنهم عانوه منه ، جعل زند الفصاحة عندهم يقدح قدحة أيقظت الخليفة ، فلم يكتف بالاستجابة لطلبهم وعزل الوالي ، بل أبدى استحسانه لما قالوا ، إذ ضحك إعجاباً واستحساناً .

«تظلم أهل الكوفة إلى المأمون في والٍ كان عليهم ، فقال المأمون :

«لا أعلم في عمالي أعدل وأقوم منه» .

فقام رجل فقال :

«إن كان عاملنا بهذا الوصف ، فحق أن تعدل بولايته ، فتجعل لكل بلد منه نصيبا ، لتسوي بالعدل بينهم ، فإذا فعل أمير المؤمنين ذلك ، لا يصيبنا منه أكثر من ثلاث سنين» .

فضحك وعزله» .[1]

ويستولي الخوف أحيانا على الإنسان من أمر يوجب الخوف ، فيملؤه بالهم ، فيلجأ المرء حينئذ ، محقا ، في محاولة تفادي مصدر الخوف ، بالتحرز ، فيكون الهم الحقيقي في الملجأ لا في ما هرب منه ، وفي الحصن لا في المتحصن عنه ، وذلك لأن الله - سبحانه وتعالى - لم يكن مع المرء في مهربه ، ولم يضف عليه من رحمته وحفظه ما كان في أشد الحاجة إليه ، كما قال الشاعر :

«إذا لم يكن عون من الله للفتى
فأكثر ما يجني عليه اجتهاده»[2]

والقصة التالية تبين أن أعرابيا انتقل من همّ من شيء متصور إلى همّ قاتل :

انتهى أعرابي إلى أرض ، فقيل له :

«إنها معفاة» فبات على ظهر راحلته ، فتعلقت

---

(١) محاضرات الأدباء : ٧٩ ، الكشكول : ٢/٣٥٣ .
(٢) محاضرات الأدباء : ١٧٣ .

حية بنسعة كانت في يده، فلسعته، فقال، وهو يجود بنفسه:

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي
إذا هو لم يجعل له الله واقيا[1]

وهمّ نبيل اختاره أحمد بن أبي دؤاد، وأسكنه مكانا دافئا في نفسه، وتحمل من أجله همّا كبيراً آخر، فهو من أجل همّ في همّ، لأنه وجد أن الهمّ الثاني على عظمه يخصه هو، وأن له فيه أجراً عند الله - تبارك وتعالى - أما الهمّ الأول فصغير عنده، إذا ما قيس بعظمِهِ عند صاحبه، فضحى بتحمل همّه، ليزيل غمّه؛ وحل هذا الإلغاز تكشفه القصة التالية:

«غضب المعتصم مرة على رجل من أهل الجزيرة، وجاء به ليقتل على ذنب أتاه، فتكلم فيه ابن أبي دؤاد، ثم غلبه البول، فخاف إن خرج ولم يستوف الكلام أن يقتل الرجل، ولم يعد يطيق

(١) محاضرات الأدباء: ١٧٣.

الصبر، وكانت ثياب تلك الأيام كثيرة، فجمع ثيابه تحته، وبال فيها، وأنقذ الرجل.

فلما قام قال المعتصم: ما لثيابك مبتلة؟
فسكت، فأعاد عليه.
فأخبره الخبر، فكاد يغشى عليه من الضحك». [1]

هذا الرجل العظيم، ذو المكان المتقدم، عند هذا الحاكم الجليل، في هذا المجلس الجامع، في هذا المقام المهيب، لم يتردد أن يرتكب هذا العمل المشين، ويقدم على هذا الفعل الواضح المنتقد، لينقذ رقبة مسلم، قضى في داخل نفسه أنه لا يستحق القتل، فأقدم على ما أقدم عليه، وعانى ما عاناه منه، وكافح وجادل، وترضى وتحبب، حتى بلغ غايته، أملا في الأجر والثواب.

هذا كما رأينا همّ فريد نبيل، وهمّ فُصِّل على حامله، وتناسب مع مقامه، ومقام من هو في مجلسه، إذ أن مجالسة الخليفة تستوجب ملاينته في

---

(١) رجال من التاريخ: ١٤٠.

الموقف العسر، ومداراته في موقف الغضب، فلا يأتي بفعل وهو غضبان، يندم عليه عندما تهدأ سورة الغضب، والملوك يحمدون مثل هذه المواقف من جلسائهم.

ولننزل في درجة الهموم إلى هموم الجدل بين العلماء في العلوم المختلفة، ففيها من الطرافة لنا ما يفوق ألمهم، وهذا نموذج لأحدها:

«قال الأعمش في حديث عبدالله بن مسعود حين خرج على أصحابه، فقال:

إني لأعلم بمكانكم فما يمنعني من الخروج إليكم إلا مخافة أن أملّكم، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.

فقال أبو عمرو بن العلاء، وكان إذ ذاك بالكوفة: إنما هو «يتخوننا بالموعظة».

فقال الأعمش: «يتخولنا».

فقال أبو عمرو: «يتخوننا».

فقال الأعمش: وما يدريك؟

فقال أبو عمرو : إن شئت أن أعلمك أن الله -جل وعز- لم يعلمك من العربية حرفاً واحداً أعلمتك» .[1]

ويجمع الحجاج بن يوسف جيوش الهمّ التي تكفى في القضاء على امرأة ، ولكن الله ينظر إليها برعايته ، فترتد هذه الجيوش مهزومة مدحورة ، بعد أن أقبلت بطبلها وزمرها ، وقعقعة سلاحها ، وخفق بنودها ، وصهيل خيلها ، وجلبة رجلها ، فعصرت قلب هذه المسكينة بقبضة حديدية من يدها ، وأذهبت عقلها ، وأطارت لبّها ؛ ولكن قوة الله فوق قوة الجميع ، وإرادته قاهرة كل إرادة ، وأمره مبطل كل أمر ، ورحمته مغطية كل رحمة ، سبحانه جلت قدرته ؛ لقد أنزل الله الرحمة في قلب الحجاج ، فازدهرت دوحة العفو في نفسه ، ونسي الذنوب التي أغضبته ، ولم يهتم إلا بكلمات مضيئة وفّق الله المرأة إلى قولها ، وتدبر معانيها ، وهي تجيب

(١) مجالس العلماء : ١٧٧ ، ٢٣٨ .

على اختبـار الحجاج، رغم رهبة الموقف، والأمر الجلل الـذي ينتـظر صفـوة أهلهـا، ففتحت هذه الكلمات مزاليـج قلبه، لتسطع فيها أشعة العفو، وأنوار التسامح:

«قيل لامرأة أسرٍ الحجاج زوجها وابنها وأخاها: «اختاري واحداً منهم».

فقالت: الزوج موجود، والابن مولود، والأخ مفقود؛ أختار الأخ.

فقال الحجاج: عفوت عن جماعتهم لحسن كلامها». [1]

هذه نماذج من الهمـوم، أدخلنا اليد عمياء في جراب متجمعهـا، فمثلت جوانب شتى مختلفة، بعضها الهمّ فيه طاغ كاسح مقيم مديم، وبعضها عابر مؤقت، وشملت النماذج، التي سقناها، أناسا مختلفي الطبقات والظروف والعقول.

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٤٥.

ونختم القول في الهموم بقول الشاعر :

إذا ازدحمت همومي في فؤادي
طلبت لها المخارج بالتمني

وهو مخرج لم نذكره، ولكننا نختم به ، أبعد الله عنا الهم ، وأزال الغم ، وتولانا بلطفه ورحمته .

# مكنون الدرر(*)

ما دَخَل العقل في أمرٍ إلّا زانه، لأنه الجوهرة الثمينة التي جعلها الله في الإنسان يميّز بها الخبيث من الطيب، والطالح من الصالح، والخطأ من الصحيح، والضار من النافع؛ فالعقل هو الذي يميز الشيء من ضده.

والعقل يرتقي بالإنسان، وهو وسيلة تطوّره، وأداة تقدمه، وبقدر ما يُعمِله الإنسان يستفيد، فإذا ما أهمل صدأ مثلما يصدأ الحديد.

وهناك رجال أعملوا عقلا نشطا وهبه الله لهم، فجاؤا بالحكم، ونطقوا بدرر الأقوال، التي لمعت أنوارها، فأضاءت مجال حضارات سعدت بها البشرية، وأصبحت لها معالم على الطريق، تهتدي بها إلى الغايات النبيلة في الحياة، وصارت هذه الكلمات هي ملوك الكلام، وحملت من الأفكار

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (١٠١٢٠) في ١٢/١١/١٤١٤هـ الموافق ٢٣/٤/١٩٩٤م.

أرقاها، ومن العلم أصدقه وأصوبه.

وفي التراث درر مكنونة، جاءت على ألسنة أناس أوتو الحكمة، ولهم عقول تغوص على الدرر، فتأتي بها ابتداءًا، أو رداً على سؤال، أو يثيرها منظر من المناظر، أو تأتي بها مناسبة من المناسبات؛ والإنسان حيالها لا يملك نفسه من الإعجاب بها، واتخاذها ديدنا له، ومبدأً يسير عليه، إذا كان من الذين يقدِّرون الثمين.

النصيحة تُزْجَى، وقد تكون من مخلص عاقل، فتكون ثمينة، ويرجى منها النفع، وقد تكون من قلب غير مخلص، فتلبس ثيابا غير ثيابها، وتأتي بثوب نصيحة، ولكن داخلها ذئب مفترس، فإن اكتشف أمرها أمكن تفاديها، والحيلولة دون ضررها، وإلا فإن ضررها يكون بالغا، وأذاها كبيراً.

والنصيحة المخلصة درة ثمينة، وتكمل أركانها إذا روعي فيها بعضُ الجوانب، ومنها ألا تكون على

ملأ، ومنها شروط أخرى، والقول الآتي يفيد في ذلك:

«ولا تنصح أحداً، ولا تَعِظه على الملأ، فقد قيل: النصيحة بين الملأ تقريع»[1].

وهذه نصيحة في النصيحة، إحتوت على درة من الدرر، فالنصيحة على الملأ، وأمام الناس تخرج عن نطاق النصيحة، فالمنصوح غالبا لا يقبلها، لأنها تلفت النظر إلى العيب الذي فيه، وتساعد على نشره، فهي إذلال له أمام من فوقه ومن تحته ومن هو مساوٍ له؛ وتلجؤه في الغالب إلى أن يكابر، ويصم أذنه عن النصيحة، وتأخذه العزة بالإثم فيعاند، ويركب رأسه، ويستمر في الطريق الذي هو فيه.

والوالدان هما خير من يعي هذه النصيحة في التربية، فابنهما، أو ابنتهما في سن غير ناضجة، وهما أولى من ينفر من النصح أمام الناس، لأن الطفل حينئذ يكون أقرب إلى المعاندة والموافقة.

---

(١) قاموس نامه (النصيحة): ٦٣.

والنصيحة تحتاج إلى دراسة نفسية للمراد نصحه ، بعد أن يقرر أن يكون النصح على انفراد ، والأمر يحتاج إلى البدء بالجانب المقنع ، وإيضاح الأضرار التي تقصد النصيحة تجنبها ، وتجسيدها وتكبيرها ، والناصح ، في أثناء ذلك ، مديم لدراسة من تُسدى إليه النصيحة ، والنظر إلى وجهه ، وهو المرآة التي تكشف غالباً عما يدور في النفس ، فيكون الكلام وتوجيهه حسب ما يبدو على هذه المرآة .

ونجاح النصيحة يتوقف على السير فيها « بجانب الجدران » ، وعدم الإتيان إلى الهدف مباشرة ، حتى لا يجفل المُوَجَّه له الكلام ، ويأخذ حذره ، ويبني حصون دفاعه ، ويدخل فيها ، فلا يستطيع الناصح الوصول إليه أو إخراجه منها ، وعليه أن يأخذ بالحكمة التي ترسم كيف يعسف الفرس ، وكيف تطوع الناقة .

وباب النصيحة ، مادمنا قد ولجنا رحابها ، ودخلنا في حيز الحديث عنها ، ولمسنا عرضا أنها

إحدى وسائل التربية ، وأن الوالدين يقومان بدور كبير فيها مع أولادهما ، فلا أقل من أن نقتبس نصيحة في هذا المجال ، فهذا أب ينصح ابنه ، ويختار الجانب الذي يدخل منه ، ويطرق المجال الذي يَرى هو ، في حالته وحالة ابنه ، أنهما في حاجة إلى الحديث فيه ، وهو درة من الدرر المهداة :

قال أعرابي لابنه :

«يا بني ، الأدب دعامة أيد الله بها الألباب ، وحيلة زين الله بها عواطل الأحساب ، والعاقل لا يستغنى - وإن صحت غريزته - عن الأدب المخرج زهرته ، كما لا تستغنى الأرض - وإن عذبت تربتها - عن الماء المخرج ثمرتها» .(١)

وبصرف النظر عما إذا كان قائله أعرابيًّا ، أو أديباً فصّله في ركن قصي من داره ، وألبسه ثوب الأعرابي ، فإن هذه النصيحة جوهرة ثمينة ، ودرّه فريدة ، أهديت من أب إلى ابن ، والأب السوي لا يبخل

---

(١) الكشكول : ٢/١٣٣ .

على ابنه بأغلى ما لديه ، مما يمكن أن يحصل عليه .

وقد وُفِّق مسدي هذه النصيحة في محاولة الإقناع بها ، وتثبيتها عن طريق التمثيل ، فهو أنجح وسائل الإقناع والتثبيت ، لأن المادة المحسوسة فيه أقرب لتصوُّر المخاطَب ، ومعرفته بدقة ما هو مخاطب به ، لأن المعاني الفكرية المجردة قد لا تكون خير جسر موصل .

وتأتي الدرة أحيانا عن طريق الإرشاد إلى الأمر الصحيح الحق ، وتوضح ما قد يكون بعيداً عن بؤرة التفكير ، وصاحبه غافل عنه ، ويحتاج إلى إيقاظ وتنبيه :

«قيل إذا أردت أن تعرف صاحبا كيف يكون لك ، فانظر كيف كان لمن قبلك ، فإن أحمدته ، فاستخلصه لك ، وإن ذممته فتنكَّبه» .[1]

هذا مقياس ثمين لضمان صحة الصحبة ونجاحها ، فالأمر اللاحق يقاس بالسابق ، والسير في ضوء هذا

---

(١) محاضرات الأدباء : ٢٤٢ .

الإرشاد يغني عن التجربة، والتعرض لخيبة الأمل؛ وما أرشد إليه هذا القول هو تجربة جاهزة، يمكن عن طريقها التحَّقُّق من طالب الصحبة؛ وهذا يذكرنا بقول عمر - رضي الله عنه - لرجل مدح آخر، فقال له عمر: هل سافرت معه؟ وهو مقياس صادق دقيق، لا يخطيء ولا يغش، ولا يزوق ولا يدلس، وعمر - رضي الله عنه - خشي أن الرجل حكم على الآخر من مداومته المجيء إلى المسجد، وقد كاد عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - أن يخدع عن هذا الطريق، وهو يبحث عن ولاة وقضاة:

فلقد رأى عمر بن عبدالعزيز رجلا ملازماً لعمود في المسجد، وأمل فيه خيراً، ورجا أن يكون باطنه مثلَ ظاهره، وأسرَّ بهذا الخاطر إلى صديق قال له: دعني أكشفه. فجاءه وقال له إن الخليفة يبحث عمن يوليه فإذا نجحتُ في إقناعه في اختيارك، فهل تجعل لي جعلا عن ذلك، فوعده بذلك، فأخبر عمرَ بما تم بينهما، فعدل عمر عن رأيه فيه، وقد كاد أن يخدع، ويقع في مصيدة محتال، جعل وسيلته

الدين ، ولكن نية عمر انقذته ، وهيأت له مستشاراً يعرف أنْفُس الناس ، وهو برجال زمنه أعرف من عمر .

والكلمة إذا اتصفت بالحق ، واتسمت بالصحة ، وطابقت الواقع ، فهي درة من الدرر ، مهما صغرت في عين الناس ، إلا أن مراميها ليست صغيرة ، لأن الحقيقة منيرة ، وتكشف جوانب مهمة في ظلمات الحياة الحالكة السواد :

« أخذ رجل بلجام عبدالملك ،
فقيل له : ما جرأك ؟
فقال : الجوع شجاع » .[1]

صدق الرجل ، لقد كان في داخله ما أعماه عن أي شيء إلا الغرض الذي كان يسوقه إليه الجوع ؛ ألم يقولوا : « إنَّ الجوع كافر » ، « وليس بعد الكفر ذنب » ؛ لقد ذهل فكره عن الخطر الذي يلازم خطوته هذه ، كان بالإمكان أن تتناوله السيوف في

---

(١) محاضرات الأدباء : ١٩١ .

تلك اللحظة ، قبل أن يبين هدفه ، وكان بالإمكان أن يطرد ويصفع ويركل ، ولا بد أنه وجد مشقة في اختراق صفوف الحرس والمرافقين الراكبين ، حتى بلغ هدفه بمشقة ، ولا وقود معه إلا نقص الوقود ، فالسلب هنا كان إيجابا ، والعدم وجوداً .

وتأتي درة أخرى عن طريق قول الحقيقة ، وتقرير الواقع ، استقراء لأحوال الناس ، وما هم عليه من طبيعة ، ومما أصبح هو المعتاد إلا فيما قل :

«ما من خصلة تكون للغني مدحا ، إلا وتكون للفقير ذمّا ، إذا كان حليماً قيل هو بليد ، وإذا كان شجاعا قيل هو أهوج ، وإذا كان لسنا قيل مهذار» . (١)

وهذا قول صحيح ، يلاحظه المرء عند أقرب استقراء ، ويراه كثيراً ، عند تدقيق الملاحظة والالتفات ؛ ولهذا قيل عند العامة : «إن الدراهم كالمراهم تجبر العظم الكسير» ، فهي لا تغطي على

(١) محاضرات الأدباء : ١٩٠ .

عيب الغني ، بل تجعل العيب فضيلة ، والسيء حسنا ، ولا يعدم العقل أن يجد السبيل إلى تلمس الأعذار للغني لغناه ، وللفائدة التي تُرجى منه .

ولا يستحيي بعض الناس من «تغير الموجة» بسرعة فائقة أحياناً ، يتكلم غني ويثلب أمراً ، وينتقده ، فيفهم ما قال خطأ ، ويُظن أنه يمدحه ويثني عليه ، لأن عباراته قد لا تكون واضحة ، وفهمت خطأ ، فيمدح من حضر مسايرة للغني ، فإذا ما صَحَحَّ الغنيّ رأيَ الحاضرين عما قصده ، وفهمهم مقتضى قوله ، سارعوا إلى الثلب والتهجين والقدح ، دون حياء ، أو تردد !

ولهذا يُحرص على الغِنَى ، والبعد عن الفقر ، ولا يَمْدَحُ الفقر إلا من عجز عن أن ينال الغنى ، والدين أمر بالعمل والاجتهاد ، والكسب الحلال ، لأن الغني قوة لمجتمعه في وقت الرخاء والشدة ، فهذا عبدالرحمن بن عوف - رضي الله عنه - كان رفداً خيراً لمجتمعه ، ومثله غيره من الصحابة ، الذين وسع الله عليهم في أرزاقهم ، وهذا الزبير مَثَلٌ

آخر ، أعطاه الله بسبب معاملته الحسنة في تجارته .

وعروة يقول في شعره في ذم الفقر :

ذريني للغنى أسعى فإني
رأيت الناس شرهم الفقير[1]

ليس الفقير شراً في نفسه ، فقد يكون خيراً في نفسه وفي مجتمعه ، ويعدل في الميزان ألف غني عند الله ، ولكن الشر قد يحيط حياته ومعيشته ، ومعاملة الناس له ، ونظرتهم إليه ، فلا هو يجد ما يريحه سكنا ، ولا ما يجزيه قوتا ، ولا ما يُدفئه ويجمله لباساً ؛ فإن أراد زواجا فقد يرد ، وإن أراد قرضا فقد يحتاج إلى كفيل مليء ؛ هذا هو مدلول الشر في قول عروة ، وعروة لهذا اختار الغنى مصدر العز ، والإعانة على الحق لمقابلة ظروف الحياة .

والمجتمع نفسه يؤكد هذه النظرة ، ويعطي اعتباراً للغنى لما له من مردود على الناس أفراداً ، وعليهم مجتمعين .

---

(١) محاضرات الأدباء : ١٩٠ .

فهذا بشار بن برد لا يعدم أن يغوصَ على درة من الدرر يخرجها من مكمنها، ويعرضها على الناس، فكراً نيراً، وقولاً صوابا:

يزدحم الناس على بابه
والمنهل العذب كثير الزِّحام

لقد أعطى بشار، وهو الشاعر الفحل، صورة جَميلة للغني، فشبهه بالمنهل العذب، وهل هناك أسرع نجدة، وأحلى مورداً من الماء العذب للصادي:

وقد صدق في هذا كما صدق القائل:

يسقط الطير حيث يلتقط الحب
وتغشى منازل الكرماء

والمجتمع له قوانينه، وله الأصول التي يسير عليها، وهي تنبع منه، وتتبلور بتجربته؛ لا تُملَى عليه من أحد، ولا تفرض عليه من خارجه، ولأنها طبيعة فالإنسان لا يستطيع الإخلال بها، أو تجنبها فالمجتمع عندما أعطى الغني هذه المنزلة أعطاها له

باختيـاره، وبما اعتقد أنه يستحقها حسب عرفه، ومـا اعتـاد عليـه، ورضيـه له، دسـتـوراً حاكـماً لتصرفه، ولهذا لما تساءل شخص عن سبب إكرام النـاس للغني، غباءً منه وجهلا، رد عليه الحسن البصري بدرة من الدرر، أضاءت له الطريق إلى المعرفة التي جهلها:

«قيل للحسن:
ما بال الناس يكرمون أرباب المال؟
فقال: لأن عشيقتهم عندهم»[1].

وليس كل المـــدح للغنى والأغنيـــاء في الأدب والـتراث، وإنـما المدح لما يفيده الغِنَى لصاحبه في الدنيا، وما قد يفيده في الآخرة، ولكن كما قلنا، فقد يكون هناك فقير واحد خيّر، يزن عند الله وعند الناس أكثر من ألف غني، بخلقه وفائدته لمجتمعه، وارتفاع ضرره وأذاه عنهم، بحسن تصرفه، وسداد رأيه، ولقد قيل كلمة حق في حق الفقر والفقير،

(١) محاضرات الأدباء: ١٨٩.

وهي أمر واقع وملموس ، بصرف النظر عن ما قد يكون هناك من تعليل ، أو اعتراض إذا نظر إليها من زاوية أخرى :

«قال بعض الحكماء :

من شرف الفقر ، أنك لا تجد أحداً يعصي الله ليفتقر ، وأكثر ما يعصي المرء ليستغنى» . (١)

هذه درة إذا نظرت إليها من الزاوية التي نظر منها الحكيم ، ولكنها حجر منبوذ إذا نقضها فعل بعض الفقراء الذين يصرفون ، على الخمر والدخان والقمار والحشيش في بعض المجتمعات ، قوت عيالهم ، فيفتقرون فوق فقرهم فقراً مدقعا .

ويأتي الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بدرة من لسانه وعقله - لا بدرة يده ! - وهو خير بحر تكمن فيه الدرر :

«وقال عمر لرجل همّ بطلاق امرأته :

فقال له : لِمَ تطلِّقها ؟

---

(١) الكشكول : ٢/١٥٢ .

قال : لا أحبها .

فقال عمر : أَوَكُلُّ البيوت بنيت على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم» .[1]

عمر - رضي الله عنه - فزع عندما سمع هذه الكلمة من الرجل ، وقد استدل منها على جهل الرجل وغبائه ، وعلى ضحالة معلوماته عن الحقوق التي تترتب على كل من الزوج والزوجة ، فنبهه إلى ما غفل عنه ، وعلمه ما كان يجهله ، ورده إلى جادة الصواب ، بعد أن كاد يحيد عنها .

نبهه إلى أنه ليس كل البيوت تبنى على الحب ، والحب نفسه يضعف أحيانا مع الزمن ، ومع بعض المشاكل الزوجية ، وعند انصراف أحد الزوجين إلى ما يشغله من أمور الحياة : الرجل وعمله وهمومه ، والمرأة وعمل بيتها ، ومكابدة أطفالها ، وما قد يعتريها من حمل وولادة وأمراض .

ونبهه إلى أن هناك رعاية يجب أن تبذل قامت على

---

(١) البيان والتبيين : ٢ / ٨٩ .

تذمم الحرمات ، وأوجبتها المصاهرة ، والرباط بين عائلتين ، وعدم نسيان الأطفال إن وجدوا ، فليست النساء ثوباً يقاس وينبذ ، ويختار غيره حتى يجد المرء ما يناسبه في وفاقه وشذوذه .

كان عمر - رضي الله عنه - ينظر إلى الأمر نظرة الراعي لرعيته ، يحاول أن لا يترك أحداً يوجد ثغرة في حصن من حصون الإسلام المصونة : الزواج وحرمة بناء البيوت ، ولهذا لم يُسلِّم عمر للرجل على أثر كلمة براقة أوحى بها الشيطان ، وخطف بريقها الرجل الساذج ؛ وهي للأسف اليوم مادة بعض الأفلام والقصص والروايات ، ولعدم صحتها ، وغش بريقها تسببت في هدم بيوت كثيرة في بلادنا العربية .

وقصص بعض الأفلام والروايات هذه ، والتمثيلات والمسلسلات ، الهدم فيها للأسف أكثر من البناء ، وتكاد تجمع على أن يكون إطار القصة : « التذمر » ، فلا يخلو فيلم تقريبا من الإرتكاز على تذمر :

يتذمر الابن من أهله لأنهم لم يسيروا معه في رأيه، فهو غني، ويريد أن يتزوج فتاة فقيرة ليست من طبقته، ويجعله الفيلم ينجح، ويتزوجها، ويُري أن الحديث غلب القديم، وتتزوج ابنة الأغنياء شاباً فقيراً يظهرها الفيلم على حق وهم على باطل، وشابة من عائلة دينية، أو من علية المجتمع، تهوى الغناء، أو الرقص، وتعصي أهلها، وتسير في طريقها، ويظهر لها من النجاح في الفيلم ما يجعلها على حق وهم على باطل، وشاب مثلها يهوى الغناء، ويتمرد على مجتمعه، ويكون الحق معه في نهاية الأمر.

هذا في أبناء الأسر وبناتها، وهناك العمل، ورب العمل، فلابد من إيجاد قصة يتمرد فيها العامل على رب العمل، وينجح العامل، بفضل سبك القصة، ويظهر رب العمل بمظهر المتسلط الظالم. وهذا ميدان واسع، لأن مجالات الصناعة واسعة، ولابد من تأكيد الفكرة بالمرور على عدة مصانع، وما أكثرها، وما أكثر إلهامها، وسهولة

التهـديم فيهـا ، مما يسـاعـد على رضوخ صاحب المصنع ، أو مدير العمل .

والـوظـائف والموظفون مجال واسع للتذمر من الأفـراد ضد مديـرهم أو ضد الـدولة ، يتبع هذا السَّعْي لايجـاد نقـابـات وجمعيـات ، تلهب هذا التذمر ، وتزيد من حدته .

وعـلى العموم الهدف هو هدم القديم بفضائله الدينية والدنيوية ، وإحلال الحديث بخيره وشره ، ونقل نبتة غريبة إلى المجتمع العربي ، لا تصلح له ، تؤذيه ولا تنفعه ، ويلعب التقليد الأعمى دوره في نقل هذه العادات والتقاليد ، ويلعب مركب النقص ، والضحالة في التفكير دوره في تقبل ما ينقل .

والخلل يأتي من نقل ما يصلح في المجتمع الغربي وبعـاداتـه وتقـاليده ، وأنظمته وقوانينه إلى مجتمع لا يتنـاسـب معهـا ، فإذا كانـوا اقـتربـوا من منزلة الحيوان في طرده لأبنائه بمجرد أن ينبت الريش ، أو يبدأ الصغير يستغنى عن اللبن ، ويقتات على لحم

الصيد، أو حشائش الأرض، يطرده والداه، ويستعدان لولادة جديدة، فإذا كانوا في الغرب قلدوا الطير والحيوان في هذا، وأبعدوا أولادهم عنهم، عند بلوغ الثامنة عشرة، فنحن لنا دين وعادات وخلق يمنعنا من ذلك، ويبقى الصلة دائمة ليس فقط بين الوالدين وأبنائهم، بل يحث على صلة الرحم، والعناية بالأبعدين من الأقرباء، فهناك العصبة، وهناك العاقلة، ومجتمعنا يعترف بالإنسان إنسانا، والحيوان حيوانا، ولا يخلط بين عادات هذا وعادات هذا، ولا يزاوج بين الغرائز.

كنت أسكن مع عائلة انجليزية، أثناء دراستي في لندن، ولم أكن أعرف أن والدة صاحبة البيت لا تزال على قيد الحياة، وأنها تسكن في مكان لا يبعد عن البيت الذي نسكنه مع ابنتها وزوجها وأولادها، حتى جاء عيد الميلاد، فرأيتها تكتب لها بطاقة معايدة، وكنت أساعدها بكتابة أغلفة بطاقات التهنئة بالعيد؛ فعلمت منها حينئذ أن

إحدى هذه البطاقات لوالدتها ، ودهشت عندما علمت أن والدتها لا تزال على قيد الحياة ، وزادت دهشتي عندما علمت أنها لا تبعد عنا إلا ثلاثين ميلا ، وأننا في بعض رحلاتنا في القطار نمر محاذين للبلدة التي هي فيها ، وفيها دار كبار السن التي تسكنها ؛ ولم ترها من خمسة عشر عاما ، والصلة الوحيدة بينهما هي هذه البطاقة ترسلها كل سنة !!

(*) وأفلاطون من الحكماء الذين أُثِرت عنهم الحكمة ، والقول الصائب ، فكان من المفكرين الذين استفادوا من عقلهم ، وتدبرهم ما يمر بهم في دروب الحياة ، فكانت بهذا أقوالهم عصارة فكر وتدبر وتجربة ، ولابد أنه راقب الفتن ، وسهولة إثارتها ، وصعوبة تسكينها ، سواء كانت هذه المشاكل عائلية ، أو بين تجار ، أو بين صناع ، أو على مستوى الدول ، فأصدر قولا صائباً ، ولإيمانه به نقشه على خاتمه :

---

(*) من هنا تبدأ إضافة لما نشر في صحيفة عكاظ .

«كان على خاتم أفلاطون : تحريك الساكن أسهل من تسكين المتحرك» .(١)

هذا قول حق ، ومنطق صائب ، لا يغيب عن ذهن المفكر ، ولا يتخطاه نظر المتبصر ، وهو صادق على كل حال ، وقاعدة ثابتة لكل زمان ؛ من اعتبر به استفاد وسلم ، ومن تجاهله ضُرّ وندم ؛ وهو دواء لائق للفتن ، ورادع منذر لمثيرها .

ومن الدرر التي تأتي التجربة بها ، بعض الحكم التي تلمس بعض جوانب الحياة ، والأخذ بها ، وفي تطبيقها يأتي للمتعظ الخير ، ويبعد عنه السوء :

«لا تتركن مباشرة جسيم أمرك ، فيعود شأنك صغيراً ، ولا تلزمن نفسك مباشرة الصغير ، فيصير الكبير ضائعاً» .(١)

هذا القول انصب على إزالة اللبس من بعض الأذهان ، فقد يتراخى المرء عن مقابلة أمر جسيم بما

---

(١) البصائر : ١/١٢٧ .

(١) الأدب الكبير : ٢١ .

يستحقه من المعالجة والحزم، تواكلا في ذلك، أو تهاونـاً بشـأنه، أو هيبة له، فيصبح المتراخي عند مجتمعه في مرتبة أدنى مما كان قبل حدوث ما أوجب اختياره، فالشجاع إذا لم يقم بواجبه تجاه طارئ يحتاج إلى شجاعته فإنه يفقد مكانه، والغني الذي لا يهب لنجدة مجتمعه في وقت ضيق يتقهقر مكانه، ويصغر مقامه.

أمـا الكبـير الـذي يترك مباشرة الأمور الكبيرة ويتعلق بالأمـور الصغيرة، فإنه يضيع بين طيات الصغير، وتصطبغ أخلاقه وتفكيره بها، وينعَزل عما كان في مستـواه، فيتـدنى هذا المسـتوى، وتضيع أمـوره الكبـيرة، وتضيع تبعا لها الصغيرة؛ ولهذا فالنصيحـة في محلهـا، تلك التي ساقها عبدالله بن المقفع في كتابه: «الأدب الكبير».

ومن الـدرر المنتقـاة فيـما يجب أن يكـون عليه المسؤول عن أنـاس في مجتمـع من المجتمعات ما يلمس صلاحها ورفعتها، وإبعاد الخلل عنْها:

«ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور رعيته : فاقة الأخيار والأحرار منهم، فليعمل في سدها، وطغيان السفلة منهم فليقمعه، وليستوحش من الكريم الجائع، واللئيم الشبعان، فإنما يصول الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع» .[1]

هذه الدرر في التراث لا تجدها في أقوال الناس اليوم ولم تدخل سياسة الدول على أهميتها وصدقها، وكل كلمة منها تحمل جواهر منظومة، ولها بريق أخاذ، ومدلولها صادق، فالأخيار والأحرار لا يرضون لأنفسهم أن تظهر فاقتهم، فقد يقتلهم الجوع والعوز دون أن يعلم عنهم، فهم لا يسألون الناس إلحافا، وقد يُظهرون من الغِنى والوُجد ما يخدع غير الأريب، ولهذا حضّت الحكمة على تفقدهم، والاستقصاء عنهم، وسد حاجتهم، دون حاجة منهم إلى بذل ماء وجههم .

والسفهاء في حاجة إلى لجام قوي، يوقف تعديهم

---

(١) الأدب الكبير: ٣١ .

وأذاهم ، فهم إن لم يقمعوا عاثوا وأفسدوا ، إذ لا دين يردعهم ، ولا خلق يمنعهم ، يعتـبرون هذا الاعتداء والطغيان مصدر فخر واعتزاز ، ونوعا من أنـواع الفتـوة ؛ وإذا لم يُردعـوا أخـافوا المجتمع ، وأقلقوا أمره ، وهذا يشمل ما يأتي من بعض الناس من عمل أو قول ، فأذى اللسان أحيانا أشد جرحا من مد اليد .

والحكمة تنذر من إهمال جوع الكريم ، فهذا قد يؤدي به إلى ما لا تحمد عقباه ، ويخشى منه أن يدفعه جوعه إلى أن يتصرف تصرفا لم يتوقع منه ، فالحياة ترخص إذا لم يكن لها ما يستحق أن تبقى من أجله .

ويخشى أيضاً من اللئيم إذا شبع ، لأنه يتعدى حدوده لزيـادة الثقـة عنده في أنه لم يستغن الغنى الفاحش إلا لميزات فيه ليست عند غيره ، فيتطلع إلى منزلة ليس أهلا لها ، لا علما ولا خلقا ولا نسبا ، فإذا حاول مثل هذا الطموح فإن المجتمع يختل ، أو على الأقل يصاب بهزة هو في غنى عنها .

ومن الدرر التي لا يغوص عليها إلا ذو ذهن صاف، وعقل متميز، وهي في صدقها مشعة، يراها واضحة من تمعن فيها:

«إن فضل القول على الفعل عار وهجنة، وفضل الفعل على القول زينة». [1]

عندما يكثر القول، ويزيد الادعاء، ويسيطر التظاهر، ويقل الفعل، وينعدم الجد والاجتهاد، فإن هذا عار وشنار على مجتمع هذه صفته؛ والهذر وكثرة الكلام، والجعجعة التي ليس وراءها طحن، تَجُرُّ أي مجتمع تتواجد فيه إلى الحضيض، لأنه لا يقيم الحياة، ويشيد البناء، إلا العمل والجد، فإذا حَظي مجتمع بهذا، وقل كلامه، ووفر جهده للعمل، وأوْقف طاقته على الحركة، فإن هذا يزينه.

وتتكلم امرأة بعقد من الدرر يأتي سابحا على قارب من الحكمة، بعد أن أمضتها الحياة، وأنهكها

---

(١) الأدب الكبير: ٧٣.

الـدهـر ، وطحنتهـا صروفـه ، وعصرتها مصائبه ، وتوالت عليها الفواجع .

«قَتَل رجل بصفين أبا امرأة وابنها وأخاها وعمها وعشرين من أهل بيتها ؛ ثم أتت تسأله .

فقال : ما أظن على ظهر الأرض أبغض إليك مني !

فقالت : بلى ! إن الذي ألجأني إليك أبغض إليّ منك ، وهو الجوع» .[1]

صدقت في قولها ، فإن الجوع أهانها ، والإهانة إذلال ، بينما قتل الأهـل فقـد وفجيعـة وحزن ، والإذلال ألمه أكثر عند الحر .

ويقول شاعر قولاً فيه درر ، ويصف فيه حال من كان في غفلة عن الاستفادة من النعمة التي هو فيها ، فلما تولت ، وأصبح معدما منها ، عرف طريقها :

(١) محاضرات الأدباء : ١٩١ .

«قال شاعر :

وكـان المـال يـأتيـنا فكـنا
نبـذره وليـس لنـا عقـول
فلمـا أن تـولـى المـال عـنا
عقلنا حين ليس لنا فضول[1]

كم من الناس مثّله هذا الشعر في قديم الزمان وجديده، والدر في الأقوال لا يَخْلُق ولا يضعف، بل لعله يتجدد مع الزمن، وينصقل مع التداول والتسجيل.

وينطق الأعمش، فيخرج من فيه نظما من الدرر، وكان لها تأثير قوي على حفص، وهو من هو في علمه وفضله :

قال حفص بن غياث القاضي :

«خرج علينا الأعمش يوما فقال :

هل تدرون ما قالت الأذن ؟

قلنا : وما قالت ؟

(١) محاضرات الأدباء : ١٩٢ .

قال : لولا أني أخاف أن أُقمع بالجواب لطلت كما طال اللسان .

قال حفص :

فكم من كلمة غاظني صاحبها منعني جوابها قول الأعمش» . [1]

إن القول القيم الذي نطق به الأعمش ، وأثر هذا التأثير السريع العميق على حفص ، أتت قوته ، وسطع بهاؤه ، من الصورة المادية للأذن التي رسمها الأعمش .

وقـد أجـاد الأعمش رسمها ، وأحسن إبرازها بحيث منعت حفصا من الإقدام على فعل كان على وشك أن يقدم عليه ، وكلما هم بذلك منعه ما يذكره من قول الأعمش على لسان الأذن .

وجلب رجل في زمن كسرى ثلاثاً من الدرر ، وطلب فيها ثمنا غاليا ، فلم يتقدم له أحد ، لارتفاع ثمنها ، وقلة فائدتها في نظر من عرضت عليه ، حتى

---

(١) ربيع الأبرار : ١/٦٩٦ .

قبل كسرى، وهو الملك أن يشتريها ليس رغبة فيها، ولكن لأنه يستطيع دفع الثمن، ولأنه يريد أيضاً أن يشبع غريزة حب الاستطلاع عنده، والقصة تجرى حوادثها كما يأتي:

«كان على عهد كسرى رجل يقول:

من يشتري منّي ثلاث كلمات بألف دينار؟

فيُطنز به؛ حتى اتصل خبره بكسرى، فطلبه، وأحضر المال.

فقال الرجل: ليس في الناس كلهم خير.

فقال كسره: زه.

قال: ولابد منهم.

قال: زه.

قال: فالبسهم على قدر ذلك.

قال: زه.

قال [كسرى]: قد استوجب المال، فخذه. فأبى.

فقال: فَلِمَ طِلَبته؟

قال : كنت أحب أن أرى من يشتري الحكمة بالمال» .[1]

إن هذا الحكيم درة من الدرر بفعله هذا .

وتتلفظ امرأة بدرر من الكلمات ، كانت سببا في تنبيـه غافـل استجـره الكلام، وحب الاستطلاع فنسي أمراً اضطرت امرأة فقيرة أن تهديه إلى الحق فيه ، فكان قولها حقا :

قال عتاب بن عبدالرحمن :

صدرت عن مكـة أريـد المدينة . . فنزلت مرّ الظهران ، فأتتني بدوية فسألتني .

فقلت لها : ممن أنت ؟

قالت : اللهم غفراً ، أو على هذا الحال تسألني عن هذا ؟

قلت لها : فما عليك أن تخبريني ؟

قالت : امرأة من كنانة .

قالت : فمن أنتَ؟

قلت : لا عليك .

(١) ربيع الأبـرار : ١/ ٣٩٤ .

قالت : ياسبحان الله ؛ تسألني فأخبرك وأنا على هذه الحال ، وأسألك ، فلا تخبرني وأنت في هذه الشارة والزينة ؟!

قلت لها : رجل من قريش .

قالت :

لولا قريش هلكت معدّ
واستاق مال الأضعف الأشدّ
ولم يزل يوطأ منا خدّ

قال : فأعطيتها وأحسنت » .[1]

ويأتي الدر في الكلام عندما يعتمد على مظهر نفسي أحسن درسه ، وأُتقِنَ فحصه ، فركب عليه المنطق ، فجاء القول حقًّا ، يبتسم له الواقع ، وتحتضنه الحقيقة :

«قال ابن شبرمة القاضي لابنه :

يابني ، لا تمكن الناس من نفسك ، فإن أجرأ الناس على السباع أكثرهم لها معاينة » .[2]

---

(١) مجالس ثعلب : ٢/٤٤٢ .
(٢) عيون الأخبار : ١/٤١١ .

القاضي لا يريد لابنه أن يجرئ الناس عليه، فتذهب هيبتهم له، وتزول «الكلفة» بينه وبينهم، فلا ينفذ الحزم منه إليهم، وقد يعترض على هذا من يدعو إلى التواضع، ولكن المثل المادي الذي اختاره القاضي ابن شبرمة بعناية وصدق يُثَبِّت رأيه، ولا يدع لابنه مجالاً للشك في فائدة ما قاله والده.

والذين رأوا مدربي السباع الضارية، والوحوش الكاسرة، يقدرون قول القاضي ابن شبرمة، فهم يدخلون إليها في أقفاصها، ويعطونها الأوامر، فتنفذها، ويدبرونهم كما يشأؤون، بل إن بعضهم يدخل رأسه في فم الأسد، ولا يقال إن هذه السباع مستألفة ومدربه، فإن مما ينقض هذا الحوادث التي تأتي منها أحيانا، فتفاجيء مدربها، وتقتله، عائدة إلى طبيعتها، وهذا الخروج دائماً يطل برأسه على المدرب، ولا يأمن غدرها.

ويلمح الألمعي الدرة إذا لاحت له، فيحرص على اقتنائها، وابن عباس نابه لماح، رأى درة مرة

فاقتنصها ، والقصة كما يلي :

حدث رجل كان يجالس ابن عباس ، قال :

قال عثمان بن أبي العاص [ الثقفي ] لبنيه :

«يا بني ، إني قد أمجدتكم في أمهاتكم ، وأحسنت مهنة أموالكم ، وإني ما جلست في ظل رجل من ثقيف أشتم عرضه ؛ والناكح مغترس ، فلينظر أمرؤ منكم حيث يضع غرسه ، والعرق السوء قلما ينجب ولو بعد حين» .

قال ابن عباس : «ياغلام أكتب لنا هذا الحديث» .[1]

وهناك درر ثمينة في كلمات منيرة أهديت من حكيم لحكيم ، تثبت حقيقة وتجلوها ، وتزيل لبسا ، وتمنع خطأ قد يترتب عليه ، وليس هناك أشرف من كلمة تحمي العقيدة ، وتصفي الأيمان ، والخطر على الإنسان دائماً يأتيه من مواطن الشبه ، والحوم حول حماها ، وهذه مراكز للشيطان وجنده ، يزوقها

---

(١) البيان والتبيين : ٢ / ٦٧ .

ويزينها ، ويخفي ظلمتها بنور زائف ، يجلب الساذج والجاهل ، فيوقعهم فيما ظنوه قربى ، وهو ضلال :

« قيل لحكيم : إحذر كل الحذر أن يخدعك الشيطان ، فيمثل لك التواني في التوكل ، ويورثك الهوينا بإحالتك على القدر ، فإن الله أمرنا بالتوكل عند انقطاع الحيل ، والتسليم للقضاء بعد الإعذار ، فقال : ﴿ خذوا حذركم ﴾ .[1]

وقال : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ .[2]

وقال عمر لرجل : « ما معيشتك ؟

قال : « رزق الله » .

فقال : لكل رزق سبب ، فما سبب رزقك ؟[3]

وتأتي درة لم تثقب مصونة ، تحملها جملة مختصرة ، ولكنها جامعة مانعة ، ضياؤها ساطع ، ونورها باهِر :

« الحر عبد إذا طمع ، والعبد حر إذا قنع » .[4]

---

(١) سورة النساء ، آية : ٧١ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٩٥ .
(٣) محاضرات الأدباء : ١٨١ .
(٤) محاضرات الأدباء : ٢٠١ .

قول حق، ليس مثل الطمع رق، فالطمع يستعبد الإنسان، يضع على ظهره سرجاً، وعلى أنفه وفمه لجاماً، يقوده إلى حيث يشاء طائعاً مختاراً، في طريق لا نهاية له، يسير فيه لاهثاً، دون أن يشبع، لا يهنأ له عيش، ولا تستقر له حياة، حتى يموت. فهو وراء المزيد إن نال شيئاً، وهو وراء الخيال إن كانت قدرته دون طموحه.

والعبد، وهو المملوك لغيره، حر في قرارة نفسه إذا اختار القناعة، وتزيا بزيها الجميل؛ وفي القناعة راحة بال، وفي الرضى بما أعطى الله غذاء للنفس، وفي الشكر الذي يصاحب القناعة باب للمزيد من النعم والخيرات، تأتي هينة لينة، دون تعب مضن، وركض مقيت.

وهناك درة جاءت في لباس شعر، وحلة قشيبة منه، تصدق على كثير من الناس في هذه الحياة، وقد يتجاهل وجودها بعض الناس حياءًا ولكنها تصدق على كثيرين إذا توفرت شروط صدقها:

هالوا عليه الترب ثم انثنوا

عنـه وخلـوه وأعمـالـه

لـم ينقض النـوح مـن داره

عليه حتى آقتسموا ماله[1]

قد تكـون الصورة رسمت بألوان مخيفة ، ودق فيها جرس للحقيقة بغيض ، إلا أن ما ذكر هو الحقيقة ، والاختلاف في وقت الاقتسام ، ولكنّه آت ، لأن هذه سنة الحياة ، بل إن الدين رتب هذا في قسمة المواريث ، وما عمله الشاعر هنا هو أنه أزال الأصباغ الاجتماعية ، وحبّر بقوله الحقيقة ، فجاءت واضحة غير مزوقة !

وتأتي الدرر من أنفس مضيئة ، شع نور الخير فيها ، فلا يخرج منها إلا ما شكل بقوالب الخير ، فجاءت من وحيه وفي ظله ، وعليها سيماه :

قال رجل للفضيل بن غزوان :

«إن فلانا يقع فيك !»

(١) محاضرات الأدباء : ٢٠٤ .

قال : لأغيظن من أمره ، غفر الله له .
قيل له : من أمره؟
قال : الشيطان .[1]

هذا صدر مليء بالنور ، فلما أُرسلت إليه ظلمة بددها ، وقلب ليلها نهاراً ، وديجورها ضياءاً ، وحلكتها إشعاعاً باهراً ؛ لقد أكتشف أن اللاعب خلف الستار إبليس ، فرد كيده في نحره ، ونقض غزله ، ولطمهُ لطمة أفقدته توازنه ، وخيبت أمله ، وردته على أعقابه خاسئاً وهو حسير ، فنكص خائب الجهد ، مضاع التعب ذليلا .

ويخيب أمل إبليس ، وينهزم جنده في موقف مماثل ، هو مسك الختام في حديثنا هذا :

«عن زيد بن أسلم قال :
قال رجل لابن عمر : إن فلانا يسبك .
قال : إني وأخي عاصم لانساب الناس» .[2]

---

(١) الإشـــراف : ٢٧٦ .
(٢) الإشـــراف : ٢٧٦ .

# الفهارس


(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ............... ٤٠٣

(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ....... ٤٠٤

(٣) فهـرس البلدان والأماكن ..................... ٤٠٥

(٤) فهـرس المراجـع ............................ ٤٠٧

(٥) فهـرس الأعــلام ............................ ٤١٦

(١) فهرس الأبيات الشعرية ...................... ٤٢٢

(١)

# فهرس المواضيع حسب ورودها


* السر في طريق الحياة ........ ٧
* أقوال على أقوال ........ ٢٥
* الـرد الحســن ........ ٤٣
* الجاحظ والملاحظة والتعْبير ........ ٥٨
* بهـاء اللغــة ........ ٧٣
* النفـوس العظـيمة ........ ٨٨
* التراث و إراحة النفس ........ ١٠١
* العـلة والصحـة ........ ١١٥
* خــارج الهــدف ........ ١٣٠
* زمــام الكلمــة ........ ١٤٥
* الحيوان الأعجم ينطق ........ ١٦٠
* الجــواب المفـاجىء ........ ١٧٦
* المـأمـون والأميـة ........ ١٨٩
* الجـود وظـلاله ........ ٢٠٠
* وانطلقت الســهام ........ ٢١٠
* المســعى الحميـد ........ ٢٢١
* العـين الخفـيّة ........ ٢٣٠
* رضــى النــاس ........ ٢٤٧
* اَلتكلف والتظاهر ........ ٢٥٦
* غـزو القـلوب ........ ٢٧٢
* من لا سـفيه له ........ ٢٨٢
* نضــج مبكــر ........ ٢٩٥
* مـدارج الهــم ........ ٣٢٥
* مكنـون الــدرر ........ ٣٦٥

# (٢)
# فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء


* أقوال على أقوال ........ ٢٥
* بهـاء اللغـة ........ ٧٣
* التراث وإراحة النفس ........ ١٠١
* التكلف والتظاهر ........ ٢٥٦
* الجاحظ والملاحظة والتعْبير ........ ٥٨
* الجـواب المفـاجىء ........ ١٧٦
* الجـود وظـلاله ........ ٢٠٠
* الحيوان الأعجم ينطق ........ ١٦٠
* خـارج الهـدف ........ ١٣٠
* الـرد الحسـن ........ ٤٣
* رضـى النـاس ........ ٢٤٧
* زِمـام الكلمـة ........ ١٤٥
* السرّ في طريق الحياة ........ ٧
* العـلة والصحـة ........ ١١٥
* العـين الخفـيّة ........ ٢٣٠
* غـزو القـلوب ........ ٢٧٢
* المـأمـون والأميـة ........ ١٨٩
* مـدارج الهـم ........ ٣٢٥
* المسـعى الحميـد ........ ٢٢١
* مكنـون الـدرر ........ ٣٦٥
* من لا سـفيه له ........ ٢٨٢
* نضـج مبكـر ........ ٢٩٥
* النفـوس العظـيمة ........ ٨٨
* وانطلقـت السـهام ........ ٢١٠

(٣)

# فهرس البلدان والأماكن


( ا )

الأهواز: ٢٠٧

( ب )

البحرين: ٣٤
البصرة: ٢٠٨، ٢٠٩، ٣٣٤، ٣٤٥
بغداد: ١١١
بقيع الغرقد: ٤٢
البلقاء: ٣٠٨

( ج )

الجزيرة العربية: ٣٣٢
الجزيرة في العراق: ٣٥٩

( ح )

الحجاز: ٢١٥
حنين: ٣٤٧

( خ )

خراسان: ٢٧٧، ٣٤٤

( د )

الدارم: ٣٠٨
درب يعقوب: ٢٤٢
دمشق: ٣١٢، ٣١٣

( ر )

رستقاباذ: ١٤١
الريّ: ٢٣٤، ٢٣٥

( س )

السند: ٣١١

( ش )

الشام: ٢٠٧، ٢٠٩، ٢٣٢، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢
شيراز: ١٥٦

( ص )

صفين: ٣٩٠

( ض )

ضياع (قرية باليمن): ١٣٢

( ط )

الطائف: ٣٤٧
طرسوس: ٢٧٧

( ع )

العراق: ١١١، ١٩٥، ٢١٠، ٢١٥
عرفات: ١١٠

( ف )

الفـرات : ٢٠٧ ، ٢٠٩

فلسـطين : ٣٠٨

( ك )

الكوفة : ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧

( ل )

لنــدن : ٣٨٣

( م )

المـدينـة المنـورة: ١٣٨، ٢٣٢، ٢٧٣، ٣١٠

المسجد الحرام: ٢١٥

مكة المكرمة: ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١٢٧، ١٥٤، ٢٣٢

( هـ )

الهنـد : ٢٧٩ ، ٣١١

( ي )

اليمـن : ٣٤، ١٣٢ ، ١٥٤

(٤)

# فهرس المراجع


١ - *أحسن ما سمعت*
أبو منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي
شرح : أحمد عبدالفتاح تمام وسيد عاصم
مؤسسة الكتاب الثقافية ، ١ - مكتبة الثعالبي
الطبعة الأولى : ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م

٢ - *أخبار الظراف والمتماجنين*
لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي
شرح : عبدالأمير مهنا
دار الفكر اللبناني - بيروت ، الطبعة الأولى : ١٩٩٠م

٣ - *أخبار القضاة*
لوكيع ، محمد بن خلف بن حيان
عالم الكتب - بيروت

٤ - *أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، وذكر أمرائها*
تحقيق : إبراهيم الأبياري
دار الكتاب المصري : ١٩٩٠م ، المكتبة الأندلسية

٥ - *آداب الملوك*
أبو منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي
تحقيق الدكتور : جلال العطية
دار العزب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م

٦ - *أدب الدنيا والدين*
أبو الحسن الماوردي
شرح وتعليق : محمد كريم راجح
دار إقرأ - بيروت

٧ - *الأدب الكبير*
عبدالله بن المقفّع
دار الجيل - بيروت

٨ - *الإشراف في منازل الأشْراف*
أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا
تحقيق : الدكتور نجم عبدالرحمن خلف
١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، مكتبة الرشْد - الرياض

٩ - *الإعجاز والإيجاز*
أبو منصور الثعالبي
تحقيق الدكتور : محمد التونجي
دار النفائس، الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

١٠- *كتاب الأغاني*
أبو الفرج الأصفهاني
تحقيق : لجنة من الأدباء
دار الثقافة - لبنان، الطبعة السادسة : ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م

١١- *كتاب الإمتاع والمؤانسة*
أبو حيان التوحيدي
تحقيق : أحمد أمين، أحمد الزين
منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان

١٢- *أنباء نجباء الأبناء*
حجة الدين محمد بن ظفر
تحقيق : إبراهيم يونس
دار الصحوة للنشر : ١٩٩١م

١٣- *البخلاء*
أحمد علي الخطيب البغدادي

تحقيق : محمد إبراهيم سليم
مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير

١٤ - *كتاب البخلاء*
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : أحمد العوامري بك وعلي الجازم
مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م

١٥ - *البرصان والعرجان والعميان والحولان*
أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ
تحقيق : محمد مرسي الخولي
دار الاعتصام للطبع والنشر
القاهرة - بيروت : ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م

١٦ - *البصائر والذخائر*
أبو حيان التوحيدي
تحقيق : الدكتورة وداد القاضي
دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى

١٧ - *كتاب البغـــال*
تحقيق : الدكتور علي بوملحم
منشورات دار مكتبة الهلال - بيروت
الطبعة الأولى : ١٩٩١م

١٨ - *بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس*
يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري
تحقيق : محمد مرسي الخولي
دار الكتب العليمة - بيروت - لبنان

١٩ - *البيـان والتبـيين*
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق : عبدالسلام محمد هارون
الطبعة الأولى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

٢٠ - *تاريخ بغداد (أو مدينة السلام)*
أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

٢١ - *تاريخ قضاة الأندلس*
(كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)
أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي
ذخائر التراث العربي
المكتب التجاري للطباعة والنشر - بيروت

٢٢ - *تحفة العروس ونزهة النفوس*
عبدالله محمد بن أحمد بن أبي القاسم التجاني
تحقيق : محمد إبراهيم الدسوقي
مكتبة ابن سينا

٢٣ - *تحفة الوزراء*
أبو منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي
تحقيق : حبيب علي الراوي والدكتورة إبتسام مرهون الصفار
مطبعة العاني - بغداد : ١٩٧٧م

٢٤ - *تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين*
أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
تحقيق : عبدالسلام محمد هارون
الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

٢٥ - *كتاب تسهيل النظر ، وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك*
أبو الحسن علي بن محمد الماوردي
تحقيق : محي هلال السرحان والدكتور حسن الساعاتي
دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ، ١٩٨١م

٢٦ - *تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون*
خليل أيبك الصفدي
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية - صيدا ، بيروت

٢٧ - *كتاب الحيـــوان*
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبدالسلام هارون
دار إحياء التراث

٢٨ - *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة*
عبدالقادر الأنصاري الجزيري
أعده للنشر : حمـد الجاسـر
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
الرياض : ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

٢٩ - *الديـارات*
أبو الفرج الأصبهاني
تحقيق : جليل العطيّة
الطبعة الأولى : ١٩٩١م ، رياض الريّس : لندن ، قبرص

٣٠ - *كتاب الذخائر والتحف*
الرشيد بن الزبير
تحقيق : الدكتور محمد حميد الله
سلسلة التراث العربي ، الكويت ، ١٩٥٩م

٣١ - *الذهب المسبوك في وعظ الملوك*
أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي
تحقيق : أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
والدكتور عبدالحليم عويس
عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

٣٢- *ربيع الأبرار، ونصوص الأخبار*
محمود بن عمر الزمخشري
تحقيق : الدكتور سليم النعيمي

٣٣- *رجال من التاريخ*
علي الطنطاوي
دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

٣٤- *رحلة الشتاء والصيف*
محمد بن عبدالله الحسيني الموسوي (الشهير بكبريت)
تحقيق : محمد سعيد الطنطاوي
الطبعة الثانية - بيروت، ١٣٨٥هـ

٣٥- *سراج الملوك*
محمد بن الوليد الطرطوشي
تحقيق : جعفر البياتي
رياض الريّس للكتب والنشر، ١٩٩٠م

٣٦- *سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون*
لجمال الدين بن نباته المصري
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية - صيدا، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٣٧- *كتاب العقد الفريد*
أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه
تحقيق : أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة

٣٨- *كتاب العقل وفضله*
أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا
حققه وعلق عليه : لطفي محمد الصغير

٣٩- *عيـون الأخبـار*
أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري

دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

٤٠ - *الفرج بعد الشدة*
أبو علي المحسّن بن علي التنوخي
تحقيق : عبّود الشالجي
دار صادر - بيروت ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م

٤١ - *قاموس نامه (النصيحة)*
الأمير عنصر المعالي كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن زيّاد
تعريب : محمد صادق نشأت ، دكتور أمين عبدالمجيد بدوي
مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م

٤٢ - *قوانين الوزارة*
أبو حسن الماوردي
تحقيق : الدكتور فؤاد عبدالمنعم أحمد
والدكتور محمد سليمان داود
مؤسسة شباب الجامعة ، الطبعة الثالثة ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م

٤٣ - *الكامل في التاريخ*
أبو الحسن عز الدين علي بن الاثير الجزري
دار الفكر - بيروت

٤٤ - *الكشكول*
بهاء الدين العلوي
تحقيق : الطاهر أحمد الزاوي
طبع بدار إحياء الكتب العربية : عيسى البابي الحلبي وشركاه

٤٥ - *لطائف اللطف*
أبو منصور عبدالملك الثعالبي
تحقيق : الدكتور عمر الأسعد
دار المسيرة - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

٤٦ - *مجالس ثعلب*
أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب

تحقيق : عبدالسلام هارون
دار المعارف - الطبعة الخامسة

٤٧ - *مجالس العلماء*
أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحاق الزجاجي
تحقيق : عبدالسلام هارون
سلسلة التراث العربي، الكويت، ١٩٦٢م

٤٨ - *المجتنَى*
أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي
دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

٤٩ - *المحاسن والأضداد*
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : الدكتور عاصم عيتاني
دار إحياء العلوم - بيروت
الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٥٠ - *محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء*
الراغب الأصبهاني
دار الآثار - بيروت
إختصار : إبراهيم زيدان

٥١ - *المخلاة*
بهاء الدين محمد بن حسين العاملي
تحقيق : محمد خليل الباشا
عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م

٥٢ - *المراح في المزاح*
بدر الدين أبو البركات محمد الغزي
(ضمن مجموعة الرسائل الكمالية «٢»)
مكتبة المعارف - الطائف

٥٣ - *المستطرف في كل فن مستظرف*
شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الإبشيهي
تحقيق : الدكتور مفيد محمد قميحه
دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان
الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٥٤ - *المصون في الأدب*
أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري
تحقيق : عبدالسلام هارون
(التراث العربي ، وزارة الإرشاد - الكويت) ، ١٩٦٠م

٥٥ - *معجم الأدباء*
شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي
دار إحياء التراث العربي - بيروت

٥٦ - *نزهة الفضلاء : تهذيب سير أعلام النبلاء*
شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
محمد حسن عقيل موسى
دار الأندلس - جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م

٥٧ - *كتاب النصيحة (قاموس نامه)*
الأمير عنصر المعالي كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشكمير بن زيّار
الطبعة الأولى ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م
مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة

٥٨ - *نوادر القصص عند العرب*
فؤاد قميحه
دار الفكر اللبناني - بيروت (سلسلة النوادر والظراف)
الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م

# (٥)
# فهرس الأعلام


## (ا)

إبراهيم بن الحسن : ٣٤٣
إبراهيم بن عبدالله بن حسن بن علي بن أبي طالب : ١١٣
إبراهيم بن أبي محمد اليزيدي : ١١٣
إبراهيم بن المهدي : ١٩٢، ١٩٣
أحمد بن أبي دؤاد : ٣٥٩
أحمد بن أبي خالد : ٥٠
الأحنف بن قيس : ١٤٨، ١٤٩، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٩
أسامة بن زيد : ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠
إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : ٢٥٩، ٢٦٠
الصاحب إسماعيل بن عباد : ١٥٦
إسحاق الموصلي : ١٨٥، ١٨٦
الأصمعي : ٤٧، ٤٨، ١٥٧، ١٥٨، ٢٠٦، ٢٠٨
ابن الإطنابة : ١٩٤
الأعمش : ٢٠٩، ٣٦١، ٣٩١، ٣٩٢
أعين الطبيب : ٢٦٥، ٢٦٧
أفلاطون : ٣٨٤، ٣٨٥
الأمويون : ١٥٦، ١٩٢، ٣٥٦
إياس بن معاوية : ٢٥٨، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٥٠
أيّوب بن القرّيّة : ١٤٠، ١٤١، ٢٦٥

## (ب)

باهلة : ٢١٢، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨
أبو البراء عامر بن مالك : ٢٩٠، ٢٩١
بشار بن برد : ١٥، ٣٧٦
بشر الحافي : ٢٧٦
بشر بن حجر : ٢٦٢
بقراط : ٣٣
بكار بن رباح : ١٠٩
أبو بكر الصديق : ٣٥، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣٣٠، ٣٤٧
أبو بكر الهذلي : ٢٥٨
بهرام جور : ٩٢، ٩٣
بهلول : ١٠٨، ١٠٩

## (ت)

أبو تمام : ٩٥
تميم : ٢٢٠

## (ث)

الثعالبي : ٧٧، ٧٩

## (ج)

الجاحظ : ٣١، ٤٠، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١، ١٥٢، ١٥٣، ٢٥٨، ٢٥٩
جرير : ١٥٢
أبو جزء بن عمر بن سعيد بن سلم : ٢١٥
جعفر بن سعيد : ٦٣

جعفر بن سليمان الهاشمي : ٩٦
جعفر بن نصير : ٢٦٣
الجماز : ١٣٣
جناده : ١٥٦

( ح )

أبو الحارث : ٦١
بنو الحارث بن كعب : ٢١٥
الحارث بن حلزة : ٣١٧
الحارث بن سباع الخراساني : ٢٨١
أبو حامد الفقيه : ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧
ابن أبي حامد : ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨
أبو حامد المروروذي : ٢٢٣
حبيب بن وضاح : ٢٣٦
الحجاج بن يوسف : ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ٢١١، ٣١١، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٦٢، ٢٦٣
الحسن البصري (أبو سعيد) : ٢٥٨، ٢٥٩، ٣٧٧
الحسن بن إبراهيم العلوي : ٧٠
الحسن بن علي : ٤١، ٤٢
أبو الحسن : ١٣٤، ١٣٩، ٢٩٨، ٣٥٠
أبو الحسن المدائني : ٣٣١
الحسين بن علي : ٤٢
أبو الحسين ابن عياش القاضي : ٣٠٥
ابن حزم (عامل عبدالملك على المدينة) : ١٣٨
الحزيمي : ١٠٧
حفص بن غياث : ٣٩١، ٣٩٢
حمد الجاسر : ٢١١
حمـزة : ١٣٦
حميدان الشاعر : ٣٣٩
الحنفيين : ٣٧
أبو حيان التوحيدي : ١٧٧

( خ )

ابن خاقان : ٣٢٠
خالد بن صفوان : ١٢٧
الخطابي : ٢٧١
الخلفاء الراشدون : ١٩٢

( د )

أبو الدرداء : ٣٣، ٧٦
ابن دريد : ٣١٧
أبو دلامة : ٩٥
ابن أبي الدنيا : ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠
ديسيموس : ٣٨

( ر )

الربيع : ٢٣٤
ربيعة بن عسل : ٣٤٤

( ز )

زبيدة بنت جعفر : ١٣٦، ١٧٦
زبيري عميري : ٣٧
الزبير بن العوام : ٣٧٤
أبو زلال الحذاء : ٢٦٤، ٢٦٥
الزمخشري : ٤٢
أبو الزناد : ١٥٠
زياد بن أبيه : ١٣٢، ١٣٣، ١٩٤، ٢١١، ٣٤٤

زياد بن عبدالله الحارثي : ١٣٩، ٢٦٩، ٢٧٠
زيد بن أسلم : ٤٠١
أبو زيد : ١٩٩
زيد بن الخطاب : ٣٦
أبو زيد السروجي : ١٨٠
زيد بن عمرو : ١٥١

( س )

السّريّ بن المغلس : ٣١٥،٣١٦
سعيد بن خالد بن عبدالله المطرف بن عمرو بن عثمان بن عفان : ٣٥
سعيد بن عبدالرحمن الزبيري : ٣٥١
سقراط: ٣٢، ٣٣
سلم بن قتيبة : ٣٤٢، ٣٤٣
سليمان بن عبدالملك : ٩٨، ٩٩، ١٣٨
سليمان بن غزوان : ٦١

( ش )

القاضي ابن شبرمة : ١٥٠ ، ٣٣٥
أبو شراعة : ١٣٣
أنوشروان : ٩٤، ٩٥
شريك : ٢٨٥
شظاظ: ١٣٩
الشعبي : ١٨١
الشماخ : ٤٦

( ص )

صالح بن عبدالقدوس : ١٤
صلاح الدين الأيوبي : ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤

( ض )

الضحاك بن سفيان الكلابي : ٣٤٨
ضرار بن حصين الأسدي : ٢٢٠
ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة : ٢٠٦، ٢٠٨

( ط )

طاووس : ١٥٤
طلحة : ٩٩
الطلقاني : ١٥٨

( ظ )

الملك الظاهر بيبرس : ١٧ ، ١٨

( ع )

عائشة بنت أبي بكر الصديق : ٣٩، ٤٠، ٤١ ، ٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨
عاصم بن عمر بن الخطاب : ٤٠١
عامر بن عبدالله الزبيري : ٣٥١ ، ٣٥٢
العباسيون : ١٥٦ ، ١٨٤ ، ١٩٢ ، ٣٥٦
ابن عبدالبر : ٤١
عبدالحميد الكاتب : ٨٥
الخليفة عبدالرحمن بن الحكم: ٩١
عبدالرحمن بن عوف : ٣٧٤
بنو عبدشمس : ١٥١
الملك عبدالعزيز آل سعود : ١٥ ، ١٨٣
عبدالعزيز بن عبدالملك : ٣١٢ ، ٣١٣
عبدالله بن جعفر بن أبي طالب : ٢٠١، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦
عبدالله بن خازم : ٢١٩

عبدالله بن رواحة : ٣٣٧
عبدالله بن الزبير: ٣٢١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤
عبدالله بن زياد : ٥٤، ٥٥
عبدالله بن صالح الهاشمي : ٥٥، ٥٦
عبدالله بن طاهر: ١٨٣، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣
عبدالله بن عباس : ٤٠، ٤١، ٢٧٣، ٢٩٧
عبدالله بن عبدالرحمن القعقاعي : ٢٠٨
عبدالله بن عمر: ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٤٩، ٤٠١
عبدالله بن مسعود : ٣٦١
عبدالله بن مسلم بن قتيبة : ٢٦٥
عبدالله بن المقفع : ٣٨، ٣٩، ١٦٢، ٢٨٩، ٣٢٢
عبدالملك بن مروان: ٣٣، ٣٧، ١٢٢، ١٢٣، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٧٢
عبيدالله (وزير المهدي) : ٧٧
عبيدالله بن زياد : ١٩٤، ١٩٥، ١٩٨، ٣٤٠
عبيدالله بن سليمان (الوزير) : ١٩٦
عبيدالله بن قيس الرقيات : ٢٠٥
عبيدالله بن محمد بن أبي محمد اليزيدي : ١١٣
أبو عتاب : ١٠٦
عتاب بن أسيد : ٣٠٤
عتاب بن عبدالرحمن : ٣٩٤
عتاب بن ورقاء: ٣٣٥، ٣٣٦
ابن أبي عتيق : ٤٠
أبو عثمان الإشناني : ٣١٧
عثمان بن أبي العاص الثقفي : ٣٩٧
عثمان بن عفان : ٣٣٠
عروة بن الزبير: ٣٧٥
عروة بن سليمان العبدي : ١٢٨
عقيل بن أبي طالب : ١٥١
أبو علقمة النحوي : ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥
أبو علقمة النميري الأعرابي: ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧
علي بن أبي طالب : ١٣، ١٤
أبو علي التنوخي : ٣١٧
علي بن الحسين الرازي : ١٠٨
أبو عمران : ٦١
عمر بن الخطاب : ٣٥، ٣٧، ٤٦، ٣١٠، ٣٢١، ٣٣٠، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٧١، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠
عمر بن أبي ربيعة : ٣٣٦
عمرو بن العاص : ١٩
عمر بن عبدالعزيز: ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٣٧١
أبو عمرو بن العلاء: ١١٧، ٣٣٣، ٣٦١، ٣٦٢
عمر بن محمد القاضي : ٣٠٥، ٣٠٦
عمرو بن هداب (أبو أسيد) : ١٠٦
بنو عمرو بن يربوع : ٣٤٦
عمر بن يزيد بن عمير الأسدي : ٢٢٠
أبو العميثل : ١٨٣
ابن أبي عودة الخياط: ٦١
أبو العيناء (أبو عبدالله) : ١٥٨، ١٨٢
عيينه بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري: ٣٤٧

## ( ف )

أبو الفرج الثلاج : ٢٦٨
الفرزدق : ٣٠
ابن فضلان : ١٩٢
الفضل بن الربيع : ٤٨، ٥١
الفضل بن سهل : ٢٨١، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٩
الفضيل بن غزوان : ٤٠٠

## ( ق )

القاسم بن عبيدالله الوزير : ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤
قتيبة بن مسلم : ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٧٧
قريش : ٤٠
قيس : ٢١٦
قيس بن حازم : ٢٧٥
قيس بن عيلان : ٣٧

## ( ك )

كثيّر عزة : ٤٦، ٤٧
الكسائي : ١٣٦، ٢٦٨، ٢٦٩
كسرى : ٣٩٢، ٣٩٣
كشاجم (الشاعر) : ٢١
بنو كلب : ١٢٨، ١٣٢، ٣٤١
كلثوم بن عمرو العتّابي : ١٨٥، ١٨٦
كيسان بن المعرف الهجيمي : ١٩٩

## ( م )

ماسويه : ١٨٦
مالك بن أنس : ٥١، ٥٣، ٥٤
المأمون : ٣٢، ٤٩، ٥٠، ١٨٥، ١٩٢، ١٩٣، ٢١١، ٢٨١، ٣٤٩، ٣٥٧
محمد بن الجهم : ١٣٥
الإمام محمد بن سعود آل سعود : ١٨٩
محمد بن سلام : ٢٠٥
محمد بن سليمان : ٣٤٣
الشيخ محمد بن عبدالوهاب : ١٨٩
محمد عبده يماني : ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١
محمد بن عبيدالله من ولد عتبة بن أبي سفيان : ١٥
محمد بن القاسم بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي : ٣١١
محمد بن مانع : ١٦
محمد بن واسع : ٢٦٨، ٢٧٧
محمد بن يوسف : ١٥٤
محمد الورّاق : ٢١
بنو مخزوم : ٣٤٥
المدائني : ٢١٧
ابن المرزبان : ١٥٨
مروان بن الحكم : ٤٢
أبو مريم الحنفي : ٣٦، ٣٧
المسيح : ٣٤
مضر : ٢١٦
معاويه : ٩٥، ٩٧، ١٣٢، ١٥١، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٧٤، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦
المعتصم : ٣٢٠، ٣٥٩، ٣٦٠
المعتضد : ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥
المغيرة : ٣٥٥
المكتفي : ٣١٨

المماليك : ١٧
ابن منارة الكاتب : ١٥٨
المنصور : ٥٧، ١٤٩، ٢١١، ٢٧٠، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٤٢، ٣٤٣
المهدي : ٧٧، ٢٣٣
المهلب : ٣٢٨

( ن )

نافع (مولى عبدالله بن عمر) : ٣٤٩
نصيب (أبو الحجناء) : ٢٠٤
بنو نمير : ١٥٢، ٢٥٣

( هـ )

هارون الرشيد : ٣٢، ٣٥، ٤٨، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٢١١، ٢٨٠
هارون الأعور : ٢٠٦
بنو هاشم : ١٥١
الهاشمي : ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٥
بنو هلال : ٢٩١، ٢٩٢

( ي )

يحيى بن أكثم : ٣٠٣، ٣٠٤
يحيى بن معاذ : ٧٩
يزيد بن عبدالملك : ٤٦، ٤٧
يزيد بن مزيد : ٢٨٠
يزيد بن معاوية : ٢٠٣
يعقوب بن داوود (هـ) : ٣٠٨
أبو اليقظان : ٣١١
يموت بن المزرع : ٣١
يوم الجمل : ٣٩، ٤٠، ٤١

( و )

أبو الوداع : ٢٨١
الوضاح بن حبيب : ٢٣٣، ٢٣٤
وكيع : ٧٥، ٢٨٤
وكيع بن أبي سودة : ٢٢٠
وكيع بن أبي سودة : ٢٥٨، ٢٥٩
الوليد بن عبدالملك : ٣٤٥، ٣٤٦
الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : ٢٧٣، ٢٧٤
وهب بن منبه : ٣٢٤

# (٦)
# فهرس الأبيات الشعرية

## (ا)


يسقط الطير حيث يلتقط الحب ........ الكرماء ٣٧٦


## (ب)


أزبيدة ابنة جعفر ........ المثاب ١٣٧
فغض الطرف إنك من نمير ........ كلابا ١٥٣
ولا أكتم الأسرار لكني أنمها ........ قلبي ٢٢
إن الأفاعي وإن لانت ملامسها ........ العطب ١٨٤
لا تكتمن داءك الطبيبا ........ المحجوبا ٢٢
تبسطنا على الآثام لما ........ الذنوب ٧٨
إلى جا للنّفس محاسبها ........ مكاسبها ٣٣٩


## (ج)


تزوجت أبغي قرة العين أربعاً ........ أتزوج ١٤٢


## (ح)


لابدّ للسؤدد من رماح ........ السّلاح ٢٨٧
أبت لي عفّتي وأبى بلائي ........ الرّبيح ١٩٤


## (د)


إذا لم يكن عون من الله للفتى ........ اجتهاده ٣٥٨
إن السّماحة والمروءة والنّدى ........ محمد ٣١١
أصبح قلبي صردا ........ يردا ١٧٢
لولا قريش هلكت معدّ ........ الأشد ٣٩٥
وأكرم نفسي لأنني إن أهنتها ........ بعدي ١٥٧
إذا كنت ذا سرٍّ تخاف من العدا ........ وُدِّ ١٩

( ر )

| | | |
|---|---|---|
| أنا من نخلة تجاور قبرا ........................ | طــرّا | ١٠٣ |
| ويكاتم الأسرار حتّى أنّه ........................ | بخاطـره | ٢١ |
| بني هلال ألا تنهوا سفيهكمو ........................ | مأمـور | ٢٩٢ |
| ذريني للغِنَى أسعى فإنّي ........................ | الفقـير | ٣٧٥ |

( ع )

| | | |
|---|---|---|
| لا تذع سرًا إلى طالبه ........................ | مـذيـع | ١٤ |

( ق )

| | | |
|---|---|---|
| إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه ........................ | أضـيق | ١٥ |

( ك )

| | | |
|---|---|---|
| شمالك أجود من يمين غيرك ........................ | سـواك | ١٣٧ |

( ل )

| | | |
|---|---|---|
| وذي ضغن أبيت القول فيه ........................ | المقـال | ٢٨٦ |
| دفعتكم عنّي وما دفع راحة ........................ | بالأنامل | ٢٩٠ |
| ولا يلبث الجهّال أن يتهضّموا ........................ | بجهـول | ٢٨٨ |
| وكان المال يأتينا وكنّا ........................ | عقـول | ٣٩١ |
| هالوا عليه الترب ثم انثنوا ........................ | أعمـاله | ٤٠٠ |
| كتب القتل والقتال علينا ........................ | الذيـول | ٣٣٦ |

( م )

| | | |
|---|---|---|
| تعدو الأعادي على من لا خفير له ........................ | الحـامي | ٢٨٤ |
| يزدحم الناس على بابه ........................ | الزحـام | ٣٧٦ |
| تبوح بسرك ضيقاً به ........................ | يكـتم | ١٥ |
| فإن لم تجد بدّاً من الجهل فاستعن ........................ | العـزم | ٢٨٩ |

## ( ن )

| | | |
|---|---|---|
| أمسـيت آخـذ أتـرجّـا ........................ | المسـاكين | ١٢١ |
| إذا ازدحمت همومي في فؤادي ........................ | بالتمـني | ٢٩٤ |
| شهدت بأنَّ وعد الله حق ........................ | الكافرينا | ٣٣٧ |
| أصغي إلى قائدي ليخبرني ........................ | يحييني | ١٠٧ |

## ( و )

| | | |
|---|---|---|
| إذا كتم الصديق أخاه سرّاً ........................ | العـدوّ | ٢١ |

## ( ي )

| | | |
|---|---|---|
| لعمرك ما يدري أمرؤ كيف يتّقي ........................ | وافيـا | ٣٥٩ |


**تم الجزء الرابع بحمد الله تعالى**

## نبذة عن المؤلف :

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .

## كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ .
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر» .
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طريق البحث» .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة العربية .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة الانجليزية .
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ونشره .
- حقق كتاب : « حسن المناقب السرّية ، المتفرعة من السيرة الظاهرية » لشافع ابن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ .
- من حطب الليل ، نشر في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
- ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب : «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين» .
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب « أي بني » في خمسة أجزاء .
- ألَّف عام ١٤١٤هـ كتاب « إطلالة على التراث » الجزء الأول والثاني والثالث وبين يديك الجزء الرابع .


## التوزيع

تطلب الأجزاء الأربعة من كتاب « إطلالة على التراث » ، والأجزاء الخمسة من كتاب « أي بني »

من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص . ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤

جدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الدمام ت : ٨٢٧١٨١١

القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

ردمك : ٩٦٦٠ - ٢٧ - ١١٧ - × (مج ٤)

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ ★ الرياض